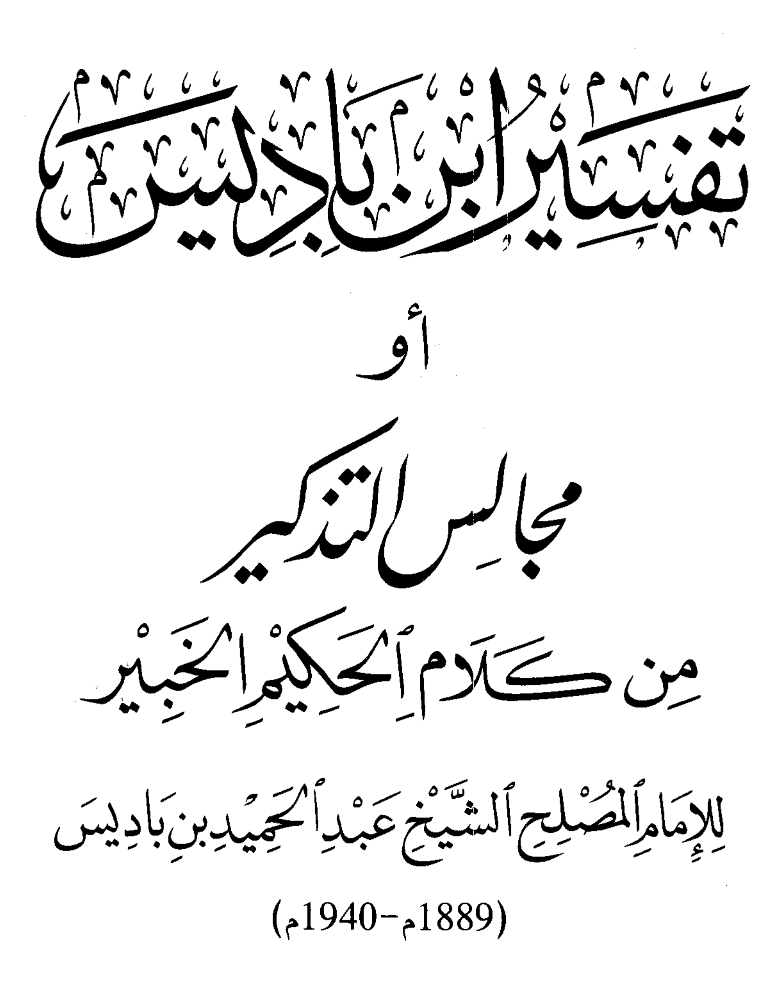


المجلد الأول

اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره
أبو عبد الرحمن محمود

دار الرشيد
للكتاب والقرآن الكريم
(الجزائر)

الطَبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



المبيعات: 33 ش محمد برقيه مقابل مسجد السنه (باب الوادى) 00213 21962546
الإدارة : شارع بوجمعه خليل العاشور وادى الرمان - الجزائر 00213 21308043


تفسير ابن باديس
١


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الإمام محمد البشير الإبراهيمي -رحمه اللّه تعالى-



القرآن كتاب الإنسانية العليا استشرفت إليه قبل أربعة عشر قرنًا حين ضامها أبناؤها فعقُّوها، فارتكسوا في الحيوانية السفلى، فأخلدوا إلى الأرض، فأكثروا فيها الفساد، فأنزله اللّه من السماء ليصلح به الأرض، وليدل أهلها المستخلفين عليها من بني آدم على الطريق الواصلة باللّه، ويجدد ما رثَّ من علائقهم به.

وما أشدَّ شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قُبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكّم الأهواء والتباس السبل وتحكيم القوَّة وتغوّل الوثنية المالية.

وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن، وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال، وقد عجز العقل عن هدايتها وحده، كما عجز قديمًا عن هدايتها، لولا تأييد اللّه له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه

الوهن، ويصلح خطأه إذا اختل ميزانه.

وكما أتى القرآن لأوَّل نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر، فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلَّا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العملي نفوسٌ ساميةٌ وهِمَمٌ بعيدةٌ كنفوسهم وهممهم.

أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحي، وبهذا الأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي- فإنه لا يفيدهم شيئًا ولا يفيد بهم شيئًا؛ بل يزيدهم بعدًا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافًا بهم وإمعانًا في التكالب عليهم والتحكم في رقابهم وأوطانهم.

ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما عملوا به، وحكَّمناه في نفوسنا كما حكَّموه، وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعة له وموزونة بميزانه- لو فعلنا ذلك لكنا به أعزة في أنفسنا وأئمةً لغيرنا.

تفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحِكَمِه وآدابه ومواعظه، والتفهيم تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه وإنْ كَتب فيه المجلدات وأملى فيه ألوف المجالس.

وفهم القرآن يتوقف -بعد القريحة الصافية والذهن النير- على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن،

الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، والاطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم على التأمل في سنن اللَّه في الكائنات، ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها .

وقد فهمه السلف حق الفهم ففسروه حق التفسير، مستعينين على ذلك بما ذكرنا من القرائح والأذهان، وأسرار البيان، ومستعينين بإرشاده على فقه سنن الأكوان .

ولو لم ينحسر تيار الفهوم الإسلامية للقرآن بما وقف في سبيله من توزع المذاهب والعصبيات المذهبية لانتهى بها الأمر إلى كشف أسرار الطبيعة ومكنونات الكون، ولسبق العقل الإسلامي إلى اكتشاف هذه العجائب العلمية التي هي مفاخر هذا العصر .

كان علماء السلف يشرحون الجانب العملي من القرآن على أنه هداية عامة لجميع البشر، يطالب كل مؤمن بفهمها والعمل بها، وكانوا يتحاشون الجانب الغيبي منه لأنه مما لا يصل إليه عقل المكلَّف، فلا يطالب بعلمه، ولا يحاسب على التقصير فيه، وكانوا ينظرون إلى الجانب الكوني منه نظرات مسددة لو صحبها بحث مسدد ممن أتى بعدهم .

وللمفسرين من عهد التدوين إلى الآن طرائق في فهم القرآن، وأساليب في كتابة تفسيره .

أما الأساليب فقلما تختلف إلا ببعد العصور حين تختلف الأساليب الأدبية، فتنحط أو تعلو، فيسري التطور منها إلى الأساليب العلمية .

أما الطرائق فإنها تختلف باختلاف الاختصاص في المفسرين والعلوم

التي غلبت عليهم وعُرفوا بها.

فالمحدِّثون يلتزمون التفسير بالمأثور، فإن اختلفت الرواية، فمنهم من يروي المتناقضين ويدعك في حيرة، ومنهم من يدخل نظره وفكره في التعديل والترجيح كما يفعل أبو جعفر الطبري[1].

ومقلدة المذاهب يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم ويحكّمونها فيه، فإذا خالفَ نصُّه قاعدةً من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها.

وهذا شر ما أصيب به هذا العلم، بل هو نوع من التعطيل، وباب من التحريف والتبديل، لأنه في حقيقة أمره وضع لكلام اللَّه في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه، وأعظم بها زلة، وإن هذه الزلة هي الغالبة من صنيع المفتتنين بالمذاهب والمتعصبين لها، يتباعدون عن القرآن ما شاء لهم الهوى، فإذا تناولوه فبهذه النظرة الخاطئة.

والمتكلمون في معاني القرآن معظمهم من اللُّغويِّين والنحاة، فهم يتكلمون غالبًا على الألفاظ المفردة وأوجه الإعراب، فهم أقرب الكاتبين في الغريب أمثال الأصفهاني[2] وأبي ذر الهروي[3]، وإنما أطلقوا على كتبهم هذا الاسم (معاني القرآن) لأن بساطة الأسماء كانت هي الغالبة في زمنهم.

والإخباريون مفتونون بالقصص فلا يقعون إلا على الآيات المتعلقة به،

---

(١) هو الإمام المجتهد محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، منها: «التفسير» و«التاريخ» و«تهذيب الآثار». توفي سنة (٣١٠هـ). انظر «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٦٧- ٢٨٢) للذهبي، وغيره.

(٢) هو المعروف بالراغب، توفي سنة (٥٠٢هـ). الأعلام (٢/ ٢٥٥).

(٣) هو عبد بن أحمد أبو ذر الهروي، المتوفى سنة (٤٣٤هـ). الأعلام (٣/ ٢٦٩).

ويا ليتهم يحققون الحكمة من القصص، فيجلون العبر منها ويستخرجون الدقائق من سنن اللّه في الأمم وجميع الكائنات، ولكنهم يسترسلون مع الرواية وتستهويهم غرابة الأخبار، فينتهي بهم ذلك إلى الاسرائيليات الخاطئة الكاذبة، وقد أدخلوا بصنيعهم هذا على المسلمين ضررًا عظيمًا، وعلى التاريخ فسادًا كبيرًا .

وأصحاب المذاهب العقلية إذا تعاطوا التفسير لا يتوسعون إلا في الاستدلالات العقلية على إثبات الصفات أو نفيها، وعلى الغيبيات والنبوات وما يتعلق بها .

والنحاة والباحثون في أسرار التراكيب لا يفيضون إلا في توجيه الأعاريب أو في نكت البلاغة كما يفعل الزمخشري[1] وأبو حيان[2] .

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن، حكَّموا فيه نِحلهم ومذاهبهم وصناعتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هديه وبلاغه، وأبعدوا الأمة عنه، وصرفوها عن حكمه وأسراره، ولو ذهبنا مذهب التحديد في معاني الألفاظ الاصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلًا .

أما المفسرون الذين يصدق عليهم هذا الوصف فهم الذين يشرحون فقه القرآن، ويستثيرون أسراره وحِكمه معتمدين على القرآن نفسه وعلى السنة وعلى البيان العربي كما أشرنا إلى ذلك قبلًا .

---

(١) هو كبير المعتزلة محمود بن عمر الزمخشري، الملقب بـ(جار اللّه). أشهر كتبه «الكشاف» في تفسير القرآن توفي سنة (٥٣٨هـ). سير النبلاء (٢٠/ ١٥١- ١٥٦)، والأعلام (٧/ ١٧٨).

(٢) هو محمد بن يوسف أبو حيان الغرناطي، النحوي، من كتبه «البحر المحيط» في تفسير القرآن. توفي سنة (٧٤٥هـ). الأعلام (٧/ ١٥٢).

ومن هؤلاء من اقتصر على الأحكام فقط كابن العربي[١] والجصاص[٢] وعبد المنعم بن الفرس[٣]، وهؤلاء الثلاثة هم الذي انتهت إلينا كتبهم.

ومنهم من عمم ولكن توسّعه ظاهر في الأحكام: أحكام العبادات والمعاملات، كالقرطبي[٤] وابن عطية[٥] وأضرابهما.

وكان خمود وكان ركود، وضرب التقليد بجرانه فقضى على ذكاء الأذكياء وفهم الفهماء إلى أن أذن اللّه للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد ويستقل في الفهم، وللنهضة العلمية الإسلامية أن يتبلج فجرها، ويعم نورها، فكانت إرهاصات التجديد لهذا العلم ظاهرة في ثلاثة من أذكى علمائنا وأوسعهم اطلاعًا: الشوكاني[٦] والألوسي[٧] وصديق حسن خان[٨]، على

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد اللّه ابن العربي الأندلسي، المالكي، صاحب «أحكام القرآن» و«عارضة الأحوذي» وغيرهما. توفي سنة (٥٤٣هـ). سير النبلاء (٢٠/ ١٩٧- ٢٠٤).

(٢) هو أحمد بن علي أبو بكر الجصاص، له «أحكام القرآن». توفي سنة (٣٧٠هـ). الأعلام (١/ ١٧١).

(٣) هو عبد المنعم بن محمد الخزرجي، المعروف بـ(ابن الفَرَس)، من علماء غرناطة. له كتاب «أحكام القرآن». الأعلام (٤/ ١٦٨).

(٤) هو محمد بن أحمد أبو عبد اللّه القرطبي، له «الجامع لأحكام القرآن» المعروف بـ«تفسير القرطبي». توفي سنة (٦٧١هـ). الأعلام (٥/ ٣٢٢).

(٥) هو عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي، له «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». توفي سنة (٥٤٢هـ). الأعلام (٣/ ٢٨٢).

(٦) هو محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، له تآليف كثيرة منها «فتح القدير» في التفسير، و«نيل الأوطار» وغيرهما. توفي سنة (١٢٥٠هـ). الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٧) هو محمود بن عبد اللّه الحسيني الآلوسي، أبو الثناء البغدادي، صاحب «روح المعاني» في التفسير. توفي سنة (١٢٧٠هـ). الأعلام (٧/ ١٧٦- ١٧٧).

(٨) من مؤلفاته: «فتح البيان في مقاصد القرآن» في التفسير، و«الروضة الندية شرح الدرر البهية» وغيرهما. توفي سنة (١٣٠٧). الأعلام (٦/ ١٦٧- ١٦٨).

تفاوت بينهم في قوة النزعة الاستقلالية، وفي القدرة على التخلص من الصبغة المذهبية التقليدية، ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا منازع محمد عبده[١]، أبلغ من تكلم في التفسير بيانًا لهديه، وفهمًا لأسراره، وتوفيقًا بين آيات اللَّه في القرآن، وبين آياته في الأكوان. فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرًا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه مات دون ذلك، فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره محمد رشيد رضا[٢] فكتب في التفسير ما كتب ودون آراء الإمام فيه، وشرع للعلماء منهاجه ومات قبل أن يتمه، فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر بل بالشمال الافريقي عبد الحميد بن باديس.

كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خُصَّ بها. يرفده - بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة - بيان ناصع، وإطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع ورأي سديد في عوارضه وأمراضه. يمد ذلك كله شجاعة في الرأي وشجاعة في القول لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون في البشر.

---

(١) هو مفتي الديار المصرية. توفي سنة (١٣٢٣هـ). الأعلام (٦/ ٣٥٣- ٢٥٣).

(٢) هو صاحب مجلة «المنار» بث فيها آراءه الإصلاحية. له تفسير «المنار» مطبوع. توفي سنة (١٣٥٤هـ). الأعلام (٦/ ١٢٦).

وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله.

وكان يرى - حين تصدَّى لتفسير القرآن - أنَّ في تدوين التفسير بالكتابة مشغلةً عن العمل المقدم وإضاعةً لعمر الضلال، لذلك آثر البدء بتفسيره درسًا تسمعه الجماهير فتتعجَّل من الاهتداء به ما يتعجَّله المريض المنهك من الدواء، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنه كان مشغولًا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ومكافحة أمية ومعالجة أمراض اجتماعية ومصارعة استعمار يؤيدها. فاقتصر على تفسير القرآن درسًا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة، ولم يختم التفسير درسًا ودراية بهذا الوطن غيره منذ ختمه أبو عبد اللَّه الشريف التلمساني[1] في المائة الثامنة.

كان ذلك الأخ الصديق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعلِّل النفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيرًا على طريقته في الدرس، وكان كلما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير يتمنى عليَّ أن نتعاون على كتابة التفسير، ويغريني أن الكتابة عليَّ أسهل منها عليه، ولا أنسى مجلسًا كنا فيه على ربوة من جبل تلمسان في زيارة

(١) هو محمد بن أحمد أبو عبد اللَّه المعروف بالشريف التلمساني. من كتبه «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول». توفي سنة (٧٧١هـ). الأعلام (٥/ ٣٢٧).

من زياراته لي، وكنا في حالة حزن لموت الشيخ رشيد رضا قبل أسبوع من ذلك اليوم فذكرنا تفسير «المنار»، وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه، فقلت له: ليس لإكماله إلا أنتَ، فقال لي: ليس لإكماله إلا أنتَ، فقلت له: حتى يكون لي علم رشيد، وسَعة رشيد، ومكتبة رشيد، ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد، فقال لي واثقًا مؤكدًا: أننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيرًا يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت.

ولما احتفلت الأمة الجزائرية ذلك الاحتفال الحافل بختمه لتفسير القرآن عام (١٣٥٧) هجرية، وكتبت بقلمي تفسير المعوذتين مقتبسًا من درس الختم، وأخرجته في ذلك الأسلوب الذي قرأه الناس في مجلة «الشهاب»، أُعجب به أيما إعجاب، وتجدد أمله في أن نتعاون على كتابة تفسير كامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل سنتين، ثم جاء الموت فباعد بيني وبينه، ثم ألحت الحوادث والأعمال بعده فلم تبق للقلم فرصة للتحرير ولا للسان مجالًا في التفسير، وإنا لله.

لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئًا منها، وضاع على الأمة كنزُ علمٍ لا يقوَّم بمالٍ، ولا يعوَّض بحالٍ، ومات فمات علمُ التفسير وماتت طريقة ابن باديس في التفسير، ولكن اللَّه تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس، وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة «الشهاب» ويسميها (مجالس التذكير)، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الخطابي وأسلوبه الكتابي.

هذه المجالس العامرة هي التي تصدى الأخ الوفي السيد أحمد بوشمال[١] عضد الإمام المفسر وصفيه وكاتبه والمؤتمن على أسراره، لتجريدها من مجلة «الشهاب» ونشرها كتابًا مستقلًا، قيامًا بحق الوفاء للإمام الفقيد وإحياء لذكراه بأشرف أثر من آثاره، وها هو ذا بين أيدي القراء يستروحون منه نفحات منعشة من روح ذلك الرجل العظيم، ويقرأونه فلا يزيدهم عرفانًا بقدره، فحسبهم ما بنى وشاد، وعلَّم وأفاد، وما ربَّى للأمة من رجال كالجبال، وما بثَّ فيها من فضائل وآداب، وما أبقى لها من تراث علمي خالد، لا يرثه الأخ عن الأخ، ولا الولد عن الوالد.

وشكرًا للأخ الوفي أحمد بوشمال على هذا العمل الذي هو عنوان الوفاء[٢].

* * *

(١) من تلاميذ الإمام عبد الحميد بن باديس الأوائل، الملازمين لدروسه، وأحد مؤسسي «المطبعة الإسلامية الجزائرية» سنة (١٩٢٥م) ومدير مجلة «الشهاب»، انتخب عضوًا في المجلس الإداري لـ «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عام ١٩٤٦م- اعتقل مرات من طرف الاستعمار الفرنسي، كان آخرها بتاريخ ١٣/ ٩/ ١٩٥٨م وبعدها لم يظهر له أثر، رَحِمَهُ اللَّهُ.
انظر «صراع بين السنة والبدعة» (١/ ١١٢- ١١٦) لأحمد حماني، و«من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١٦٩- ١٧١) لمحمد الحسن فضلاء.

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٤٩- ٢٥٣).

مجالس التذكير

بقلم: الإمام محمد البشير الإبراهيمي

هذا هو العنوان الذي كان يضعه الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ لما يكتبه بقلمه البليغ في تفسير بعض الآيات القرآنية الجامعة، ويجعله فواتح لأعداد مجلة «الشهاب» وهي لمع لامعة في التفسير، يتمنى قارئها عند كل جملة منها لو أن الأستاذ أتم تفسير القرآن كله كتابة، كما أتمه درسًا على تلك الطريقة وبذلك التحليل، إذ يرى أسلوبًا مشرق الجوانب بنور العلم لا يفوقه في الروعة إلا حسن فهم كاتبه للقرآن.

قرأ الناس تلك الفواتح في «الشهاب»، واستفاد منها المستعدون ما يسَّر عليهم فهم القرآن في جملته، إذ جعلوا من ذلك القليل مرشدًا للكثير، فكأنهم لازموا الأستاذ خمسًا وعشرين سنة.

واستفاد منه المتأدبون مثالًا عاليًا من ذلك الأسلوب الذي يجمع الأدب والعلم، فيستهوي العالم والأديب.

وقد كان الأستاذ - في قلَّة من علمائنا - ممن انطبعت ملكاتهم على ذلك الأسلوب الذي يعلِّم العلم والأدب. ومن تلك القلة: الراغب ومسكويه[1]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن يعقوب مِسْكَويه، أبو علي الأصفهاني. توفي سنة (٤٢١هـ). الأعلام (١/ ٢١١- ٢١٢).

وابن العربي وعياض[١] والزمخشري وابن خلدون[٢] والشاطبي[٣].

ولكن «الشهاب» مجلة، والمجلة عندنا بنت عم الجريدة، تُلفَظ، ولا تُحفَظ، وتُتلى ثم تُلقى. وتضيع الأجزاء، ثم يضيع الكُلّ.

وقد نشأ بعد موت الأستاذ جيل نفور من تلك النظريات الجوفاء، وتلك الأساليب الرثة، وتلك الكتب التي تحملها، شديد الظمأ إلى التحقيق العلمي الذي يفضي به إلى الاستقلال في العلم. وفتنة هذا الزمان الاستقلال في كل شيء.

وهذا الجيل لم يدرك دروس الأستاذ الحافلة، ولكنه أدرك مخايلها في مثل هذه الفصول من كتاباته، وأدرك آثارها في نفوس تلامذته، وأدرك أوصافها جائلة في أفواه الناس، فازداد شوقًا إليها، ولهفةً عليها.

فغير كثيرٍ على قادة هذا الجيل أن يهيئوا له ما يروي ظمأه ويرضي هواه من الكتب الممتازة بالتحقيق العلمي، وأن لا يتركوه فريسةً لتلك الكتب المعتلة التي نرجو أن يكون جيلنا آخر ضحاياها.

ومن الشعور بهذه الحالة التي ألممنا بها إلمامًا، سمت همة صديقنا الوفي

---

(١) هو عياض ين موسى السبتي، القاضي المالكي، من تصانيفه: «الشفا» و«ترتيب المدارك». توفي سنة (٥٤٤هـ). الأعلام (٥/ ٩٩).

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الأشبيلي، المؤرخ، العالم الاجتماعي، اشتهر بكتابه «العبر». توفي سنة (٨٠٨هـ). الأعلام. (٣/ ٣٣٠).

(٣) هو إبراهيم بن موسى الغرناطي، الشهير بالشاطبي، كان من أئمة المالكية، له «الموافقات» و«الاعتصام». توفي سنة (٧٩٠هـ). الأعلام (١/ ٧٥).

الأديب أحمد بوشمال، كاتب الأستاذ المفسر، وأمين سرِّه، فجرد من مجلة «الشهاب» قطعةً صالحةً من «مجالس التذكير» وطبعها في مطبعة «الشهاب» طبعًا أنيق الحرف، بديع الورق، فجاء تحفة فنيةً صغيرةَ الحجمِ، ولكنها عالية القدر، وفي نيته أن يصدر البقية في جزء آخر.

وقد طلب من كاتب هذه السطور أن يقدِّمه إلى القراء بكلمة، فكتبها في جلسةِ سمرٍ كثر ضجيجُها، وتمتع من الجد إلى الهزل حجيجُها، فجاءت كما يهوى العاتب، لم تف بحق المكتوب ولا بحق الكاتب. وعسى أن لا تكون كلمتي هذه دعاية سيئة للكتاب، فهو غني عن المقدمة بما فيه من علم وعرفان.

ونصيحتي الخالصة إلى كل من قرأه متفرقًا أن يقرأه مجتمعًا، وإلى كل من لم يقرأه أن يقرأه، وإلى كل ناشئ من هذا الجيل أن يجعله لدارسة التفسير مفتاحًا[1].

* * *

(١) جريدة «البصائر»: العدد (٥١) الصادر بتاريخ ٢٧/ ٩/ ١٩٤٨م (السنة الثانية من السلسلة الثانية)، وآثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٥٤- ٢٥٥).

مقدمة التحقيق

إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد، فأضع بين يدي قُراء العربية عمومًا، والجزائريين خصوصًا، الطبعة الأولى المحقَّقة للكتاب الجليل والسِّفر النفيس والتفسير البديع المعروف بـ «**تفسير ابن باديس**»، المسمَّى «**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**»، تقييد وتحرير رائد النهضة العلمية بالجزائر، الأستاذ الكبير، والإمام المصلح الشهير، العلامة السلفي، الشيخ عبد الحميد بن باديس -المتوفى سنة **١٣٥٩**هـ- **١٩٤٠**م- رحمه اللَّه تعالى وطيَّب ثراه وجعل الجنَّة مأواه.

الباعث على تحقيق الكتاب:

وقد دفعني إلى تحقيق الكتاب وتخريج أحاديثه وآثاره والتعليق عليه أمور، من أهمها:

١- إحياء ما اندرس من تراث علماء الجزائر، ونشره نشرًا علميًّا، يسرُّ الباحثين وطلاب العلم، وفي مقدِّمتهم آثار إمامنا الهُمام، حسنة الأيام، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رحمه اللَّه تعالى وسائر علماء الإسلام.

٢- أن هذا الكتاب النفيس -تفسير ابن باديس- مع تعدُّد نشراته لم يلق العناية اللائقة به.

٣- الوفاء ببعض حقوق الإمام علينا -نحن معشر الطلبة الجزائريين- بما خرَّج من رجال، وربَّى من أجيال، وخلَّف من آثار، ولدوره الرائد في نهضتنا العلمية.

٤- التشرُّف بخدمة كتاب اللَّه -جلّ وعلا- في علم عظيم من علومه -علم التفسير- بإخراج أثر من آثاره المصنَّفة فيه.

٥- الاستجابة لرغبة وطلب من لا يمكنني ردُّ طلبه، وتحقيق أمنيته في إخراج الكتاب محققة نصوصه، مخرجة أخباره، أعني أستاذنا محمد الصالح رمضان -حفظه اللَّه تعالى وقوّاه- أحد تلاميذ الإمام الأوفياء، بعد اطلاعه على بعض بحوثي وتحقيقاتي المنشورة.

تفسير ابن باديس «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير»:

«هذا هو العنوان الذي كان يضعه الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ لما يكتبه بقلمه البليغ في تفسير بعض الآيات القرآنية الجامعة، ويجعله فواتح لأعداد مجلة «الشهاب»، وهي لُمَعٌ لامعةٌ في التفسير، يتمنى قارئها عند كل جملة منها لو أنَّ الأستاذ أتمَّ تفسير القرآن كلِّه كتابة، كما أتمَّه درسًا على تلك الطريقة وبذلك التحليل، إذ يرى أسلوبًا مشرق الجوانب بنور العلم لا يفوقه في الروعة إلَّا حسن فهم كاتبه للقرآن»[1].

(١) ما بين المزدوجين من كلام الشيخ الإبراهيمي. انظر فيما تقدم (ص١٥).

مكانته عند أهل العلم والفضل:

- قال الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي -رحمه اللَّه تعالى- :

«كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ ذوقٌ خاصٌّ في فهم القرآن كأنه حاسَّة زائدة خُصَّ بها. يرفده -بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة- بيانٌ ناصعٌ، واطلاعٌ واسعٌ، وذرعٌ فسيحٌ في العلوم النفسية والكونية، وباعٌ مديدٌ في علم الاجتماع، ورأيٌ سديدٌ في عوارضه وأمراضه. يمدُّ ذلك كلَّه شجاعةٌ في الرأي، وشجاعة في القول لم يرزقهما إلَّا الأفذاذ المعدودون في البشر»[1].

- وقال العلَّامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه اللَّه تعالى- :

«وقد كنتُ قرأتُ حولها[2] بحثًا فياضًا ممتعًا في «تفسير العلَّامة ابن باديس»، فليراجعه من شاء زيادة بيان»[3].

- وقال الأستاذ الشاعر محمد العيد آل خليفة -رحمه اللَّه تعالى- :

يراعك في التحرير أمضى من الظبى ... وأقضى من الأحكام أيان يُشهرُ

ودرسك في التفسير أشهى من الجنى ... وأبهى من الروض النضير وأبهرُ

ختمتَ كتابَ اللَّهِ ختمةَ دارسٍ ... بصيرٍ له حلُّ العويصِ مُيَسَّرُ

فكم لك في القرآنِ فهمٌ مُوَفَّقٌ ... وكم لك في القرآنِ قولٌ مُحَرَّرُ

---

(١) انظر (ص ١١) المتقدمة.

(٢) يعني في بيان بطلان الجملة التي اشتهرت بها الصوفية رابعة العدوية: «ربّ! ما عبدتك طمعًا في جنتك، ولا خوفًا من نارك»!

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٤٢٧).

قبستَ مِن القرآنِ مشعلَ حكمةٍ يُنارُ به السِّرُّ اللَّطيفُ ويُبصَرُ
وبيَّنتَ بالقرآنِ فضلَ حضارةٍ أَقرَّ لها كِسرى وأَذْعَنَ قَيْصَرُ[١]

منهج ابن باديس في تفسيره وطريقته فيه:

إن منهج ابن باديس في تفسير القرآن ومعرفة معانيه هو منهج الراسخين في العلم من أئمة السلف الذين لا يُرتاب في كمال علمهم، وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم.

ويتلخص هذا المنهج في تفسيرهم القرآن بالقرآن والسنة الصحيحة، وإلَّا فبأقوال الصحابة[٢] ﷺ، وإلَّا فبأقوال التابعين[٣] رحمهم اللَّه، وإلَّا فبلغة العرب التي نزل بها الوحي[٤].

وقد سار الإمام على هذا المنهج الصحيح في تفسيره، وطبقه أحسن تطبيق.

- **ففي تفسير قوله تعالى:** ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

يقول تحت عنوان: «بيان القرآن للقرآن»:

«في هذه الآية أنهم يلقَّون تحيةً وسلامًا، وقد بيَّن من يتلقَّاهم بذلك في

(١) ديوان محمد العيد آل خليفة (ص ١٥٦).

(٢) كعبد اللَّه بن مسعود الصحابي الجليل الفقيه، وكالحبر البحر ترجمان القرآن: عبد اللَّه بن عباس، وغيرهما، رضي اللَّه عن الجميع.

(٣) كمجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة مولى ابن عباس والحسن البصري وغيرهم.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٣- ٣٧٥) لابن تيمية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب، وهو مما يدخل في التحية، لأن من طيبهم طيب حياتهم.

وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن، فاجعله من بالك تهتد -إن شاء اللَّه- إليه».

- **وفي تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] **يقول تحت عنوان: «تفسير نبوي»:**

«أخرج البخاري -رحمه اللَّه تعالى- في «صحيحه» عن أبي هُريرة -رضي اللَّه تعالى عنه- قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**تفضل صلاةُ الجميع صلاةَ أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءًا، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**».

ثم يقول أبو هريرة: فأقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فاستشهد أبو هُريرة بالآية على الحديث ليبيِّن أنه تفسيرٌ لها، وأن صلاة الفجر مشهودة تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعًا إلى النبي ﷺ».

- **وفي تفسير قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: «تفسير أثري»:

«أخرج البخاري في «كتاب التفسير» عن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خمس قد مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام».

ورواه في مواضع أخرى من «صحيحه».

وعنى بالدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وبالقمر المذكور في ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وبالبطشة المذكورة في ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦]، وباللزام المذكور في هذه الآية.

وفسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر، وفسّر اللزام به أيضًا، فهي في الحقيقة أربع، وعدَّها خمسًا باعتبار الوصفين: البطش والملازمة.

وفسّر الحسن[1] اللِّزام بعذاب يوم القيامة.

ومن عادة السلف أنهم يفسّرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصد للقصر عليه، ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين، فيكونون قد تُوُعِّدُوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة».

- وفي الكتاب أمثلة أخرى سيقف عليها القارئ -إن شاء اللَّه- في مواضعها.

(١) يعني الحسن البصري، التابعي الجليل.

* وأمَّا الخطوات التي اتبعها الإمام في تفسيره، فتتمثل فيما يلي:

١- تمهيد: يضع القارئ في جوِّ النص القرآني المراد تفسيره.

٢- المناسبة: وذلك ببيان ارتباط الآيات بما قبلها.

٣- سبب النزول: لأنه يعين على فهم الآية أو الآيات.

٤- الألفاظ أو المفردات، بتفسيرها بأرجح معانيها اللغوية، مما يساعد القارئ على فهم مضمون الآية أو الآيات.

٥- التراكيب: بتحليلها وحملها على أبلغ أساليبها البيانية، مبرزًا خصائص الأسلوب العربي.

٦- المعنى أو التفسير: بإيضاح المعنى العام للآية أو الآيات، إيضاحًا لا يشوبه إيجاز مخلّ ولا إسهابٌ مملّ.

٧- الأحكام، باستخراج ما في الآية أو الآيات من أحكام وحِكم، وحقائق وقيم مختلفة، عقدية، وتشريعية، وأخلاقية، ونفسية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وتاريخية، وكونية، مع استطراد -أحيانًا- في الجمع والتحقيق، و الغوص والتدقيق، والتأصيل والتفريع والتفصيل، والتعليل والتحليل، والتنبيه و التنويه والتوجيه، وتطريزها بالفوائد العلمية والنكت البلاغية ونحوها.

تحذير الإمام ابن باديس من تحريفات المبطلين في تفسيرهم للقرآن الكريم:

ومع اتباع الإمام لسبيل المؤمنين واقتفائه لآثار مَن سبقه من العلماء المحققين وتمسكه بالأصول العلمية في التفسير والقواعد المرعية في بيان القرآن، فقد كان -عليه الرحمة والرضوان- شجًا في حلوق المبطلين المحرّفين لكتاب اللَّه وآيِهِ عن معناها الصحيح وبيانها الرجيح، محذرًا المؤمنين من هذا السلوك المعوجّ القبيح(١)!

فقد كتب رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] تحت عنوان: «تحذير من تحريف»:

«رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض -وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان- فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم اللَّه بإرث الأرض! وزعموا أن المراد بِ (الصالحون) في الآية الصالحون لعمارة الأرض!!

فيا للَّه للقرآن! وللإنسان! من هذا التحريف السخيف!

كأنّ عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلّت العقائد، وفسدت الأخلاق،

(١) كما حذَّر رَحِمَهُ اللَّهُ من بعض التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية، كتفسير أبي عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين.

انظر (ص) الآتية.

واعوجّت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذّبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهدّدت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمَّرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرّف أن يطبّق عليها آية القرآن:

كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأمَّا «الصالحون» فهو لفظ قرآني قد فسّره القرآن كما قدّمناه، وقد شرّف أهله بإضافتهم إلى اللَّه في قوله: ﴿عِبَادِى﴾، فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين!».

من اختيارات الإمام في تفسيره للقرآن:

كان ابن باديس -على ما أُوتي من ملَكةٍ في هذا العلم- لا يتوانى عن الجمع بين الأقوال المختلفة والآراء المضطربة الواردة في «تفسير الآية إن أمكن، وإلَّا صرح بالراجح -في اختياره- منها، مبديًا -أحيانًا- رأيه المخالف للمشهور بلغة الواثق من نفسه، المتمكّن من فنه، المعتدّ باجتهاده.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

يقول: «والمصانع، يقول المفسّرون إنها مجاري المياه أو هي القصور . . .

ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسِّرين اللفظيين عن معنى المصنع

اللفظي الاشتقاقي!؟

والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أنّ المصانع جمع مصنع، من الصنع، كالمعامل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.

وهل كثير على أمة -توصف بما وصفت فيه في الآية- أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنا؟

بلى، وإنّ المصانع لأوّل لازم من لوازم العمران، وأوّل نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسّرين للمصانع إلّا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات!

والحق أن السائحين هم الرحالون والروّاد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار؛ والقرآن الذي يحث على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين، فربما كانت فائدة السياحة أتمّ وأعمّ من فائدة بعض الركوع والسجود».

ويقول أيضًا:

«وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، فإن المفسّرين السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بُعد الأسفار!؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملًا يفضي إلى نتيجة لازمة، فإن العربية تعبّر عن تلك النتيجة بأنها

قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة.

ولازال الناس -على عاميتهم- يقولون فيمن عمل عملًا يستحق عليه الضرب أو القتل إنه يقول: اقتلني أو اضربني، وهو لم يقل ذلك وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك.

فالمعنى أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم، والدال بالمدلول، فكأن ألسنتهم قالت ذلك.

ويؤيد هذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به.

ولا يقولن قائلٌ: إن القول يقع مدلوله في القلب حالًا، ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلًا؛ لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل، وكل عاقلٍ يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه.

أمَّا المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم اللَّه، فهي كناية عن محو العمران وخراب القُرى التي كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها إلَّا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير.

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدّد المشاهد من الخراب الذي يوحش النفس، فيزيد المسافة بُعدًا على بُعد».

مصادر الإمام ومراجعه في دروس التفسير:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة :

١- تفسير ابن جرير الطبري : الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأَوْلى الأقوال عنده بالصواب .

٢- وتفسير الكشاف : الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام .

٣- وتفسير أبي حيَّان الأندلسي : الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات .

٤- وتفسير الرازي : الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية مما يتعلّق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفِرَق، والمناظرة في ذلك والحِجاج .

إلى غير هذا مما لابدّ لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام .

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومآخذ ما يسمعونه منَّا» .

أشهر طبعات الكتاب:

وقد تصدَّى بعضُ الباحثين من تلاميذ الإمام ابن باديس الأوفياء وحوارييه البررة، وغيرهم، لتجريد «مجالس التذكير» من مجلة «الشهاب» ونشرها كتابًا مستقلًّا، قيامًا بحق الوفاء للإمام الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ، وإحياءً لأشرف أثر من آثاره، فطبعت أكثر من مرَّة، ومن أشهر ما وقفتُ عليه منها:

١- نشرة أحمد بوشمال رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: الذي جرّد من تلك المجالس آيات مختارة من سورة الفرقان فقط، وطبعت بالمطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، مصدرة بمقدمة ضافية بقلم العلَّامة الأديب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- نشرة الأستاذ محمد الصالح رمضان[٢]، بمشاركة الأستاذ توفيق محمد شاهين المصري، اللَّذَين عملا على تجريد المجالس من المجلة، ولم يَفُتْهما منها سوى القليل[٣]، فخرج الكتاب في ٥٣٨ صفحة، ونشره دار الكتاب الجزائري بالجزائر، وطبع بمطبعة الكيلاني بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٣- نشرة وزارة الشؤون الدينية بالجزائر[٤]، وطبع «دار البعث» بقسنطينة سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

---

(١) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة الأولى آخر هذه المقدمة.

(٢) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة آخر هذه المقدمة.

(٣) كتفسير الآيتين (٨٠، ٨١) من سورة الإسراء.

(٤) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة آخر هذه المقدمة.

٤- نشرة دار الكتب العلمية ببيروت[1]، سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، مصورة عن النشرة الثانية، وعلق عليها وخرّج آياتها وأحاديثها: أحمد شمس الدين.

عملي في الكِتاب:

سلكتُ في خدمة الكتاب والاعتناء به ما يلي:

أ - تحقيقًا: بإخراج النصّ كما تركه الإمام، خاليًا -إن شاء اللَّه- من أيّ تحريفٍ أو تصحيف أو سقط، مما لا تخلو منه غالبًا النشرات المتقدمة، واستعنتُ لبلوغ ذلك بِ:

١- مقابلة المطبوع بالأصل، وهو مجلة «الشهاب» التي نُشرت قبل بضع سنين بدار الغرب الإسلامي ببيروت، في ١٦ مجلدًا.

٢- توثيق بعض النصوص بالرجوع إلى مصادرها.

ب - تخريجًا: لِ:

١- الآيات القرآنية الكريمة: بذكر السورة ورقم الآية، وجعلتُ ذلك في المتن.

٢- الأحاديث النبوية الشريفة والآثار السلفية: بعزوها إلى كتب السنة المشهورة، مُصَدِّرًا كلّ حديثٍ أو أثرٍ بدرجته: صحةً أو حسنًا أو ضعفًا، طبقًا للقواعد العلمية المقررة في علم مصطلح الحديث ورجاله، مستنيرًا بكلام الحفاظ الجهابذة فيه.

وقد أعطيتها رقمًا متسلسلًا من أوّل الكتاب إلى آخره.

---

(١) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة آخر هذه المقدمة.

ج - تعليقًا : بِـ:

١- تصويب الأخطاء الواقعة في أصل مجلة «الشهاب»، والإشارة إلى ذلك في الحاشية.

٢- شرح بعض الألفاظ الغريبة.

٣- ترجمة بعض الأعلام المغمورين.

٤- تعقُّب الإمام في مواضع معدودة بعبارة لطيفة فيها أدب وإجلال، بعيدًا عن كل عجرفة وتطاول! مدَعمًا بالدليل والبرهان، مسترشدًا بالمحققين الفحول في هذا الشأن.

د - ترتيبًا :

فقد رتبتُ «مجالس التذكير» وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف الشريف.

ثم ضممتُ لها بعض المقالات كملاحق، تذييلًا، لصلتها الوثيقة بالقرآن وتفسيره.

هـ - فهرسةً :

بصنع فهارس للكتاب وهي :

١- فهرس أطراف الآيات القرآنية الكريمة.

٢- فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة.

٣- فهرس أطراف الآثار السلفية وغيرها.

٤- فهرس الفوائد.

٥- فهرس الألفاظ المشروحة.

٦- فهرس الأعلام.

٧- فهرس المذكورين بجرح أو تعديل.

٨- فهرس الشعر.

٩- فهرس الأمثال.

١٠ - فهرس الموضوعات.

هذا جهدي -وهو جهد المقلّ- في خدمة هذا الكتاب الجليل: «**تفسير ابن باديس**» فإن وُفِّقْتُ وأصبتُ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منهما برآء.

فاللَّهمّ اغفر لي خطئي وعمدي، وهزلي وجِدّي، وكل ذلك عندي.

أسأل اللَّه تعالى أن يجعل أعمالي كلّها صالحةً ولوجهه خالصةً، وأن لا يجعل لأحدٍ فيها شيئًا.

اللَّهم ارحم عبدك ابن باديس رحمةً واسعةً، واجزه خير ما تجزي العلماء العاملين المصلحين.

وقبل أن أضع القلم، لا أنسى شكر كلّ من أعانني لإخراج الكتاب بهذه الصورة المشرقة والحُلَّة البهية التي تسرّ الباحثين.

أسأل اللَّه القبول، إنه بالإجابة مأمول.

و«سبحانك اللَّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنتَ، أستغفرك وأتوب إليك».

وكتب:

أبو عبد الرحمن محمود

الجزائر في ١٥ رجب ١٤٢٦هـ

التعريف بالمصنف[1]
الشيخ عبد الحميد بن باديس
-رحمه اللَّه تعالى-

اسمه ونسبه:

هو عبد الحميد بن محمّد بن مكّي بن باديس الصنهاجي.

وينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس مؤسّس الدولة الصنهاجية الأولى التي خلّفت الأغالبة على مملكة القيروان.

مولده:

وُلد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة يوم الأربعاء ١٠ ربيع الثاني ١٣٠٨هـ/ الموافق لـ ٤/ ١٢/ ١٨٨٩م.

ووالده: محمّد مصطفى بن مكّي بن باديس، صاحب مكانةٍ مرموقةٍ وشهرةٍ واسعةٍ.

وأمّه: السيدة زهيرة بنت عليّ الأكحل بن جلّول.

نشأته العلمية وأعماله:

- حفظ القرآن الكريم على الشيخ المدَّاسي، ولمَّا يبلغ الثالثة عشر من

---

(١) لَخَّصناه من «نبذة مختصرة عن العلَّامة الشيخ عبد الحميد بن باديس» الجزء الأول من سلسلتنا: «النبذ في التعريف بأعلام جمعية العلماء».

عمره.

- أخذ مبادئ العلوم الشرعية والعربية على الشيخ حمدان الونّيسي.

- سافر إلى جامع الزيتونة بتونس، فتتلمذ على خيرة علمائه كالشيخ محمّد النخلي والشيخ الطاهر بن عاشور وغيرهما، وتخرج منه بشهادة التطويع [العالمية] عام ١٩١١م.

- في عام ١٩١٢م عاد من تونس، ليلقي بعض الدروس في «الجامع الكبير» بقسنطينة من كتاب «الشفا» للقاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكنّه سرعان ما مُنع.

- في عام ١٩١٣م غادر قسنطينة متوجّهًا إلى الحجاز لأداء فريضة الحجِّ.

- وفي المدينة النبوية التقى بأستاذه حمدان الونّيسي، كما تعرّف على الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي.

- رجع ابن باديس إلى قسنطينة ليباشر التعليم في «الجامع الأخضر» بسعي من والده لدى الحكومة.

- وفي «الجامع الأخضر» ختم تفسير القرآن تدريسًا في ربع قرن، كما أتمّ شرح كتاب «الموطأ» لإمام دار الهجرة مالك بن أنس -رحمه اللَّه تعالى- تدريسًا أيضًا.

- أصدر -بعد تأسيس «المطبعة الجزائرية الإسلامية»- عدَّة جرائد من أشهرها: «المنتقد» و«الشهاب» و«السنَّة» و«الشريعة» و«الصراط» و«البصائر»، لتبليغ الدعوة الإصلاحية السلفية.

- وفي سنة ١٩٣١م تمّ تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» فانتُخِبَ الشيخُ عبدُ الحميد رئيسًا لها .

- أسّس بمؤازرة إخوانه المصلحين المساجد والمدارس الحرَّة والنوادي العلمية في شتى أنحاء القطر الجزائري .

شيوخه:

- من أشهرهم بقسنطينة : الشيخ حمدان الونّيسي ، وبتونس : العلَّامة محمّد النخلي ، والشيخ الطاهر بن عاشور ، ومحمّد بن القاضي ، ومحمّد الصادق النيفر ، وبلحسن النجار ، وغيرهم من علماء الزيتونة الأعلام .

وبالمدينة النبوية : الشيخ أحمد الهندي .

وبمصر : شيخاه بالإجازة : العلَّامة محمّد بخيت المطيعي ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي .

تلاميذه:

وهم كثيرون ، من أبرزهم : العلَّامة الشيخ مبارك الميلي مؤلف «رسالة الشرك ومظاهره» و«تاريخ الجزائر» ، والشيخ الفضيل الورثلاني ، وموسى الأحمدي ، والهادي السنوسي ، وباعزيز بن عمر ، ومحمّد الصالح بن عتيق ، ومحمّد الصالح رمضان وغيرهم .

ثناء أهل العلم والفضل عليه:

- قال الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي فيه : «باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر ، وواضع أسسها على صخرة الحقّ وقائد زحوفها المغيرة

إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشئ مجلة «الشهاب» مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمّدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحيَّة، ومفسّر كلام اللَّه على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها، عالم البيان وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد ابن باديس».

- وقال الشيخ الميلي: «الأستاذ العظيم والمرشد الحكيم، عدَّتنا العلمية وعمدتنا الإصلاحية».

- وقال الشيخ الطيّب العقبي: «المصلح الفذّ، والعلَّامة الذي ما أنجبت الجزائر -منذ أحقاب- مثله إلَّا قليلًا».

عقيدته:

كان العلَّامةُ ابنُ باديس سلفيًّا، متمسّكًا بالكتاب الكريم والسنَّة الصحيحة، مُعتدًّا بفهم السلف الصالح لهما، وقد قرّر ذلك في أكثر من مناسبة، منها ما حرّره في خاتمة «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال» التي نُشِرَتْ باعتنائِنا. حين قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . الواجب على كلِّ مسلم في كلّ مكانٍ وزمانٍ أن يعتقد عقدًا يتشرّبه قلبُه، وتسكن له نفسُه، وينشرح له صدرُه، ويلهج به لسانُه، وتنبني عليه أعمالُه، أنّ دينَ اللَّه تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان، إنّما هو في القرآن والسنَّة الصحيحة وعمل السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأنّ كلّ ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول -قولًا كان أو عملًا أو عقدًا أو حالًا- فإنّه

باطلٌ من أصله، مردودٌ على صاحبه، كائنًا من كان، في كلّ زمانٍ ومكانٍ..».

آثاره:

لم يَصِلْ إلينا منها سوى:

١- «تفسير ابن باديس» أو «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

٢- «من هدي النبوة» أو «مجالس التذكير من كلام البشير النذير ﷺ».

٣- «رجال السلف ونساؤه».

٤- «القصص الهادف».

٥- «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية».

٦- «مبادئ الأصول».

٧- «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال». وقد نُشِرَتْ قريبًا باعتنائِنَا.

٨- «العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي المالكي»: تحقيق وتقديم.

٩- «تحفة المستهدي في إثبات خروج المهدي»: وقفتُ على الورقة الأولى من هذه الرسالة المخطوطة في مكتبة الشيخ نُعيم النُّعيمي -رحمه اللَّه تعالى-.

١٠- «التأفين لمنكر التأبين»: وقفتُ على نسختين خطيتين منها، وعند أخينا الدكتور جمال عزّون نسخة ثالثة، وهو يعمل على تحقيقها، وفّقه اللَّه وأعانه وسدَّد خطاه.

كما جُمعت مقالاته في «الشهاب» و«البصائر» وغيرهما ونُشرت ضمن آثاره غير مرَّة.

وفاته:

توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس -بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال- مساء الثلاثاء ٨ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ الموافق لـ١٦/ ٤/ ١٩٤٠م، ودفن في روضة أسرته، بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة.

رحمه اللَّه تعالى رحمةً واسعة وأسكنه فسيح جناته.

* * *



لفضيلة الاستاذ الرئيس

عبد الحميد بن باديس

رحمه الله

الذكرى الثامنة
٦ جمادى الثانية ١٣٦٧
١٦ ابريل ١٩٤٨

صورة عن غلاف النشرة الأولى

من تراثنا الخالد

تفسير ابن باديس

أو

مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير

للإمام العلامة

عبد الحميد بن باديس

جمع وترتيب وإعداد ومراجعة وتعليق

محمد الصالح رمضان

مدير التعليم الديني
بوزارة الأوقاف بالجزائر

توفيق محمد شاهين

بمجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر

الناشر
دار الكتاب الجزائري
١٣ شارع العربي بن مهيدي
الهاتف: ٦٢٩٤٩١ - الجزائر

صورة عن غلاف النشرة الثانية

مجالس التذكير

من كلام الحكيم الخبير

للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

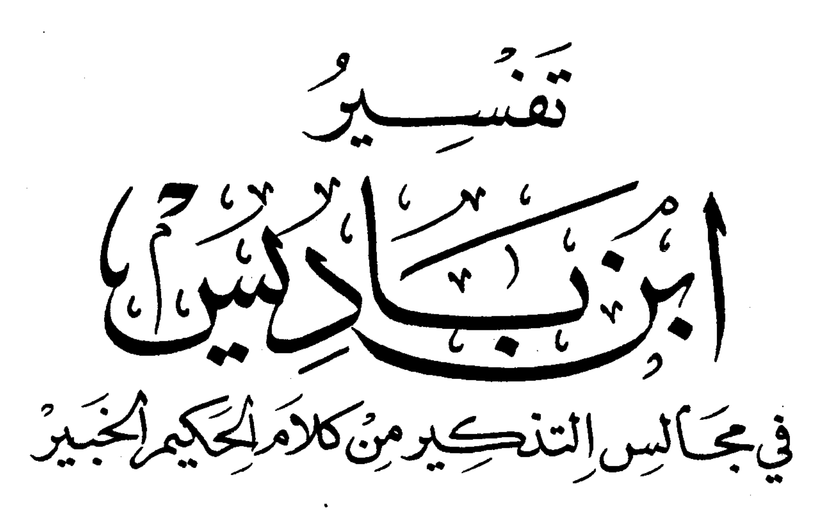
من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية

الطبعة الأولى

سنة 1402
1982



صورة عن غلاف النشرة الثالثة



للإمام العلامة

عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي

١٣٠٨ - ١٣٥٩ هـ

جمع وترتيب

د. توفيق محمد شاهين
جامعة الأزهر

محمد الصالح رمضان
أستاذ بوزارة التربية الجزائرية

علق عليه وخرج آياته وأحاديثه
أحمد شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

صورة عن غلاف النشرة الرابعة

بين يدي التفسير

★ التذكير.

★ الذكر.

★ ما هو أفضل الأذكار؟

❋ ❋ ❋



التذكير

- ★ حقيقته.
- ★ حاجة الخلق إليه.
- ★ القائمون به.
- ★ تذكير النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
- ★ ما كان يذكِّر به.
- ★ من كان يذكِّر؟
- ★ مشروعية التذكير في الإسلام.

❋ ❋ ❋



التذكير

حقيقته:

حقيقة التذكير: أن تقول لغيرك قولًا يذكر به ما كان به جاهلًا أو عنه ناسيًا أو غافلًا، وقد يقوم الفعل والسمت والهدي مقام القول فيسمَّى تذكيرًا مجازًا وتوسُّعًا، ويجمع الثلاثة قولك: عباد اللَّه الصالحون يذكِّرون الخَلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم.

حاجة الخلق إليه:

وحاجة العباد إلى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون إليه وأشرفه وألزمه، فإنَّ سعادتهم الحقيقية في هذه الحياة بإنارة عقولهم وزكاة نفوسهم واستقامة سلوكهم، وفي الحياة الأخرى بنعيم الجنان وحلول الرضوان، إنما هي بإيمانهم بربهم وشكرهم له.

وأن دلائل وجوده ووحدانيته وقيوميته وآثار فضله وإحسانه ورحمته ماثلة في الكون بادية للعيان، داعية إلى الشكر هادية إلى الإيمان.

لكن العقول كثيرًا ما تكون مغلولة بقيود أهوائها، محجوبة بحجب غفلتها، فتعمى عن تلك الدلائل والآثار، فتكفر كفر جحود وعناد، أو كفر عصيان وطغيان، ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود، وليس لغير من عصم اللَّه انفكاك أو خروج منها، كلها، فهم إذن بأشد الحاجة إلى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا

أسباب سعادتهم بالإيمان والشكر.

القائمون به:

قد علم اللَّه حاجة عباده إلى التذكير، فاصطفى منهم رجالًا أنعم عليهم بكمال الفكر ووقاية العصمة، وأرسلهم لتذكير العباد ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥] ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

فالأنبياء والمرسلون - عليهم الصلاة والسلام - هم أولوا هذا المقام الجليل، مقام التذكير، ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين.

تذكير النبي ﷺ:

قد كان النبي ﷺ على سنة إخوانه من الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - في القيام بتذكير العباد ممتثلًا أمر ربه - تعالى - له بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

إذ السيطرة لا تكون على القلوب، والإيمان - وهو من أعمال القلب - لا يكون بالإكراه، وإنما يكون بذكر الحجج والأدلة، وكذلك كانت سنة المرسلين في الدعوة إلى اللَّه كما قصَّها علينا القرآن الكريم في كثير من السور والآيات.

ما كان يذكِّر به:

كان ﷺ يذكِّرهم بقوله وعمله وهديه وسمته، وكان ذلك كله منه على

وفق هداية القرآن وحكمه.

وقد قالت عائشة الصديقة - رضوان اللَّه عليها - لما سُئلت عن خُلقه - والخُلق هو الملكة النفسية التي تصدر عنها الأعمال - قالت: «كان خلقه القرآن»[١].

فكان تذكيره كله بآيات القرآن: يتلوها ويبينها بالبيان القولي والبيان العملي، ممتثلًا في ذلك كله أمر ربه تعالى بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥].

فالقرآن وبيانه القولي والعملي من سنة النبي ﷺ، بهما يكون تذكير العباد ودعوتهم للَّه رب العالمين، ومن حاد في التذكير عنهما ضلَّ وأضلَّ، وكان ما يضر أكثر مما ينفع إن كان هنالك من نفع.

من كان يذكِّر؟

كان ﷺ لا يفتأ مذكرًا للمؤمنين والكافرين، واللَّه يهدي من يشاء ويوفق من يريد، وقد أمر بالتذكير مطلقًا في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٢١].

وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الإطلاق، فما كان يخص قومًا دون قوم في الدعوة والتذكير، فكانت هاته السنة العملية دليلًا على أن ما

---

[١] صحيح:
قطعة من حديث رواه مسلم (٧٤٦) وأبو داود (١٣٣٨) والنسائي (٣/ ١٩٩-٢٠١) والدارمي (١/ ٣٤٤-٣٤٦) وأحمد (٦/ ٥٣-٥٤- و٩١ و٩٤-٩٥ و١٦٣ و٢١٦) وغيرهم مطولًا ومختصرًا عن عائشة ﵂.

جاء في صورة التقييد في بعض الآيات ليس المراد منه التقييد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: الآية ٩].

فالشرط الصوري هو للاستبعاد، أي استبعاد نفع الذكرى فيهم، ولا يزال من أساليب العربية في لسان التخاطب الدارج بيننا قول الناس لبعضهم بعضًا: «كلِّمه في كذا إذا نفع فيه الكلام» استبعادًا لنفعه فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥].

فليس ذكر المفعول للتقييد، وإنما هو للتنبيه على أنه هو الذي ينتفع بالتذكير نظير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢].

مشروعية التذكير في الإسلام:

ولحاجة العباد للتذكير ومنزلته من الدين؛ شرعه اللَّه للمسلمين شرعًا مؤقتًا في خُطب الجُمع والأعياد، وشرعًا مرسلًا موكولًا للمذكِّرين على ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم، كما كان يتخوَّل النبي ﷺ الناس بالموعظة[٢]، وطلبه طلبًا عامًا من جميع المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العَصر: الآية ٣] في صفة المؤمنين العاملين.

وسيكون هذا الباب من المجلة مجالًا لفنون من التذكير.

جعلنا اللَّه والمؤمنين من أهل الذكرى، ونفعنا بها دنيا وأخرى(١).

---

[٢] صحيح:

فعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال:

«كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا».

أخرجه البخاري (٦٨، ٧٠، ٦٤١١) ومسلم (٢٨٢١).

(١) الشهاب: (ج١ م٥) رمضان ١٣٤٧هـ - فيفري ١٩٣٩م.

الذكر

* تمهيد.
* القسم العلمي:
* حقيقته.
* محله.
* إطلاقاته.
* أقسامه:
  * القلبي: بالتفكر، بالاعتقاد، بالاستحضار.
  * اللساني: بالثناء والدعاء، بالارشاد والتعليم.
  * ذكر الجوارح: بالعمل، بالانكفاف.
* القسم العملي:
* السيرة النبوية في الذكر.
* كيفية السلوك عليها.
* التحذير.

❋ ❋ ❋



الذِّكْر

تمهيد:

- الذكر أصل من أصول الدين العظيمة أو هو الدين كله، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه.

فالمسلم إذًا شديد الحاجة إلى معرفته وفقهه، وطريقة العمل به.

وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سيأتي، وجعلنا الكلام في قسمين وختمناه بالتحذير مما خرج عن سواء القصد بغلوٍّ أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما يأتي منه أو يدع.

القسم العلمي

- الذكر حضور الشيء في القلب الحضور الثاني بعد زواله منه المسبوق بحضور متقدم.

هذه حقيقته.

وقد يطلق على الحضور الأول توسُّعًا.

وزواله بعد حضور هو النسيان، فهما ضدان.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٦٣].

وفي مثل:

ذكَّرتَني الطَّعْنَ وكُنْتُ ناسِيًا(١)

- فالمعنى الأصلي للذكر محلُّه القلب، إذ القلب محل ضده النسيان، والضدان إنما يتضادان في محل واحد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: الآية ٢٨] أي جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا، فالغفلة في القلب والذكر في القلب.

وأخوات الذكر - كالذكرى، والتذكير والذُّكر - بضم الذال، - كلها من أعمال القلب، وهو مثلها.

وأما الصمت الذي هو من شأن اللسان فليس ضدًّا له كما قد قيل، وإنما هو ضد في كلام العرب لأعمال لسانية، كالنطق في قولهم: في المال ناطق وصامت(٢)، وما في الحديث: «**فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٣].

- ثم يطلق الذكر إطلاقًا شائعًا على ما يجري على اللسان مما يخبر به عما

---

(١) وتمامه:

رُدُّوا على أقربها الأقاصيا ... إنَّ لَها بالمَشْرَفيِّ حادِيَا

ذكَّرتني الطَّعْنَ وكُنْتُ نَاسيَا

وأوّل من قاله رهيم بن حزن الهلالي. انظر «مجمع الأمثال» (١٤٦٩) للميداني.

(٢) يعنون بالناطق: الحيوان: الإبل والغنم.

وبالصامت: الذهب والفضة.

انظر «لسان العرب» (٨/ ٢٧٨).

[٣] صحيح:

قطعة من حديث أبي هريرة وأبي شريح مرفوعًا:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

أخرجه البخاري (٦٠١٨ و٦٠١٩ و٦١٣٥ و٦١٣٦ و٦١٣٨ و. .) ومسلم (٤٧، ٤٨).

في القلب ويعبر عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [الصَّافات: الآية ٣].

وسمَّى اللَّه - تعالى - القرآن ذكرًا كما في قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٥٠]، لأن آياته متلوة بالألسنة، ومعانيه حاضرة في القلوب.

ومثله في هذه التسمية كلمات التسبيح والحمد والتهليل والتكبير من جميع الأذكار.

ويقال في كل عمل من أعمال الطاعة ذكر، لأنها كلها مرتبطة بذكر القلب ومن ثمراته.

وسمَّى اللَّه - تعالى - نبيه ﷺ ذكرًا في قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا﴾ [الطلاق: الآية ١٠- ١١] لأنه مخبر عن ربه ومبلِّغ للذكر، أو لأنه هو ﷺ يذكر في الصلاة عليه والحديث، وفي سيره وشمائله بالألسنة والقلوب.

وعبر عن إرساله بالإنزال لأن رسالته وحي من العلي الأعلى، وأعظم رحمة نزلت من السماء.

وسمَّى اللَّهُ الآياتِ الكونيةَ المشاهدةَ ذكرًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: الآية ١٠١]، لأنها تحدث الذكر في القلب كما تحدثه آياته المتلوة التي تسمى أيضًا ذكرًا.

فالمعنى أنه كما لم يكن لهم ذكر في قلوبهم من الآيات المتلوة، لأنهم كانوا لا يستطيعون سمعًا، كذلك لم يكن لهم من الآيات المرئية لأن أعينهم في غطاء.

أقسام الذكر:

قد كثر ورود لفظ الذكر في آيات القرآن وأحاديث السنة، وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام مرادة من تلك النصوص: ذكر القلب فكرًا واعتقادًا واستحضارًا، وذكر اللسان قولًا، وذكر الجوارح عملًا، وسنتكلم عليها واحدًا واحدًا.

ذكر القلب:

وهو على ثلاثة ضروب:

الأول: التفكُّر في عظمة اللَّه وجلاله، وجبروته وملكوته، وآياته في أرضه وسمواته وجميع مخلوقاته، والتفكُّر - أيضًا - في أنواع آلائه، وعظيم إنعامه على خلقه عامة، وعلى الإنسان خاصة، بما سخر له منها وما يسر له من أسباب الإنتفاع بها، بما يوجب الإيمان بوحدانيته في ربوبيته، فلا خالق ولا مدبر ولا مصرف ولا آمر ولا حاكم ولا منعم على الحقيقة سواه، وبوحدانيته في ألوهيته فلا يستحق العبادة سواه.

وهذا الضرب هو أعظم الأذكار وأجلُّها وأفضلها، وبه يتوصل إليها ويستحقُّ الثواب عليها، إذ هو أساسها الذي تُبنَى عليه.

فالأعمال مبنية على العقائد، والعقائد لا تثبت إلا بهذا التفكر، وبه تنجلي في العقول، وترسخ في النفوس، وتحصل للناظر طمأنينة اليقين.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

وهذا هو الذكر الذي يحصل به الإطمئنان.

وهو المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥].

قال جماعة من السلف: ذكر اللَّه في الصلاة أكبر من الصلاة.

وهو المراد أيضًا في حديث أبي الدرداء موقوفًا في «الموطأ» ومرفوعًا في غيره:

«ألا أخبركم بخير أعمالكم وأرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إعطاء الذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذكر اللَّه»[٤].

---

[٤] صحيح:

أخرجه مرفوعًا أحمد (٥/ ١٩٥) والترمذي (٣٣٨٦) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٤٩٦) وغيرهم عن أبي الدرداء، وزادوا - غير أحمد - وقال معاذ بن جبل:

«ما عمل آدمي من عمل أنجى له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه ﷻ».

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي.

وأقره المنذري في «الترغيب» وقال: «رواه أحمد بإسناد حسن».

وأخرجه موقوفًا مالك في «الموطأ» (٢/ ٢٩-٣٠/ ٤٩٣ بشرح الزرقاني) عن زياد بن أبي زياد أنه قال: قال أبو الدرداء: فذكره.

وهذا إسناد فيه انقطاع: زياد لم يسمع من أبي الدرداء.

ومثله في الانقطاع ما أخرجه -عقبه- عن زياد قال: وقال أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه».

ولجملة معاذ هذه طرق مرفوعة، منها:

١- عن معاذ: أخرجه أحمد(٥/ ٢٣٩)بإسناد فيه انقطاع.

٢- عن جابر: أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٧٧) و«الأوسط» (٣/ ١٥٦/ ٢٣١٧) ورجالهما رجال الصحيح. قاله المنذري في «الترغيب».

قلتُ: لكن فيه عنعنة أبي الزبير!.

٣- عن عبد اللَّه بن عمر: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٩٦/ ٥٢٢) بإسناد ضعيف جدًا، فيه سعيد بن سنان الحمصي «متروك» كما في «التقريب».

وفي حديث معاذ كذلك:

«ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه»[٥].

وهذا كله لأنه هو أساس جميع الأعمال كما قدمنا، فإذا حصل ودام وجهه؛ حصلت كلها ودامت على وجوهها.

الثاني: العقد الجازم بعقائد الإسلام في اللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله، عقدًا عن فهم صحيح، وإدراك راسخ، تتحلى به النفس بمقتضيات تلك العقائد، وتتذوق حلاوتها، وتتكون لها منها إرادة قويَّة في الفعل والترك تملك بها زمامها، تلك الإرادة التي لا تكون إلَّا عن عقيدة راسخة في النفس، ويقين مطمئن به القلب.

ولذا كان هذا الضرب من ذكر القلب متفرعًا عن الضرب الأول ومبنيًا عليه.

الثالث: استحضار عظمة الرب وإنعامه، وما يستحقه من القيام بحقه عند كل فعل وترك، فيفعله بإذنه لوجهه ويترك بإذنه لوجهه، ولا يدوم هذا الاستحضار إلا إذا رسخت العقيدة التي هي من مقتضى الضرب الثاني، ودامت الفكرة التي هي من مقتضى الضرب الأول، فهو متفرع عنهما ومتوقف عليهما.

وهذا الضرب هو أساس التقوى، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

---

[٥] صحيح:

انظر ما قبله.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] .

فإن الذكر المناسب لمواطن الحرب هو استحضار عظيم حق اللَّه على العبد في القيام بذلك الفرض، واستحضار وعده ووعيده، ممَّا يقوي القلب ويكسب الجرأة والثبات وانتظار النصر - دون كثرة الذكر اللساني - فقد جاء عن النبي ﷺ طلب الصمت عند جلبة العدو وصخبه[٦] .

وهو المراد أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجُمُعَة: الآية ١٠] .

فإن الابتغاء من فضل اللَّه هنا هو التصرف بوجوه التجارة والكسب، وليس ذلك مما يناسبه ذكر اللسان كثيرًا، فإن ذكر اللسان يطلب فيه التدبر، وأن ذلك غير متيسر للمشتغل بالبيع والشراء، وإنَّما يناسبه استحضار عظمة الرب وإنعامه، ولازم حقه، ليمتثل أمره ونهيه، في وجوه الأخذ والعطاء، والقضاء والاقتضاء.

ذكر اللسان:

وهو ضربان:

الأول: ذكر اللَّه - تعالى - بالثناء عليه والاعتراف بنعمه وإظهار الفقر إليه

---

[٦] ضعيف:

أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥/ ٢٤٢/ ٥١٣٠) عن زيد بن أرقم مرفوعًا:

«إن اللَّه ﷻ يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة».

وإسناده ضعيف، وله علتان: الضعف والجهالة، فانظر «الضعيفة» (٥٧٢٨) للألباني.

بأنواع الأذكار والدعوات. . .

وهذا الذكر شرط الاعتداد به حضور القلب عنده.

ومن أظهر الآيات الواردة فيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨]، فإن النبي ﷺ لما بلغ في حَجَّتِهِ المشعر استقبل القبلة ودعا وكبَّر وهلَّل ووحَّد[٧].

الثاني: ذكره تعالى بدعوة الخلق إليه، وإرشادهم إلى صراطه المستقيم الموصل إليه، بتعليم دينه، والتنبيه على آياته وإنعاماته، وتبيين محاسن شرعه وتفهيم أحكامه، وشرح حكمته في خلقه وأمره، والترغيب والترهيب بوعده ووعيده، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين في التبليغ عن رب العالمين وأتباعهم المؤمنين، إلى يوم الدين.

ولذا قال عطاء: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلِّي وتصوم وتنكح وتطلِّق وتحجُّ. . . وأشباه هذا[١].

وما سمَّاه قليلٌ من كثيرٍ، قصد به تقريب التبيين بالتمثيل.

ذكر الجوارح:

وهو ضرب واحد:

فذكرها استعمالها في الطاعات، وكلُّ عمل لها أو انكفاف على مقتضى

---

[٧] صحيح:

قطعة من حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حَجَّته عليه الصلاة والسلام:

أخرجه مسلم (١٢١٨) وغيره.

(١) انظر: «الفقيه والمتفقه» (٤٠) للخطيب البغدادي، و«الأذكار» (١/ ٥٥) للنووي.

الشرع، فهو طاعة، وكل طاعة للَّه فهي ذكر، فكل عامل للَّه بطاعته فهو ذاكر للَّه - تعالى - ، كما حكاه النووي(١) عن سعيد بن جبير وغيره من العلماء، مستدلًّا به على أن فضيلة الذكر ليست منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها.

وبهذا يمكن للعبد الموفَّق أن يكون ذاكرًا لربه في يقظته ونومه وصحته ومرضه وعلى جميع أحيانه.

القسم العملي

أمر اللَّه عباده بذكره في غير ما آية من كتابه وغير ما حديث من كلام نبيه، ووعد عليه بجزيل الثواب.

ومن الآيات العامة في هذا الأمر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٢] وهو أمر بالذكر بوجوهه الثلاث، فحق علينا أن نذكره بها.

وكما تلقينا هذا الأمر وهذا الوعد عن رسول اللَّه ﷺ كذلك علينا أن نتلقى عنه كيف كان يعمل به فهو المبلِّغ عن اللَّه - تعالى - بقوله وفعله والمبين كذلك بهما.

ولا شك أنه ﷺ كان دائم ذكر القلب بالفكر والعقد والاستحضار، دائم ذكر الجوارح في أنواع الطاعات.

وقد جاء في شمائله الشريفة أنه كان ﷺ: «دائم الفكرة لا يتكلَّم في غير

(١) في المصدر المتقدم.

حاجة، طويل السكوت»[٨] وأنه «كان سكوته على أربع: على الحِلم والحذر والتقدير والتفكير»[٩].

وأما الذكر اللساني فقد كان ﷺ - كما جاء في شمائله أيضًا -: «لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر»[١٠]. فلا يخلو مجلسه من ذكر اللَّه، كما كان يسكت ويطيل السكوت كما تقدم.

وقد روى عنه الأئمة من أذكار اليوم والليلة وسائر الأذكار ما فيه الكفاية والشفاء.

فالمؤمن الذي يحافظ على قلبه ويعتني به حتى يكون صحيح العقد دائم الفكر والاستحضار، ويأتي مع ذلك من الأذكار المأثورة المطلقة بما تيسر منها، وبالمرتبة في الأحوال والأوقات التي رتبت عليها، ولا يخلي مقامه ومقعده من شيء من ذكر اللَّه - وإن قلَّ - يكون متبعًا للنبي ﷺ في سنته في

---

[٨] ضعيف جدًّا:

قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٦- مختصره للألباني) وغيره من حديث هند ابن أبي هالة رضي الله عنه.

وإسناده ضعيف جدًا كما سيأتي بيان عِلَلِه برقم (٩٩).

ويغني عنه ما أخرجه أحمد (٥/ ٨٦و٩١) من طريقين عن سماك قال: قلت لجابر بن سَمُرة: أكنت تجالس رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، وكان طويل الصمت، قليل الضحك... الحديث.

وهذا حديث حسن، سماك هو ابن حرب «صدوق في غير روايته عن عكرمة»، واللَّه أعلم.

[٩] ضعيف جدًّا:

قطعة من الحديث الطويل المتقدِّم قبله، لكنه من مسند علي رضي الله عنه.

[١٠] ضعيف جدًّا:

قطعة من الحديث المتقدم برقم (٨).

الذكر، ويكون بهذا - في بيته، وفي سوقه، وفي مصنعه، وفي مسجده - معدودًا من الذاكرين المكثرين، بالقلب واللسان والجوارح.

التحذير:

ربما شغل اللسان بالتعلُّم والعلم عن الأذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملةً ويكون عنها من الغافلين، فيحرم من خير كثير وعلم غزير، وقد كان ﷺ معلِّم الخَلق، وما كان يغفل عن تلك الأذكار.

وربما بالغ قومٌ في بعض هذه الأذكار فأتوا منه بالآلاف، وأهملوا جانب التفكير الذي هو أعظم أذكار القلب، والذكر اللساني أحد وسائله، فتشغلهم الوسيلة عن المقصود، وليس ذلك من هدي من كان - كما تقدم - دائم التفكير.

وقد يؤدِّيهم الذكر اللساني بالألوف إلى الانقطاع عن مجالس العلم والزهد في التعلُّم فيفوتهم ما قد يكون تعلُّمه عليهم من فروض الأعيان.

وليس من سداد الرأي وفقه الدين إهمال المفروض اشتغالًا بغير المفروض.

ويقابل هذا الغلوَّ في ذكر اللسان ما رآه آخرون من الإقبال على التفكير الأيام والليالي، مع ترك ذكر اللسان.

وهذا زيغ عن طريق النبي ﷺ في المحافظة على الأذكار اللسانية التي امتلأت كتب الحديث بالترغيب فيها والحث عليها.

فليحذر المؤمن من هذا كله ومن مثله، وليتمسك بما كان عليه النبي ﷺ

من الإتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزِّلًا لها في منازلها، متعبدًا للَّه - تعالى - بجميعها، واللَّه الموفق، وبه المستعان[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٢ م٥). غرة شوال ١٣٤٧هـ/ مارس ١٩٢٩م.

ما هو أفضل الأذكار؟

ما هو أفضل الأذكار؟

* تمهيد.
* حالتا العبد.
* الفتوى النبوية فيهما.
* القسم العلمي:
* أفضل الأذكار.
* آيات في الباب.
* أحاديث فيه.
* القرآن يحصل فضل الحالتين.
* القرآن والذكر القلبي.
* القرآن والذكر اللساني.
* القرآن والذكر العملي.
* بعض علوم القرآن.
* نتيجة الاستدلال.
* القسم العملي:
* مقدار التلاوة.
* ما يقصد من التلاوة.
* التحذير.

ما هو أفضل الأذكار؟

تمهيد:

للعبد حالتان:

(أ) حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه وأهله، وما إلى رعايته من مصالحه، أو مصالح غيره، فيمارس فيها الأسباب، ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته، وهو في هذه الحالة متعبد مأجور ما جرى فيها على حدود اللَّه، وقصد بها امتثال شرعه.

(ب) وحالة ينفرد فيها لربه، ويخلِّص من همِّ ذلك كلِّه قلبه، ويتوجَّه بكلِّيته إلى خالقه، بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والإقبال.

وهذه الحالة الثانية هي أشرف وأفضل حالتيه، وهي أساس الاستقامة في الحالة الأولى، وأصل الكمال فيها.

كانت هاتان الحالتان للنبي ﷺ كما كانتا لغيره.

وقوله ﷺ: «**إنَّه ليغان**(١) **على قلبي فأستغفر اللَّه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[١١] إشارة إلى الحالة الأولى التي يكون فيها قائمًا بمصالح الأمة،

---

(١) غانت نفسه: غثت. وغينت السماء: طبقتها الغيم.

[١١] صحيح:

رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٠٢) وأبو داود في «سننه» (١٥١٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٢) وأحمد في «المسند» (٤/ ٢١١و٢٦٠) عن الأغر المزني رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ «مائة مرة».

وناهضًا بأعباء الرسالة، ومباشرة الشؤون العامة والخاصة، ورآها دون الحالة الثانية التي يكون فيها متفرغ القلب للرب.

وما كان ذلك الغين إلا الاشتغال بأمور الخلق في الحالة الأولى الذي يحجب عن كمال مشاهدة الحق التي في الحالة الثانية، فاستغفر اللَّه تعالى منه، وما كان استغفاره - عليه الصلاة والسلام - إلا لاشتغاله بكامل عن أكمل، وتوجهه للقيام بأمر عظيم عن مقام أعظم.

وقد تفطن الصحابة - رضوان [اللَّه][1] عليهم - لهاتين الحالتين، وسألوا النبي ﷺ عنهما وأفتاهم فيهما.

فجاء في «الصحيح» أن حنظلة الأسيدي - وكان من كُتَّاب النبي ﷺ - قال:

«لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان اللَّه ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول اللَّه ﷺ يذكِّرنا بالنار والجنة كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول اللَّه ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فواللَّه إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول اللَّه ﷺ قلتُ: نافق حنظلة يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وما ذاك؟**» قلت: يا رسول اللَّه، نكون عندك تذكِّرنا بالجنة والنار كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، فقال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) سقطت من الأصل.

«والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم !! ولكن يا حنظلة! ساعة وساعة» (ثلاث مرات)»[١٢].

فقوله ﷺ: «ساعة وساعة» بيان للحالتين وتقرير لهما.

وقوله: «والذي نفسي بيده» إلى آخره، بيان لفضلاهما.

هذه الحالة الفضلى، الذكر الذي يحصلها للعبد على أكمل وجه هو أفضل الأذكار، وستعرف مما سيأتي بعد أنه هو القرآن.

وقد قسمنا ما سنقوله إلى قسمين علمي وعملي، وختمنا بفصلٍ في التحذير.

القسم العلمي

القرآن أفضل الأذكار من طريق الأثر:

قال تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٠].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: الآية ١٧].

---

[١٢] صحيح:

رواه مسلم (٢٧٥٠) والترمذي (٢٥١٩) وابن ماجه (٤٢٣٩) و أحمد (٤/ ١٧٨و٣٤٦) عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

* وحنظلة هو «ابن الربيع بن صيفي، ويقال له حنظلة الكاتب. والأسيِّدي بالتشديد، نسبة للأسيِّدي ابن عمرو بن تميم.

روى عن النبي ﷺ، وكتب له، توفي في خلافة معاوية.

انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١٨٦٤) لابن حجر.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىۡءٍ ۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ۖ﴾ [النَّمل: الآية ٩١- ٩٢].

فهذه البركة، وهذا التيسير، وهذا الأمر بالتلاوة المقرون بالأمر بتوحيد العبادة وبالإسلام على طريق الحصر؛ لم ترد إلا في القرآن.

وروى الترمذي عن عبد اللَّه بن مسعود ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«من قرأ حرفًا من كتاب اللَّه فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[١٣].

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وهذه مثوبة لم ترد لغير القرآن من جميع الأذكار.

وروى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا:

«ما تقرب العباد إلى اللَّه بمثل ما خرج منه»[١٤].

---

[١٣] صحيح:

رواه الترمذي (٢٩١٥) عن عبد اللَّه بن مسعود ﵁ وقال: «حديث حسن صحيح غريب» وأقره المنذري في «الترغيب».

[١٤] ضعيف:

قطعه من حديث أبي أمامة وتمامه:

«ما أذن اللَّه لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصلِّيهما، وإن البر لَيُذَرُّ على رأس العبد ما دام في صلاته وما تقرب. .»

أخرجه الترمذي (٢٩١٦) وأحمد (٥/ ٢٦٨) من طريق بكر بن خنيس عن ليث بن أبي سُليم عن زيد بن أرطاة عنه مرفوعًا.

وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره». =

ومن معناه ما ذكره القرطبي عن فروة بن نوفل عن خباب بن الأرت قال: إن استطعت أن تقرب إلى اللَّه ﷻ، فإنك لا تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه[١٥].

ومثل هذا لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع.

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا:

«يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته

= قلت: ومثله في الضعف ليث بن أبي سليم وكان اختلط، ثم إنَّ فيه انقطاعًا، فإن زيد بن أرطاة حديثه عن أبي أمامة مرسل كما في «جامع التحصيل» (ص١٧٨) للعلائي، وغيره.

والقطعة الأخيرة منه أخرجها الترمذي (٢٩١٧) عن العلاء بن الحارث عن زيد بن أرطاة عن جبير بن نفير مرسلًا بلفظ:

«إنكم لن ترجعوا إلى اللَّه بأفضل مما خرج منه - يعني القرآن».

ومع إرساله فإن العلاء بن الحارث تكلم فيه، قال الحافظ في «التقريب»:

«صدوق فقيه لكن رمي بالقدر، وقد اختلط».

والحديث أشار الحافظ المنذري في «الترغيب» إلى ضعفه.

* وأبو أمامة: اسمه صدي بن عجلان الباهلي، صحابي مشهور.

[١٥] صحيح:

أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٣٦/ ٣٠٠٨٩) قال: حدثنا عبيدة، (في المطبوعة زيادة: اللَّه)، بن حُميد عن منصور عن هلال بن يساف عن فروة بن نوفل، قال: قال خباب بن الأرت - وأقبلت معه من المسجد إلى منزله - فقال لي: ... فذكره.

وهذا إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح، ومنصور هو ابن المعتمر واللَّه أعلم.

وأخرجه أحمد في «الزهد» (١١٢٣) حدثنا جرير عن منصور به نحوه.

وأخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١٧-٣). حدثنا حجاج عن جرير بن عبد الحميد به.

*وخباب بن الأرت: من السابقين إلى الإسلام، وكان يعذب في اللَّه، شهد بدرًا، ثم نزل الكوفة، ومات بها سنة (٣٧هـ).

أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام اللَّه على سائر الكلام كفضل اللَّه على خلقه»[١٦].

وهذا الحديث والذي قبله نصان صريحان في المقصود.

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا:

«قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن من غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير»[١٧].

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنه: «سئل رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: أي الأعمال

---

[١٦] ضعيف جدًا:

رواه الترمذي (٢٩٣١) من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عنه به، وقال: «هذا حديث حسن غريب»

كذا قال: وفيه عِلَّتان:

الأولى: ضعف الهمداني، بل تركوه كما قال الذهبي في «الضعفاء» وكذبه ابن معين وأبو داود.

والأخرى: ضعف عطية - وهو ابن سعد العوفي - قال: الذهبي «مجمع على ضعفه».

وفي «التقريب»: «صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا».

ولذا قال الذهبي: «حسنه الترمذي فلم يحسن».

[١٧] ضعيف:

رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤١٣/ ٢٢٤٣) من طريق محمد بن سلام الجُمحي قال: حدثنا الفضل بن سليمان النميري، وذكر رجلًا من بني مخزوم من ولد عبد اللَّه بن أبي ربيعة - وأحسن عليه الثناء - عن أبيه عن جده عنها، وزاد في آخره:

«والتسبيح أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم، والصوم جنة من النار».

قال المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٥١٣):

«وفيه محمد بن سلام، قال ابن منده: له غرائب، عن الفضل بن سليمان وفيه مقال، عن رجل من بني خزيمة (!) مجهول».

وله طريق آخر أورده الذهبي في «الميزان» (٣/ ٢٥١) لكن لا يفرح به فيه عمرو بن جُميع متهم بالوضع.

أفضل عند اللَّه؟ قال:

«قراءة القرآن في الصلاة، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة، فإن الصلاة أفضل الأعمال عند اللَّه، وأحبها إليه، ثم الدعاء والاستغفار، فإن الدعاء هو العبادة، وإن اللَّه تعالى يحب المُلِحَّ في الدعاء، ثم الصدقة، فإنها تطفئ غضب الرب، ثم الصيام فإن اللَّه تعالى يقول: الصوم لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ للعبد من النار»[١٨].

قال القرطبي - بعدما خرَّج هذا الحديث بسنده -: «قال علماؤنا: هذا حديث عظيم في الدين يبين فيه أن أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة»(١).

القرآن أفضل الأذكار من طريق النظر:

إن أشرف حالتي الإنسان - وهي حالة انفراده بربه، وتوجهه بكليته إليه،

---

[١٨] ضعيف جدًا:

رواه القرطبي في «التذكار» (ص٦٨): من طريق محمد بن الحسن التسنيمي، (في الأصل: التميمي! وفي الهامش علق الغماري بقوله: وفي نسخة التيمي!!)، قال: حدثنا محمد بن بكر (في الأصل أبي بكر) البرساني قال: حدثنا إبراهيم بن يزيد المكي قال سمعت نافعًا يحدث ابن عمر قال: . . . فذكره.

وهذا إسناد ضعيف جدًا، إبراهيم بن يزيد المكي «تركوه» كما في «الضعفاء» للذهبي، وفي «التقريب»: «متروك الحديث».

(تنبيه): عزا المصنف - عفا اللَّه عنا وعنه - الحديث لأبي نعيم - كما ترى - وهذا يوهم أنه في كتابه «الحلية» لأنه المراد عند إطلاق العزو إليه، وليس الأمر كذلك، فقد تتبعت أحاديث الكتاب حديثًا حديثًا دون العثور عليه.

نعم، من طريقه رواه القرطبي، فالعزو إليه أولى. واللَّه أعلم.

(١) «التذكار في أفضل الأذكار» (ص٦٨)، وعبارته فيه: «هذا حديث صحيح عظيم في الدين بيّن فيه . .».

وخلوص قلبه له، وتعلُّقه به - إنما تحصل على أكملها لتالي القرآن العظيم، فإن أفضل ما فيه - وهو قلبه - يكون قائمًا بأفضل أعماله، وهو التفكر والتدبر، في أفضل المعاني، وهي معاني القرآن.

وأن ترجمان ذلك القلب - وهو لسانه - يكون قائمًا بأفضل أعماله، وهي البيان بأفضل كلام، وهو القرآن.

وجوارحه - إذا لم يكن في صلاة - كانت محبوسة على قيام القلب واللسان بأفضل الأعمال، وإذا كان في صلاة، كانت قائمة بأفضل عبادة، وهي الصلاة، في أشرف موقف، وهو مناجاة الرحمن بآيات القرآن.

فهذا الذكر الحكيم، تنزيل الرحمن الرحيم، الذي يحصل هذه الحال، التي هي أشرف الأحوال، وهي معراج الأرواح لمنازل الكمال - هو أفضل الأذكار.

وأيضًا فإن الذكر قلبي ولساني وعملي، والقرآن محصل لذلك كله على أكمله كما سنبينه.

القرآن والذكر القلبي:

فالتالي للقرآن المتدبر لآياته، يكون متفكرًا في مخلوقات اللَّه، وما فيها من حكم ومن نعم، وفي معاني أسمائه وصفاته، وفي مظاهر رحمته وإحسانه وبطشه وانتقامه، وفي أسباب ثوابه وعقابه، وفي مواقع رضاه وسخطه.

كما يكون التالي أيضًا متبصرًا في عقائده، خبيرًا بأدلتها، وردِّ الشُّبَهِ عنها.

كما يكون أيضًا مستحضرًا لربه في قلبه باستحضار حقوقه ونعمه وآلائه؛ إذ هذا كله ممَّا تضمنته آي القرآن، على أكمل بيان، وأوضح برهان.

القرآن والذكر اللساني:

وكذلك قد اشتمل القرآن على أفضل الأذكار اللسانية: من تهليل، وتكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، واستغفار، ودعاء، وعلى الأسماء الحسنى، والصفات العلى للرب تبارك وتعالى، فتاليه يكون ذاكرًا بهذه الأذكار كلها.

القرآن والذكر العملي:

إن تلاوة القرآن بالتدبر تثمر للتالي التوبة والإنابة والرجاء والخوف، وذلك كله مما يكون له خير داع إلى الاستقامة - ولو بعض الشيء - في سلوكه العملي.

هذا شيء قليل مما للقرآن في الذكر بأنواعه الثلاثة، إلى ما فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر، والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام، وكليات السياسة والتشريع، وحقائق الحياة في العمران والاجتماع، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة، والعدل والاحسان.. إلى ما تقصر عن عدِّه الألسنة، وتعجز عن الإحاطة به الأفهام.

وإنما ينال كلُّ تالٍ منها على قدر ما عنده من سلامة قصد وصحة علم، بتقدير وتيسير من الحكيم العليم.

نتيجة الاستدلال:

لهذه الأدلة الأثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الأئمة من السلف والخلف إلى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر.

قال سفيان الثوري: «سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر». نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب «التذكار»[(١)].

وقال النووي: «واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك»[(٢)].

قاله في الباب الثاني من كتاب «التبيان»[(٣)].

القسم العملي

مقدار التلاوة:

قد كان النبي ﷺ لا يخلي ليله ونهاره من تلاوة القرآن، وكان - كما قال القرطبي -: يختمه في سبع.

وهكذا قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: **«واقرأ في كلِّ سبع ليال مرة»**[١٩]،

(١) (ص٣٩، ٤٠)؛ وفي مطبوعة «التذكار»: «سمعنا أن القرآن أفضل الذكر إذا عمل به».

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٤).

(٣) الشهاب: (ج٣ م٥) غرة ذي القعدة ١٣٤٧هـ - أبريل ١٩٢٩م.

[١٩] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٥٠٥٢) ومسلم (١١٥٩) (١٨٢) وأبو داود (١٣٨٥-١٣٨٧)=

وقد كان قال له أوَّلًا: «**واقرأ القرآن في كل شهر**»، فلما قال له: أنه يطيق أكثر من ذلك نقله إلى العشرين، وإلى الخمسة عشر، وإلى العشر، وانتهى به إلى السبع في قول الأكثر.

وكان هذا فعل الأكثرين من السلف.

وعند الترمذي وغيره من حديث ابن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا:

«**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[٢٠].

وهذا ترخيص فيما دون السبع، وترغيب عما دون الثلاث.

وقد فهم السلف من هذه الأحاديث بيان ما يكون وظيفةً وحزبًا يستمر عليه، فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن في أقلَّ من ذلك في مراتٍ في بعض الأحوال، وقد ثبت عن كثير منهم ختم القرآن في ركعة واحدة[١].

= والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٤-٢٥/ ٨٠٦٤-٨٠٦٥) وابن ماجه (١٣٤٦) وأحمد (٢/ ١٦٣و١٨٨و١٩٩و٢٠١) من طرق عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[٢٠] **صحيح**:

رواه أبو داود (١٣٨٧و١٣٩١) والترمذي (٢٩٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٥/ ٨٠٦٧) والدارمي (١/ ٣٥٠) وابن ماجه (١٣٤٧) وأحمد (٢/ ١٢٤و١٦٤و١٨٩و١٩٣و١٩٥) عن ابن عمرو مرفوعًا.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وصححه النووي في «الأذكار» (ص٨٦) وفي «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص٦١-٦٢).

(١) منهم عثمان بن عفان وتميم الداري رضي الله عنهما، وسعيد بن جُبير رحمه الله، وقد أورد الحافظ ابن كثير آثارهم في كتابه «فضائل القرآن» وقال: «وهذه كلُّها أسانيد صحيحة». ثم قال: «فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إمَّا على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرءونه مع هذه السرعة، والله سبحانه وتعالى أعلم».

ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها، وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك، فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر إلى السبع على حسب حاله، فإذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخل ليله ولا نهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته، ولا يكن من الغافلين.

ما يقصده من التلاوة:

قراءة القرآن أفضل أعمال اللسان، وتدبر معانيه أفضل أعمال القلب، هذا من حديث أبي أمامة[٢١] عند الترمذي الذي قدمناه في القسم الأول، فليقصد التالي التقرُّب إلى اللَّه تعالى بهما.

والقرآن موعظة ترقق القلوب القاسية، فليقصد تليين قلبه.

والقرآن شفاء لأدواء النفوس في عقائدها وأخلاقها وأعمالها، فليقصد الشفاء به من ذلك كله.

والقرآن هدى ودلالة على كل ما يوصل إلى سعادة الدنيا والأخرى، فليقصد الاهتداء بهدايته.

والقرآن رحمة من اللَّه للمؤمنين، فليستنزل بتلاوته وتدبره الرحمة من اللَّه تعالى، بإفاضة علوم القرآن على قلبه، وبتوفيقه إلى القيام بمقتضى هدايته.

ولا يسلم تالي القرآن -لأنه غير معصوم- من ذنوب قد يصدأ لها قلبه، فليقصد بتلاوته جلاء قلبه، والتوفيق للتوبة من ذنبه، وليجعل تلاوته لأجل

---

[٢١] ضعيف:

تقدم تخريجه برقم (١٤).

تحصيل التوبة من أعظم وسائله إلى ربه .

وقد مضى لك في الحديث القدسي في القسم الأول : «**من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[٢٢] .

التحذير:

زعم قوم : أن الصلاة على النبي ﷺ خيرٌ لعامةِ الناس من تلاوة القرآن .

قالوا : لأن الصلاة ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها إثم ، والقرآن إذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه إثمًا لمخالفته لما يتلوه .

واستدلوا على هذا بقول أنس رضي الله عنه الذي تحسبه العامة حديثًا : «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»[٢٣] .

فأدى هذا معتقديه إلى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها ، فليحذر من هذا الرأي ومما أدى إليه .

للصلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن منزلته وفضله ، فليأت الذاكر من الصلاة ومن غيرها من أبواب الذكر بما لا يؤدي إلى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذي هو أفضل الأذكار .

وهذا الرأي المتقدم في تفضيل الصلاة على التلاوة مخالفٌ تمام المخالفة لما نقلناه في : «نتيجة الاستدلال» ، عن أئمة السلف والخلف : من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار ، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة ،

---

[٢٢] ضعيف :

تقدم تخريجه برقم (١٦) .

[٢٣] لم أقف عليه مسندًا بعد البحث الشديد عنه في مظانه ، فاللَّه أعلم .

ومخالفٌ كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن؛ وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المذنبين مرضى القلوب، فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب، ومرض به، وأن اللَّه تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٥٧] . ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢] .

فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به، بألفاظه ومعانيه، وذلك الرأي يصرف المذنبين عن تلاوته.

الوجه الثاني: أن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات، وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها، ولا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها، فهي محتاجة دائمًا وأبدًا إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا - فيما رواه البيهقي في «الشعب» والقرطبي في «التذكار»:

«**إنَّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**. قالوا: يا رسول اللَّه فما جلاؤها؟ قال: **تلاوة القرآن**»[٢٤] .

[٢٤] ضعيف:

رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٥٢-٣٥٣/ ٢٠١٤) من طريق عبد الرحيم بن هارون أنا=

فمقصود الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم، وذلك الرأي يصرفهم عنه.

الوجه الثالث: أن الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلُّمه، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها.

فروى أبو داود عن سعد:

«ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلَّا لقي اللَّه أجذم»[٢٥].

= عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا.

وهذا إسناد معلول: عبد الرحيم بن هارون «ضعيف، كذبه الدارقطني» كما في «التقريب».

ومن طريقه أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٨٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢١٣-٢١٤/ ١١٩١٧) والقرطبي في «التذكار» (ص٨٥-٨٦).

لكنه لم يتفرد به فقد تابعه:

١- عبد اللَّه بن عبد العزيز بن أبي رواد عن أبيه به ولفظه:

«إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه ماء، قيل: يا رسول اللَّه وما جلاؤها؟ قال: «كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن».

رواه البيهقي أيضًا.

وعبد اللَّه بن عبد العزيز بن أبي رواد؛ قال أبو حاتم وغيره: أحاديثه منكرة: وقال ابن الجنيد: لا يساوي فلسًا، وقال ابن عدي: روى أحاديث عن أبيه لا يتابع عليها، كذا في «الميزان» للذهبي.

٢- إبراهيم بن عبد السلام المخزومي المكي: رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٤١٩) في ترجمة إبراهيم هذا وقال فيه: «ليس بمعروف، حدث بالمناكير، وعندي أنه يسرق الحديث» إلا أن فيه «كثرة ذكر اللَّه».

[٢٥] **ضعيف:**

رواه أبو داود (١٤٧١) من طريق يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن فائد عن سعد بن عبادة ﷺ مرفوعًا وزاد: «يوم القيامة».

وهذا إسناد ضعيف وفيه علتان:

الأولى: يزيد بن أبي زياد الهاشمي مولاهم الكوفي «لا يحتج بحديثه» كما قال المندري، وفي «التقريب»: «ضعيف. كبر فتغير وصار يتلقن». =

وروى الشيخان عن عبد اللّه:

«استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصِّيًا من صدور الرجال من النَّعَم»[٢٦].

فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ودفع النسيان، وذلك الرأي أدَّى إلى تقليلها أو تركها الموقع في النسيان.

وإلى مخالفته لمقصود الشرع بهذه الوجوه فإن له لوازم فاسدة.

منها: أن صلاة النافلة مرغب فيها على العموم، وهي مشتملة على قراءة القرآن.

فماذا يقول أصحاب هذا الرأي؟

فهل يرغِّبون المذنبين - أمثالنا - عن النافلة طردًا لأصلهم؟

= والعلة الأخرى: الانقطاع، قال ابن أبي حاتم: عيسى بن فائد رواه عمن سمع سعد بن عبادة، كما في «عون المعبود» (٤/ ٢٤٢).

والحديث أشار إلى ضعفه الحافظ في «الفتح» (٩/ ١٠٨).

(تنبيه): المراد بِـ«سعد» عند الإطلاق: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، كما لا يخفى، فإذا ذكر غيره ممن اسمه «سعد» فينبغي تقييده دفعًا للإيهام، واللّه ولي التوفيق.

[٢٦] صحيح:

رواه البخاري (٥٠٣٢) ومسلم (٧٩٠) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه، وزاد في آخره: «بِعُقُلِها».

وكذا رواه الترمذي (٢٩٤٧) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٥٤-١٥٥) وفي «الكبرى» (٨٠٣٩) والدارمي (٢/ ٣٠٨-٣٠٩و٤٣٩) وأحمد (١/ ٤١٧و٤٢٣و٤٣٨-٤٣٩و٤٦٣).

وللحديث شاهد عن ابن عمر عند البخاري (٥٠٣١) وآخر عن أبي موسى الأشعري عند البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

و(التفصي): التخلص، يقال: تفصى فلان من البلية إذا تخلص منها، ومنه: تفصِّي النوى من الثمرة إذا تخلص منها: أي: إن القرآن أشد تفلتًا من الصدور من النَّعم إذا أُرسلت من غير عقال.

كذا في «فضائل القرآن» لابن كثير.

أم ينهون عن قراءة القرآن في النافلة، فيقولون ما لم يقله أحد؟

أم يقولون بالاقتصار على قراءة سور دون سور، فيتحكَّمون في الأحكام؟

ومنها: أنه قلَّ من يسلم من مخالفة للقرآن بعمله، فإذا ذهبنا مع ذلك الرأي حرم خلقٌ كثيرٌ من تلاوة القرآن.

وكفى بقول يؤدي إلى هذا كله رادًا على نفسه.

وأما قولهم: «أن تالي القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته».

فهي دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب، بل الدليل قائم على خلافها، فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنبًا آخر، وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر، فكيف إذا باشر عبادة التلاوة؟؟

والأصل القطعي - كتابًا وسنة - أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بحسنة تلاوة القرآن.

وأما قول أنس ﷺ: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»، فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته. وكيف وتلاوته عبادة؟

وإنما معناه: أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلًا، فيكون داخلًا في عموم لعنه للظالمين والكاذبين، فخرج هذا الكلام مخرج التقبيح لمخالفة القرآن مع تلاوته، بعثًا للتالي على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن وتعجيل المتاب، لا مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها.

هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل عليه بحكم الأدلة

المتقدمة.

وثبت في الصحيح قوله ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»[٢٧].

وهذا في المتعبد بالصيام الذي يوقع الزور والعمل به في وقت صيامه، فيكون متلبسًا بالعبادة والمخالفة في وقت واحد.

ومع هذا فقد قال الشراح في معنى الحديث - والعبارة للقسطلاني -: «وليس المراد الأمر بترك صيامه إذا لم يترك الزور، وإنما معناه التحذير من قول الزور، فهو كقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من باع الخمر فليشقص الخنازير**»[٢٨] أي يذبحها، ولم يأمره بشقصها(١)، ولكنه على التحذير والتعظيم لإثم شارب الخمر. وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به،

---

[٢٧] صحيح:

رواه البخاري (١٩٠٣) وأبو داود (٢٣٥٩) والترمذي (٧٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٨-٢٣٩/ ٣٢٤٥-٣٢٤٨) وابن ماجه (١٦٨٩) وأحمد (٢/ ٤٥٢-٤٥٣و٥٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

[٢٨] ضعيف:

رواه أبو داود (٣٤٨٥) وأحمد (٤/ ٢٥٣) والدارمي (٢/ ١١٤) وغيرهم من طريق عمر بن بيان التغلبي عن عروة بن المغيرة بن شعبة عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعا.

وهذا إسناد ضعيف لجهالة حال التغلبي هذا، وإليها أشار الحافظ في «التقريب» بقوله: «مقبول» يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث، كما بينه في المقدمة.

وانظر لزامًا «الضعيفة» (٤٥٦٦) للألباني.

(١) في مطبوعة «الإرشاد»: بتشقيصها.

ليتم له أجر صيامه»[١].

فمن باب أحرى وأولى ألا يكون قول أنس رضي الله عنه، محمولًا على طلب ترك التلاوة من المذنب، لأنه غير مباشر لذنبه في حال تلاوته، وإنما المقصود تحذيره من الاستمرار على المخالفة، وترغيبه في المبادرة بالتوبة، ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته.

هذا حظ العلم في الاستدلال على حاجة المذنبين إلى تلاوة القرآن العظيم.

وأما حظ التجربة، فو اللَّه الذي لا إله إلا هو، ما رأيتُ - وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب - أعظم إلانةً للقلب، واستدرارًا للدمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن.

عود إلى تتميم الكلام على التحذير:

ليحذر القارئ من السرعة في التلاوة التي تؤدي إلى تخليط كلماته، وتذهب بحلاوته، وتمنع من بقاء أثره في النفس.

وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلًا مع خواطره، منصرفًا عن تدبره والتذكر به، وإذا عرضت له الخواطر فليصرفها ليدفعها، وليحمل فكره على تدبر آيات الكتاب، ولا ينقطع عن التلاوة إذا كانت تلك الخواطر لا تفارقه، فإن تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاده لنفسه، الذي يثاب عليه، وينتهي به في الأخير إلى الانتصار عليها.

---

(١) إرشاد الساري (٣/ ٣٥٣- ٣٥٤).

وليحذر من الاستمرار على ما عنده من مخالفةٍ لأوامر ونواهي الكتاب، ومن عدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب إذا لم يوفق للتوبة في بعضها، فليستحضر الخشية والخشوع عند الآيات المتعلقة بذلك الذنب، وليكررها وليتفهمها، وليقف عندها وقفة العاجز الذليل الفقير المتضرع لربه، المتعرض لرحمته بتلاوة كلامه، فإن هذا من أعظم الوسائل لتيسير التوبة.

فرتل القرآن، وتدبر معانيه، والتزم حدوده، واضرع إلى اللّه تعالى أن يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة، تكن من الفائزين بإذن رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٤ م٥) غرة ذي الحجة ١٣٤٧هـ - مايو ١٩٢٩م.

خُطب
افتتاح دورس التفسير



خطبة افتتاح
لدروس التفسير هاته السنة(١)

جرت عادتنا أن نفتتح دروس التفسير من كل سنة بخطبةٍ، تارة نخرج منها إلى نفس التفسير، وتارة نطرق بعدها موضوعًا مناسبًا للمقام، ولم نكن فيما مضى نعود إلى كتابتها، وفي هذه السنة رأينا أن نحلِّي بها صدر «الشهاب» تعميمًا للفائدة.

* * *

الحمد للَّه الذي جمَّل الإنسان بالبيان، وجمَّل البيان بالقرآن، فالإنسان دون بيان حيوان أبكم، والبيان دون قرآن كلام أجذم. وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم، قدرًا وتقديرًا، والأحسن الأقوم، عملًا وتفكيرًا، والأسعد الأكرم، حالًا ومصيرًا.

أحمده، أرسل محمدا ﷺ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللَّه بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه القرآن تبصرةً وذكرى، ومعجزةً كبرى، حجة وتذكيرًا، وشرع لنا من دينه الحنيف مناهل العز والسعادة، ومهَّد لنا من شرعه الشريف، سبل الحسنى والزيادة، رحمة منه تعالى وفضلًا كبيرًا.

وأشكره: هدانا واجتبانا، فرضينا باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وبالقرآن إمامًا، وحبب إلينا ديننا، فواللَّه لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في

(١) أي: سنة ١٣٤٨هـ- ١٩٢٩م.

تركه ما ساوت عندنا حبة رغامًا، توفيقًا منه تعالى ويقينًا صادقًا منا وبصرًا بصيرًا.

وأستغفره لما كان منا من نقص وتقصير في الوفاء بعهده الحق، وشكر فضله الكبير، إنه كان عفوًّا غفارًا شكورًا.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أشرف خلقه وأكرم رسله، فرَّق بالقرآن بين الحق والباطل، وهدى به الضال وعلَّم به الجاهل، وجاهد به - في اللَّه - جهادًا كبيرًا.

وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، اقتفوا طريقته، وأحيوا سنته، فوقاهم اللَّه شرَّ ذلك اليوم، ولقَّاهم نضرةً وسرورًا، وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرًا.

وعلى بقية أمَّته، وأهل ملَّته، لبّوا دعوته وأمّوا غايته، ناشطًا وحسيرًا[1].

صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين إلى يوم نلقى محمدا ﷺ ونسعد بلقائه، ونحشر بين الأمم تحت لوائه ونجزى بمحبته - إن شاء اللَّه تعالى - جزاءً موفورًا.

أما بعد:

فقد عُدنا - والحمد للَّه تعالى - إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير، نقتطف أزهارها، ونجتني ثمارها، بيسر من اللَّه تعالى وتيسير، على عادتنا في

---

(١) أي: كليلًا، انقطع من الإعياء، يقال: حسر. إذا أعيا وتعب، فهو حسير. ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، رحمة اللّٰه عليهم أجمعين.

وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة: تفسير ابن جرير الطبري، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأَوْلى الأقوال عنده بالصواب.

وتفسير «الكشاف» الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.

وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات.

وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة في ذلك والحجاج.

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها، مما يقتضيه المقام.

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومآخذ ما يسمعونه منّا، ونحن نعلم أننا - واللّٰهِ - كما قال أخو العرب:

لَعَمْرُ أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرت. وصَوَّح نبتها رعي الهَشيمُ[١]

وكما نقول في مثل: «إنما نكحل في موضع العينين».

وإذا نظرنا إلى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام اللَّه تعالى، أحجمنا، وإذا رأينا إلى فضل اللَّه وثقتنا به وحسن قصدنا إن شاء اللَّه تعالى - في خدمة كتابه - أقدمنا، وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على اللَّه تعالى، سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل[٢].

* * *

(١) البيتان لأبي علي البصير. انظر «أمالي القالي» (٢/ ٢٨٧) و«لسان العرب» (٨/ ٣٠٢).
و(صوَّح نبتُها): إذا يبس وتشقق.
و(الهشيم) من النبات: اليابس المتكسر.
والمعنى: إذا يبس النبت وجفَّ وتغير لونه بعد خضرته اليانعة، فلا مفر للراعي من رعي الهشيم اليابس.
والمقصود: أن الأوائل ذهبوا بالفضل وخُصُّوا بالعلم، ولم يبق الآن إلَّا الضعفاء ومن هم عالة عليهم، ولكن لا حيلة ولا مفر من الأخذ عنهم والاستماع إليهم، وهذا تواضع من الإمام المصنِّف -رحمه اللَّه تعالى-.

(٢) الشهاب (ج١١ م٥) غرة رجب ١٣٤٨هـ- ديسمبر ١٩٢٩م.

خطبة
في افتتاح دروس التفسير العام بالجامع الأخضر

الحمد للَّه الذي شرفنا بخطابه، وألهمنا حفظ كتابه، وجعلنا من أمة سيد أحبابه.

والصلاة والسلام [على](١) سيدنا محمد الذي اختاره اللَّه تعالى من صميم العنصر العربي ولبابه، وحلاه بأسمى معارف النوع البشري وأكمل آدابه، وأرسله رحمة للعالمين ليكشف عن الدين ما كثف من حجابه، ويهدي من سبقت له العناية الربانية إلى أعتابه، فأدى الرسالة وبلغ الأمانة وجاهد في اللَّه حق جهاده، حتى رجع الحق إلى نصابه. وعلى الغر الميامين من آله، والشمِّ الغطاريف(٢) من أصحابه، وعلى التابعين لهم بإحسان على مر الزمان وتوالي أحقابه.

أما بعد، فإن القرءان كلام الجبار، وسيد الأذكار، فيه من العلم ما يفتح البصائر، ومن الأدب ما ينور السرائر، ومن العبر ما يبهر الألباب، ومن الحكم ما يفتح للعلم والعمل كل باب، هو القول الفصل، والحكم العدل، فمن استهدى بغيره ضل، ومن سلك غير نهجه زل، ومن اتبعه كان على الصراط المستقيم.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) جمع غطريف أي: السيّد.

فالحمد للَّه الذي يسر لنا العود إلى تفسيره، والكرع من عذب نميره. وطوبى وبشرى - إن شاء اللَّه تعالى - لحاضري دروسه بالنفع العميم والأجر العظيم والنعيم المقيم.

واللَّه نسأل أن يرزقنا الإخلاص في القصد، والصحة في الفهم، والبيان في القول، والتوفيق في العمل، والتيسير للختم، إنه المولى الكريم، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، والحمد للَّه رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج١١ م٦) غرة رجب ١٣٤٩هـ- ديسمبر ١٩٣٠م.

خطبة الافتتاح

ألقاها عبد الحميد بن باديس بعد صلاة العشاء بالجامع الأخضر مفتتحا بها درس تفسير القرآن العظيم الذي افتتح به التدريس كما هي العادة في كل سنة

الحمد للَّه حمدًا كبيرًا كثيرًا، ومجده أكبر، ورفده أكثر.

والشكر للَّه شكرًا جزيلًا وفيرًا، ونعمته أجزل، ورحمته أوفر.

أحمده، قذف بالحق على الباطل فدمغه فأزهقه.

وأشكره، نصر حزب الحق وبحلية آلائه طوقه.

وخذل حزب الباطل وبغصة كيده أشرقه.

فله الحمد، وله الشكر بدءًا وعودًا رب العالمين.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، توحيدًا خالصًا له في ألوهيته وربوبيته.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله تصديقًا صادقًا له في نبوته ورسالته، شهادةً نتنكب بها من سبل الغالين والمقصرين.

ونكون بها على ملة إبراهيم عليه السلام و﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٦٧].

ونرجو بها من فضل ربِّنا أن نكون مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين

والصديقين والشهداء والصالحين.

والصلاة والسلام على الشاهد المبشر النذير، الداعي إلى اللَّه بإذنه والسراج المنير، سيدنا ومولانا محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب العربي القرشي الهاشمي، إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.

ورضي اللَّه عن آله الطيبين الطاهرين؛ وعن أصحابه الهادين المهتدين، وعن أئمة الهدى من صالح سلف المؤمنين، وعن التابعين لهم بإحسان من جميع المسلمين.

أما بعد، فقد عُدنا - بفضل اللَّه - إلى رياض القرآن المونقة، وأنهاره العذبة المتدفقة، وأنواره الواضحة المشرقة.

نتعظ بمواعظه المليِّنة للصخور، ونتعالج بدوائه الشافي لما في الصدور، ونستهدي بهداه الموضِّح للصراط المستقيم، ونستنزل رحمته العامة للمؤمنين.

وعُدنا - والحمد للَّه - إلى مدارسة القرآن العظيم الذي[1] أنزله اللَّه آمرًا وزاجرًا، وسنةً خاليةً، ومثلًا مضروبًا، فيه نبؤنا، وخبر من كان قبلنا، وحكم ما بيننا. لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، هو الحق ليس بالهزل.

من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن قسم به قسط، ومن عمل به

(١) قد وصف القرآن العظيم بهذه الصفات في حديث الترمذي وغيره. [المصنف].
قلت: سيأتي تخريجه - إن شاء اللَّه- برقم (٢١٠).

أجر؛ ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم.

من طلب الهدى في غيره أضله اللَّه، ومن حكم بغيره قصمه اللَّه.

هو الذكر الحكيم، هو النور المبين، هو الصراط المستقيم، هو حبل اللَّه المتين، فمن تمسك به نجا، ومن تركه كان من الهالكين - عياذًا باللَّه السميع العليم.

فاللَّه نسأل - كما وفقنا لقراءته ومدارسته - أن يوفقنا لفقهه ومتابعته، وأن يجعله - في الدارين - حجة لنا لا علينا، وأن يكون نورًا لنا في الدنيا والآخرة؛ وفي عرصات القيامة، وعلى متن الصراط، حتى ندخل معه الجنة دار السلام بسلام آمنين. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج١٣ م٩) غرة شعبان ١٣٥٢هـ- ديسمبر ١٩٣٣م.



تفسير ابن باديس

أو

مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير



من سورة المائدة

تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)



دعوة أهل الكتاب

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦].

أرسل اللَّه محمدًا ﷺ لجميع الأمم، فكانت رسالته عامة وكانت دعوته عامة مثلها، وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة في مقامات، وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة في مقامات أخرى.

ولمَّا أرسل اللَّه محمَّدًا ﷺ كان الخلق قسمين أهل كتاب - وهم اليهود والنصارى - وغيرهم.

وكان أشرف القسمين أهل الكتاب بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظ منه وتحريفهم لما حرفوا. وكانوا أولى القسمين باتباع محمد ﷺ بما عرفوا قبله من الكتب والأنبياء، فلهذا وذاك كانت توجه إليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي ندائهم بيا أهل الكتاب تشريفٌ وتعظيمٌ لهم بإضافتهم للكتب، وبعثٌ لهم على قبول ما جاء به محمد ﷺ، لأنه جاء بكتاب وهم أهل الكتاب،

واحتجاجٌ عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم بمقتضى الإيمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه.

أدب واقتداء:

هذا هو أدب الإسلام في دعوة غير أهله، ليعلِّمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحدٍ أحسن ما يُدعى به، وكيف ننتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك ويفتح لك سمعه وقلبه، ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه.

وإذا كان هذا الأدب عامًا في كل تداع وتخاطب، فأحق الناس بمراعاته هم الدعاة إلى اللَّه والمبينون لدينه، سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين.

بيانه لهم حُجَّته عليهم:

كانت كتبهم مقصورةً على أحبارهم ورهبانهم، مخفيةً عندهم لا تصل إليها أيدي عامتهم، فكانوا لا يظهرون منها إلا ما يشاءون، ولا تعرف عامتهم منها إلا ما أظهروا، فجاء رسول اللَّه ﷺ - وهو أُمِّيٌّ من أمةٍ أُمِّيَّةٍ - يبين لهم بما أنزل اللَّه عليه وأوحى إليه به من آيات اللَّه وحججه وأحكامه وكلمات رسله فيما عندهم مما هو حجة عليهم مقدارًا كثيرًا، ويتجاوز عن كثير فيما عندهم من ذكر قبائح أسلافهم وذمهم، وما لقي رسل اللَّه عليهم الصلاة والسلام من عنتهم وشرهم وأذاهم.

فكان هذا البيان العليم وهذا الخلق الكريم من هذا النبي الأُمِّيِّ كافيًا أن يعرفهم بنبوته وصدق دعوته ونهوض حجته، ولهذا ذكر اللَّه هذا البيان وهذا التجاوز في أول صفاته لما أخبرهم بمجيئه إليهم بقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا

مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

تمثيل:

وفي أول الإصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة، فأبطل أحبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص، فبينه لهم النبي ﷺ، والقصة مشهورة في كتب السنن[٢٩].

جاءت صفات النبي ﷺ التي لا تنطبق على غيره فكتموها، مثل قول

---

[٢٩] صحيح:

رواه مالك (٤/ ١٣٥-١٣٦/ ١٥٩٢) ومن طريقه البخاري (٣٦٣٥و٦٨٤١) ومسلم (١٦٩٩) (٢٧) وأبو داود (٤٤٣٤) عن نافع عن عبد اللَّه بن عمر أنه قال:

جاءت اليهود إلى رسول اللَّه ﷺ فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرَّجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون! فقال عبد اللَّه بن سلام: كذبتم، إن فيها آية الرَّجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرَّجم ثم قرأ ما قبلها وما بعدها.

فقال له عبد اللَّه بن سلام: ارفع يدك! فرفع يده فإذا فيها آية الرَّجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرَّجم، فأمر بهما رسول اللَّه ﷺ فَرُجِما.

فقال عبد اللَّه بن عمر:

فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة.

وأخرجه مختصرًا من طريق مالك: الترمذي (١٤٤٠) وأحمد (٢/ ٧و٦٣و٧٦) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وتابع مالكًا: أيوب عند البخاري (٧٥٤٣) ومسلم (١٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٧٢١٣و٧٢١٤) وأحمد (٢/ ٥).

وعُبيد اللَّه عند مسلم (١٦٩٩) (٢٦).

وموسى بن عقبة عند البخاري (١٣٢٩و٤٥٥٦و٧٣٣٢) مطولًا ومختصرًا، ومسلم (١٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٧٢١٥).

وتابع نافعًا: عبد اللَّه بن دينار عند البخاري (٦٨١٩).

وللحديث شاهد عن البراء بن عازب ﵁: أخرجه مسلم (١٧٠٠) وأبو داود (٤٤٣٥) و (٤٤٣٦) والنسائي في «الكبرى» (٧٢١٨).

عيسى - عليه الصلاة والسلام - في الفقرة الثانية عشرة وما بعدها في الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا :

«إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم».

صرح عيسى - عليه الصلاة والسلام - بأن اللَّه هو الإله وحده، وأن عيسى رسوله، فكتموها، وقالوا فيه ما قالوا .

جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا قول عيسى - عليه الصلاة والسلام - :

«وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».

وأمثال هذا فيما عندهم كثير .

أدب واقتداء:

على الداعي إلى اللَّه والمناظر في العلم أن يقصد إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه، فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب - ولو كانت هنالك عيوب ومثالب - اقتداء بهذا الأدب القرآني النبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير .

وفي ذكر العيوب والمثالب خروجٌ عن القصد، وبُعدٌ عن الأدب، وتعدٍّ

على[1] الخصم وإبعاد له، وتنفير عن الاستماع والقبول، وهما المقصود من الدعوة والمناظرة.

نعمة الإظهار والبيان بالرسول والقرآن:

لقد كان الناس - أهل الكتاب وغيرهم - قبل بعثة النبي ﷺ في ظلام من الجهل باللَّه وبأنبيائه وبشرعه، ومن الجهل بآيات اللَّه في أنفسهم وفي الكون، ومن الجهل بنعم اللَّه عليهم[2] في أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال، وفي العالم المسخر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الإنسانية وكرامتها وحريتها.

فلما بعث اللَّه محمدًا ﷺ كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفًا للخلق بما كانوا يجهلون، فكان نورًا سطع في ذلك الظلام الحالك فبدَّده عن البصائر.

وكما أن النور الكوني يجلو الموجودات الكونية للأبصار، فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الروحي الرباني يجلو تلك الحقائق للبصائر.

وكما أن النور الكوني يظهر الموجودات الكونية فلا يحرم منها إلا معدوم البصر.

فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الرباني مجليًا للحقائق للبشرية كلها، ولا يحرم من إدراكها إلا مطموسو البصائر الذين زاغوا فأزاغ اللَّه قلوبهم.

وكما كان محمد ﷺ نورًا تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعةُ الكاشفةُ للحقائق - كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزله اللَّه عليه يبين بسوره

(١) في الأصل: «عن».

(٢) في الأصل: «عليه».

وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان.

فبمحمد ﷺ وكتابه تمت نعمة اللَّه تعالى على[١] البشرية كلها بإظهار وبيان كل ما تحتاج إلى إظهاره وبيانه.

ولما دعا اللَّه إلى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخلقية من بيانه وتجاوزه، ذكَّر بهذه النعمة العظمى في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

محمد ﷺ والقرآن، نور وبيان:

في هذه الآية وصف محمد ﷺ بأنه نور، ووصف القرآن بأنه مبين.

وفي آيات أخرى وصف القرآن بأنه نور كقوله: ﴿فآمنوا باللَّه ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ [التغابن: الآية ٨]. ووصف الرسول بأنه مبين بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٤٤].

وهذا ليبين لنا اللَّهُ تعالى أن إظهار النبي ﷺ وبيانه وإظهار القرآن وبيانه واحدٌ.

ولقد صدقت عائشةُ رضي الله عنها لما سُئلت عن خُلُق النبي ﷺ، فقالت[٢]: «كان خلقه القرآن»[٣٠].

---

(١) في الأصل: «عن».

(٢) ذكره القاضي عياض في «الشفا» وابن سعد في «الطبقات». [المصنِّف].

[٣٠] صحيح:

تقدم تخريجه برقم (١).

ومنه تعلم ما في تخريج المصنف من قصور! واللَّه ولي التوفيق.

استفادة:

نستفيد من هذا :

أولًا : أن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان، ولهذا يُرَدُّ خبر الواحد إذا خالف القطعي من القرآن[1].

وثانيًا : أن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف على فقه القرآن، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما .

اقتداء:

هذا نبينا ﷺ نور وبيان، وهذا كتابنا نور وبيان، فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا النور وهذا البيان، فهو على ما يسر له من العلم - ولو ضئيلًا - يبيِّنه وينشره، يعرِّف به الجاهل، ويرشد به الضال، وهو بذلك

---

(١) فيه نظر من وجهين :
الأوّل: أنّ خبرَ الواحد الثابت -الصحيح والحسن- حُجَّةٌ في العقائد والأحكام، في القطعيات والظنيات، والتفريق بينهما بدعة اعتزالية -وهو مذهب بعض المتكلِّمين- لم يعرفها السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية على لسان خير البرية ﷺ، كما حققه العلّامة ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٣/ ٧١١ وما بعدها -من مختصره).
الوجه الآخر: أنّ هذا قائمٌ - عند القائلين به- على أن خبر الواحد لا يفيد إلَّا الظن الراجح، ولا يفيد اليقين والعلم القاطع!
وهذا ليس مسلّمًا على إطلاقه، فإن خبر الواحد يفيد العلم واليقين في كثير من الأحيان، من ذلك الأحاديث التي تلقّتها الأمة بالقبول، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» مما لم ينتقد عليهما فإنه مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري حاصل به، كما جزم به الإمام ابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث»، ونصره الحافظ ابن كثير في «مختصره»، وقبله شيخ الإسلام ابن تيمية وتبعه تلميذه العلّامة ابن القيِّم كما في كتابه المتقدم، واختاره الحافظ ابن حجر والشوكاني وصديق حسن خان والشنقيطي والألباني وغيرهم.

وبعمله الصالح كالنور يشعُّ على من حوله، وتتسع دائرة إشعاعه، وتضيق بحسب ما عنده من علم وعمل.

فعلى المسلم أن يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه وليضرع إلى اللَّه دائمًا في دعواته أن يمده بنوره، وليدْعُ بدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به في ذلك وهو[1]:

«اللَّهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا»[٣١].

الهداية ونوعاها:

قد دل اللَّه الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، وهذه هي هداية الدلالة، وهي من فضل اللَّه العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار، قامت حجة اللَّه على العباد.

ثم يسر من شاء - وهو الحكيم العدل - إلى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق، وهي من فضل اللَّه الخاص بمن

---

(١) البخاري ومسلم وغيرهما. [المصنِّف].

[٣١] صحيح:

رواه البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

بِتُّ عند ميمونة، فقام النبي ﷺ فأتى حاجته فغسل وجهه ويديه ثم نام، ثم قام فأتى القربة فأطلق شناقها، ثم توضأ وضوءًا بين وضوءين لم يكثر وقد أبلغ، فصلى فقمت فتمطيت كراهية أن يرى أني كنت أتقيه، فتوضأت، فقام يصلي فقمت عن يساره فأخذ بأذني فأدارني عن يمينه، فتتامت صلاته ثلاث عشرة ركعة ثم اضطجع فنام حتى نفخ - وكان إذا نام نفخ - فآذنه بلال بالصلاة، فصلى ولم يتوضأ، وكان يقول في دعائه: «اللَّهم اجعل في قلبي نورًا..» فذكره.

قبلوا دلالته وأقبلوا على ما أتاهم من عنده فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل معه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٧].

أما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: الآية ٥].

فالمقبلون على اللَّه، القابلون لما أتاهم من عنده، هدوا دلالةً وتوفيقًا، والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم.

بماذا تكون الهداية؟

كما أنعم اللَّه على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك أنعم عليهم فبيَّن لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون، إذ من طلب الهدى في غير ما جعله اللَّه سبب الهدى كان على ضلال مبين.

فلذا بين تعالى أن هدايته لخلقه إنما تكون برسوله وكتابه فيتمسك بها من يريد الهدى، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال.

ولما كانا في حكم شيء واحد في الهداية يصدِّق كلٌّ واحد منهما الآخر، جاء بالضمير مفردًا في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾.

لمن تكون الهداية؟

أما هداية الدلالة والإرشاد وحدها فهي - كما تقدم - عامة.

وأما هداية الدلالة والإرشاد مع التوفيق والتسديد فهي للذين اتبعوا ما

جاءهم من عند اللَّه من رسوله وكتابه، وكانوا باتباعهم لهما متبعين لرضوانه المقتضي لقبوله ومثوبته وكرامته لهم، ولم يتبعوا أهواءهم ومألوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا أهواء الناس ورضاهم، فكان اتباعهم لرضوان اللَّه سببًا في دوام إرشادهم وتوفيقهم، وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم يكون ازدياد توفيقهم، إذ قوة السبب تقتضي قوة المسبب، والخير يهدي إلى الخير، والهدى يزداد بالاهتداء.

وهذا الربط الشرعي بين التوفيق والاتباع يقتضي الربط بين ضديهما: الإعراض والخذلان، وأنه بقدر ما يكون الإعراض عن الهدى يكون الخذلان والحرمان، والشر يدعو بعضه إلى بعض، والسيئة تجر إلى السيئة.

وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع وجعل التوفيق مسببًا عنه - بما في صلة الموصول من التعليل - قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

إلى ماذا تكون الهداية؟

فشؤون الشخص في نفسه، وشؤونه فيما بينه وبين أهله، وفيما بينه وبين بنيه، وفيما بينه وبين أقاربه، وفيما بينه وبين جيرانه، وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها، وشؤون الجماعات وشؤون الأمم فيما بينها، كل هذه الشؤون سبل وطرق في الحياة تُسلَك ويُسار عليها للبلوغ إلى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجموع.

وكلها إن سُلكت بعلم وحكمة وعدل وإحسان كانت سبلَ سلامةٍ ونجاةٍ، وإلا كانت سبلَ هلاكٍ، فيحتاج العبد فيها إلى إرشاد وتوفيق من اللَّه تعالى.

وقد منَّ اللَّه بفضله على العباد بهذا النبي الكريم والكتاب العظيم، فمن

آمن بهما واتبعهما ففيهما ما يهديه إلى كل ما يحتاج إليه في كلِّ سبيل من تلك السبل في الحياة، باتباعهما - واتباعهما اتباع لرضوان اللَّه - يوفقه اللَّه ويسدده في سلوك تلك السبل - الفردية والجماعية والأممية - إلى ما يفضي به إلى السلامة والنجاة.

وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام، أي سلامة ونجاة، لأنها أفضت به بإرشاد اللَّه وتوفيقه جزاء لاتباعه وتصديقه إليها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

الإخراج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان:

تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيرًا مرتبكًا كمن يكون في ظلام، منها حالة الكفر والإنكار، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذي ينتهي إليه.

ومنها حالة الشك، ومنها حالة اعتراض الشبهات، ومنها حالة ثوران الشهوات.

وكما أن اللَّه يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول ﷺ والقرآن، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات وما فيها من حيرة وعماية إلى الحالة التي تطمئن فيها القلوب كما تطمئن في النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام، فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالإيمان واليقين، فتضمحل أمامها الشبهات، وتكسر سلطان الشهوات.

فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التي يكون فيها من أعرض عنهما أو

خالفهما يخرج منها إلى الحالة النورانية الوحيدة، وهي حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

على العبد أن يقبل ما فيه كماله وسعادته ومرضاة خالقه مما هداه اللَّه إليه برسوله وكتابه، وجعل قبوله له سببًا في توفيقه وإخراجه من الظلمات إلى النور، وعليه أن يعتقد أنه لا ينال شيئًا من التوفيق وحظًا من النور إلا بإذن اللَّه، أي إرادته وتيسيره، فلا يعتمد على نفسه ولا على أعماله، وإنما يكون اعتماده على اللَّه، فيحمله ذلك على الاجتهاد في العمل، وعدم العجب به، ودوام التوجه إلى اللَّه، وصدق الرجاء فيه، والخوف من عقابه، ودوام المراقبة له.

ولأجل لزوم هذا الاعتماد على اللَّه الميسر للأسباب الذي لا يكون في ملكه إلا ما أراد قرن قوله: ﴿يَهْدِى﴾ ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

الإسلام هو السبيل الجامع العام:

ما جاء به النبي ﷺ، والقرآن العظيم هو دين اللَّه الإسلام.

فكل ما دل اللَّه عليه الخلق بهما، وما وفق إليه من العلم والعمل باتباعهما فهو من الإسلام.

ولهذا لما ذكر تعالى إرشاده وتوفيقه للذين اتبعوا رضوانه وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ذكر إرشاده وتوفيقه لهم إلى الطريق المستوي الموصل إلى الكمال والسعادة ومرضاة اللَّه، الجامع لذلك كله، بقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الرجوع إلى كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه - لازم دائم:

إن الحاجة إلى إرشاد اللَّه وتوفيقه دائمة متجددة، فكل عمل من أعمال الإنسان، وكل حال من أحواله، هو محتاج فيه إلى هداية اللَّه ودلالته ليعرف ما يرضاه اللَّه منه ممَّا لا يرضاه، وهو محتاج فيه إلى توفيق اللَّه وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه وشرعه له ودلَّه عليه.

ولن يزال العبد - غير المعصومين عليهم الصلاة والسلام - تغشاه ظلمات الشبهات والشهوات، فيحتاج إلى دلالة اللَّه وتوفيقه، ليخرج منها إلى نور الإيمان والاستقامة.

فالعبد محتاج دائمًا إلى الرجوع إلى كتاب اللَّه وما ثبت من سنة نبيه ﷺ ليهتدي إلى ما يرضي اللَّه مما شرعه له من أحواله وأفعاله، وإلى ما يدفع عنه شبهاته وينقذه من شهواته، ومحتاج إلى التوسل بذلك الرجوع إليهما وذلك الاتباع لهما إلى اللَّه، ليفتح له أبواب المعرفة، ويمد له أسباب التوفيق.

وهذا هو القصد من صيغة المضارع المفيدة للتجدد في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى﴾ و﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ و﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

جعلنا اللَّه من المتبعين لرضوانه، الرجَّاعين لكتابه وسنة رسوله، الفائزين منهما بالهداية، لخير غاية، بإذنه وفضله، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣ م١١) ربيع الأول ١٣٥٤هـ- جوان ١٩٣٥م.

من سورة يوسف

تفسير الآية (١٠٨)



سبيل السعادة والنجاة

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨] .

خلق اللَّه محمدًا ﷺ أكمل الناس، وجعله قدوتهم، وفرض عليهم اتباعه والائتساء به، فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب، ولا وصول لهم إلى السعادة في دنياهم وأُخراهم، ومغفرة خالقهم ورضوانه، إلا باقتفاء آثاره والسير في سبيله.

فلهذا أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يبين سبيله بيانًا عامًا للناس لتتضح المحجة للمهتدين، وتقوم الحجة على الهالكين، أمره أن يبينها البيان الذي يصيرها مشاهدةً بالعيان، ويشير إليها كما يشار إلى سائر المشاهدات، فقال له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ .

ثم بين سبيله بثلاثة أشياء: الدعوة إلى اللَّه على بصيرة، وتنزيه اللَّه تعالى، والبراءة من المشركين، فقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

الدعوة إلى اللَّه:

فالنبي ﷺ من يوم بعثه اللَّه إلى آخر لحظة من حياته، كان يدعو الناس كلهم إلى اللَّه بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهده.

وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة جلية لا خفاء بها، كما قال ﷺ[١]: «**وَأَيْمُ اللَّهِ لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء**»[٣٢] فكانت مشاهدة معينة[٢] كما أشير إليها في الآية إشارة المعين[٣] المشاهد.

كان يدعو إلى دين اللَّه، ويبين هو ذلك الدين ويمثله.

يدعو إلى عبادة اللَّه وتوحيده وطاعته، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة.

فكان ﷺ كله دعوة إلى اللَّه، فما دعا إلى نفسه، فقد مات ودرعه مرهونة

---

(١) رواه ابن ماجه من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه بسند موثق، وفيه ابن سُميع، قال فيه ابن عدي: «حسن الحديث». [المصنف].

[٣٢] صحيح:

جملة من حديث رواه ابن ماجه (٥) عن أبي الدرداء قال:

خرج علينا رسول اللَّه ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال:

«آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا حتى لا يزيغ قلبُ أحدكم إزاغةً إلَّا هِيَهْ، وأيم اللَّه . . . .» (فذكره).

قال أبو الدرداء: صدق - واللَّه - رسول اللَّه ﷺ، تركنا - واللَّه - على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.

وإسناده حسن، كما أشار إليه المصنف «فإن في بعض رجاله - وهما هشام بن عمار وابن سميع، كلامًا لا ينزل حديثهما عن رتبة الاحتجاج به.

ومن هذا الوجه رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧) أيضًا.

والجملة التي ساقها المصنف صحيحة، لأن لها شاهدًا عن العرباض بن سارية: أخرجه ابن ماجه (٤٣) وأحمد (٤/ ١٢٦) والحاكم (١/ ٩٦)، وصححه جمع من أئمة الحديث وحفاظه سيأتي ذكرهم - إن شاء اللَّه - في التخريج رقم (٣٩).

(٢) كذا الأصل، والصواب: مُعاينة.

(٣) كذا الأصل، والصواب: المُعاين.

في دَين[٣٣]، وما دعا إلى قومه فقد كان يقول: «**لا فضل لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى اللَّه**»[٣٤].

كان يدعو الناس كلهم، إذ هو رسول اللَّه، إلى الناس كلهم، فكتب الكتب وأرسل الرسل، فبلغت دعوته إلى الأمم وملوك الأمم.

كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين، يدعو أولائك إلى الدخول في دين اللَّه، ويدعو هؤلاء إلى القيام بدين اللَّه، فلم ينقطع يومًا عن الإنذار والتبشير، والوعظ والتذكير.

كان يدعو إلى اللَّه على بينةٍ وحجةٍ يحصل بها الإدراك التام للعقل حتى يصير الأمر المدرك واضحًا لديه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر، فهو على بينةٍ

---

[٣٣] صحيح:

رواه البخاري (٢٩١٦و٤٤٦٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول اللَّه ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير».

وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد (١/ ٣٦١) وغيره وإسناده صحيح، وآخر عن أسماء بنت يزيد رواه أحمد (٦/ ٤٥٣) مختصرًا. وفي إسناده شهر بن حوشب!

[٣٤] صحيح:

قطعة من حديث رواه أحمد (٥/ ٤١١) عن أبي نضرة حدثني من سمع خُطبة رسول اللَّه ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى... الحديث».

وإسناده صحيح كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤١٢) وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٦٦).

«ورجاله رجال الصحيح».

وله شاهد عن أبي ذر رواه أحمد (٥/ ١٥٨) «ورواته ثقات إلا أن بكر بن عبد اللَّه المزني لم يسمع من أبي ذر» كما قال المنذري في «الترغيب» والهيثمي في «المجمع» (٨/ ٨٤).

ويقينٍ من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى اللَّه، في حياته كلها وفي جميع أحواله.

وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان مشتملة على الحجة والبرهان، فكان يستشهد بالعقل، ويعتضد بالعلم، ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام اللَّه في الأمم الخالية، وما استفاض من أخبارها، وبقي من آثارها من أنباء الأولين، وما يمر الناس عليه مصبحين وبالليل.

على كل مسلم أن يكون داعيًا إلى اللَّه:

لقد كان في بيان أن الدعوة إلى اللَّه هي سبيل محمد ﷺ ما يفيد أن على أتباعه - وهو قدوتهم، ولهم فيه الأسوة الحسنة - أن تكون الدعوة إلى اللَّه سبيلهم، ولكن لتأكيد هذا عليهم، وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه، وأن اتباعهم له لا يتم إلا به - جاء التصريح بذلك هكذا: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

فالمسلمون، أفرادًا وجماعات، عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى اللَّه، وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وإيمان ويقين، وأن تكون دعوتهم وفقًا لدعوته وتبعًا لها.

[ماهية الدعوة][1]:

فمن الدعوة إلى اللَّه دروس العلوم كلها مما يفقه في دين اللَّه، ويعرف بعظمة اللَّه وآثار قدرته، ويدل على رحمة اللَّه وأنواع نعمته.

---

(١) زيادة للتوضيح ثابتة في بعض النشرات، ولم ترد في الأصل.

فالفقيه الذي يبين حكم اللّه وحكمته داع إلى اللّه، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داعٍ إلى اللّه، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل.

ومن الدعوة إلى اللّه بيان حجج الإسلام، ودفع الشُّبَه عنه، ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه، وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

ومن الدعوة إلى اللّه مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم فيه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم، وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه هي سبب كل شقاوة وشر لحقهم، وبيان أنه ما من سبب مما تسعد به البشرية - أفرادها وأممها - إلا بينه لهم ودعاهم إليه، وما من سبب مما تشقى به البشرية - أفرادها وأممها - إلا بينه لهم ونهاهم عنه، وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم، وبقاياه الباقية لديهم، ومظاهره القائمة بهم، لما بقيت لهم - وهم المجردون من كل قوة - بقية، ولتلاشت أشلاؤهم - وهم الأموات - في الأمم الحية.

ومن الدعوة إلى اللّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة فيجب باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، وهو أضعف الإيمان[1]، وأقل الأعمال في هذا المقام.

---

(١) كما في الحديث الصحيح: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».
أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومن الدعوة إلى اللَّه ظهور المسلمين - أفرادًا وجماعاتٍ - بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة، وعلم وعمل، وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغب للأجانب في الإسلام، كما كان ضده أعظم منفِّر لهم عنه، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول، وما زالت الأعمال عيارًا على الأقوال.

ومن الدعوة إلى اللَّه بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة، ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم.

كل هذا من الدعوة إلى اللَّه، ثابتة أصوله في سنة النبي ﷺ وسنَّة السلف الصالح من بعده.

فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه في كل وجه من وجوهه، وليعلم أن الدعوة إلى اللَّه على بصيرة هي سبيل نبيه ﷺ وسبيل إخوانه الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من قبله، فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف مقام خلافة النبوة شيئًا من حظه.

وإذا كان هذا المقام ثابتًا لكل مسلم ومسلمة، وحقًّا القيام به - بقدر الاستطاعة - على كل مسلم ومسلمة - فأهل العلم به أولى وهو عليهم أحق، وهم المسؤولون عنه قبل جميع الناس.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم إلا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب عليهم. وإذا عادوا إلى القيام به - وقد عادوا والحمد للَّه - أوشك - إن شاء اللَّه - أن ينجلي عن المسلمين مصابهم.

تفرقة:

ليس كل من زعم أنه يدعو إلى اللَّه يكون صادقًا في دعواه، فلابد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين، والفرق بينهما مستفاد من الآية بوجهين:

الأول: أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، ولا يجلب لها جاهًا ولا مالًا، ولا يبغي لها من الناس مدحًا ولا رفعةً.

أما الكاذب فإنه بخلافه فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله.

وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الثاني: أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان، فلا تجد في كلامه كذبًا ولا تلبيسًا ولا ادعاءً مجردًا، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواءٍ ولا تناقضٍ ولا اضطرابٍ.

وأما الكاذب فإنه بخلافه، فإنه يلقي دعاويه مجردة، ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه يده، ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده إلا بعدًا عن الصراط المستقيم.

وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

مباحث لفظية:

«على بصيرة»: يتعلق بأدعو، واختيرت (على) لتدل على تمام التمكن.

«أنا»: تأكيد للضمير المستتر في (أدعو). ونكتته الإعلان بنفسه في مقام الدعوة، وشأن الداعي على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ الدال على أتباعه كما تتصل دعوتهم بدعوته، وشأن

الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية، والكلام تصوير للواقع.

«مَن»: تفيد العموم لكل تابع، وأكملهم في الاتباع أكملهم في الدعوة، لأن الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متبعون.

تنزيه اللَّه تعالى:

الاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة، ويكاد لا تكون لمنكريه - عنادًا - نسبة عددية بين البشر.

ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لا يجوز عليه ولا يليق بجلاله: من الصاحبة، والولد، والمادة، والصورة، والحلول، والشريك في التصرف في الكون، والشريك في التوجه والضراعة إليه، والسؤال منه والاتكال عليه.

فأرسل اللَّه الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله. وكان من سبيل محمد ﷺ أنه يدعو الخلق إلى اللَّه، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

فهو يدعوهم إلى اللَّه الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم، لا يسمِّيه إلا بما سمَّى به نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وهذا التنزيه - وإن كان داخلًا في الدعوة إلى اللَّه - فإنه خصص بالذكر لعظم شأنه فإنه ما عرف اللَّه من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية، فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها تنزيه اللَّه تعالى عن الشبيه والشريك وكل ما لا يليق.

والمسلمون المتبعون لنبيهم ﷺ في الدعوة إلى اللَّه على بصيرة، متبعون له في هذا التنزيه عقدًا وقولًا وعملًا وإعلانًا ودعوةً.

مباحث لفظية:

«سبحان»: منصوب بفعل محذوف تقديره أسبِّح، أي أنزِّه، والجملة معطوفة على جملة (أدعو)، فهي من بيان القبيل.

البراءة من المشركين:

الأمة التي بعث منها النبي ﷺ، وهي أول أمة دعاها إلى اللَّه، هي الأمة العربية، وهي أمة كانت مشركة تعرف أن اللَّه خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها، تزعم أنها تقربها إلى اللَّه وتتوسط لها لديه.

فكان النبي ﷺ كما يدعو إلى اللَّه وينزهه، يعلن ببراءته من المشركين، وأنه ليس منهم، براءة من عقيدتهم وأقوال وأعمال شركهم، فهو مباين لهم في العقد والقول والعمل مباينة الضد للضدِّ، فكما باين التوحيد الشرك، باين هو المشركين، وذلك معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذه البراءة والمباينة، وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى اللَّه وينزهه، فإنها نص عليها بالتصريح لتأكيد أمر مباينة المشركين (والبعد عن الشرك بجميع

وجوهه وصوره: جليه وخفيه) في جميع مظاهر شركهم حتى في صورة القول، كـ(ما شاء اللَّه وشاء فلان)، فلا يقال هكذا، ويقال: ثم شاء فلان كما جاء في حديث[٣٥] بيناه في جزء من الأجزاء الماضية(١) أو في صورة الفعل، كأن يسوق بقرة أو شاة مثلًا إلى ضريح من الأضرحة ليذبحها عنده، فإنه ضلال(٢) كما قاله (الشيخ الدردير في باب النذر)(٣)، فضلًا عن عقائدهم، كاعتقاد أن هنالك ديوانًا من عباد اللَّه يتصرف في ملك اللَّه، وأن المذنب لا يدعو اللَّه، وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو له اللَّه.

لتأكيد أمر المباينة للمشركين في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره: جليه وخفيه.

والمباينة والتبري لازمة من كل كفر وضلال، وذلك مستفاد من الدعوة إلى اللَّه وتنزيهه، وإنما خصص المشركين لما تقدم، ولأن الشرك هو شر الكفر وأقبحه.

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة في الدعوة إلى اللَّه وتنزيهه،

---

[٣٥] صحيح:

أخرجه أبو داود (٤٩٧٠) وغيره عن حذيفة مرفوعًا:

«لا تقولوا ما شاء اللَّه وشاء فلان ولكن قولوا: ما شاء اللَّه ثم شاء فلان».

وصححه النووي وغيره ممن ذكرناهم في تخريج «رسالة الشرك ومظاهره» (٣٢) لتلميذ المصنف: الشيخ مبارك الميلي رحمه الله.

(١) انظر مجلة «الشهاب» (ج٦ م٨) (ص ٣٠٦- ٣١١) الصادر غرة صفر ١٣٥١هـ- جوان ١٩٣٢م.

(٢) انظر تفصيل هذا الإجمال في رسالة «الشرك ومظاهره» (ص ٣٦٥- ٣٩١) لتلميذ المصنف الشيخ مبارك الميلي رحمه الله - بتحقيقي.

(٣) «الشرح الكبير» للدردير بحاشية الدسوقي (٢/ ٤٧١).

فالمسلمون المتبعون لنبيهم ﷺ كما يدعون إلى اللَّه على بصيرة وينزهونه، يباينون المشركين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم، ويطرحون الشرك بجميع وجوهه، ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين. والحمد للَّه رب العالمين[١].

* * *

(١) الشهاب: (ج١ م١١) محرم ١٣٥٤هـ- أفريل ١٩٣٥م.



من سورة النحل

تفسير الآية (١٢٥)



كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها؟

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥].

سبيل الرب جل جلاله:

شرع الله لعباده بما أنزل من كتابه وما كان من بيان رسوله ما فيه استنارة عقولهم وزكاء نفوسهم واستقامة أعمالهم، وسماه سبيلًا ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة ليفضي بهم إلى الغاية المقصودة، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى. وأضافه إلى نفسه ليعلموا أنه هو وضعه، وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه.

وذكر من أسمائه الرب ليعلموا أن الرب الذي خلقهم وطورهم ولطف بهم في جميع أطوار خلقهم ومراحل تكوينهم، هو الذي وضع لهم هذه السبيل، لطفًا منه بهم وإحسانًا إليهم، لينهجوها في مراحل حياتهم.

فكما كان رحيمًا بهم في خلقه كان رحيمًا بهم في شرعه، فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها، ومع شكر له وشوق إليه.

وأمر نبيه ﷺ أن يدعو الناس أجمعين - وحذف معمول (ادع) لإفادة العموم - إلى هذه السبيل، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

اهتداء:

أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه، وهو الأمين المعصوم، فما ترك شيئًا من سبيل ربه إلا دعا إليه.

فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد ﷺ فليس من سبيل الرب جل جلاله.

فاهتدينا بهذا - وأمثاله كثير - إلى الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ودعاة اللَّه ودعاة الشيطان.

فمن دعا إلى ما دعا إليه النبي ﷺ فهو من دعاة اللَّه، يدعو إلى الحق والهدى.

ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد ﷺ فهو من دعاة الشيطان، يدعو إلى الباطل والضلال.

اقتداء:

فالمسلم المتبع للنبي ﷺ لا يألو جهدًا في الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه.

وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للسالكين، ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين.

أركان الدعوة:

أركان الدعوة أربعة:

الداعي: وهو النبي ﷺ.

والمدعو: وهم جميع الناس.

والمدعو إليه: وهو سبيل الرب ﷻ، والدعوة إلى سبيله الموصل إليه دعوة إليه، فالمدعو إليه في الحقيقة هو اللَّه تعالى.

والبيان عن الدعوة.

وتجيء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعي، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو إليه، ومنها حديث وبيان عن بيان الدعوة، وتتضمن كل آيةٍ جاءت في واحدٍ الذكر أو الإشارة للثلاثة الأخرى.

وهذه الآية الكريمة جاءت في بيان كيفية الدعوة، وبماذا تؤدَّى، وكيف يدافع عنها، مع ذكر الداعي والمدعو إليه، فقال تعالى: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الحكمة:

الحكمة هي العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن، المبني على ذلك العلم.

فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخًا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال حكمة.

والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد - حكمة.

والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة - وهي علم وعمل نفسي - حكمة.

والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع - حكمة، تسمية للدال باسم المدلول.

استدلال واستنتاج:

في سورة الإسراء ثمان عشرة آية، جمعت أصول الهداية من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] إلى ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٩].

وقد تكلمنا عليها في الجزء (٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠) من المجلد السادس[1].

وقد جمعت تلك الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة، وسمى الله ذلك كله حكمة، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: الآية ٣٩].

وقال النبي ﷺ: «**إن من الشعر حكمة**»[٣٦] وذلك لأن من الشعر ما فيه

---

(١) انظر (ص٩٤- ١٥٠) الآتية.

[٣٦] صحيح:

رواه البخاري (٦١٤٥) وأبو داود (٥٠٠٠) والدارمي (٢/ ٢٩٦-٢٩٧) وابن ماجه (٣٧٥٥) وأحمد (٣/ ٤٥٦و٥/ ١٢٥) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

وله شواهد:

١- عن ابن مسعود: رواه الترمذي (٢٨٤٩) وقال: «غريب».

٢- عن عائشة: رواه البزار (٢١٠١-٢١٠٣-الكشف) والطبراني في «الأوسط» (١٠/ ١١/ ٩٠١٧) وقال الهيثمي (٨/ ١٢٣): «رواه البزار والطبراني في «الأوسط» بأسانيد، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن حرب الموصلي وهو ثقة». =

بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم أو عمل صالح أو علم وتجربةٍ، كشعر أمية بن أبي الصلت(١) الذي قال فيه النبي ﷺ: «**كاد أن يسلم**»[٣٧]، وككلمة لبيد رضي الله عنه:

«ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل»(٢).

التي قال فيها ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر**»[٣٨](٣).

فالحكمة التي أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها هي البيان

= ٣- عن ابن عباس: رواه أبو داود (٥٠٠١) والترمذي (٢٨٥٠) وابن ماجه (٣٧٥٦) وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(١) هو أمية بن أبي الصلت ربيعة بن عوف الثقفي، أكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة، ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافرًا. والمشهور أنه مات سنة تسع للهجرة بالطائف.

انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٥٥٢) و«فتح الباري» (٧/ ١٩٣- ١٩٤) للحافظ.

[٣٧] صحيح:

رواه البخاري (٣٨٤١و٦١٤٧و٦٤٨٩) ومسلم (٢٢٥٦) وابن ماجه (٣٧٥٧) وأحمد (٢/ ٣٩٣و٤٧٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل.

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

وللجملة الأخيرة شاهد عن عمرو بن الشريد عن أبيه: أخرجه مسلم (٢٢٥٥) وابن ماجه (٣٧٥٨).

(٢) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة، وعجزه: وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ.

انظر «ديوانه» (ص٢٥٦).

[٣٨] صحيح:

تقدم في الذي قبله.

(٣) روى الثلاثة البخاري في كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر. [المصنف].

الجامع الواضح للعقائد بأدلتها، والحقائق وبراهينها، والأخلاق الكريمة بمحاسنها ومقابح أضدادها، والأعمال الصالحة - من أعمال القلب واللسان والجوارح - بمنافعها ومضار خلافها.

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه، وهكذا هو بيان القرآن لها كلها حيثما كانت من آياته.

فآيات القرآن وأحاديثه ﷺ في بيان هذه الأشياء - البيان المذكور - هما الحكمة التي كان يدعو إلى سبيل ربه بها.

وتلك الأشياء كلها هي أيضًا حكمة، وهي التي كان يعلمها كما في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩] و[آل عمران: الآية ١٦٤] و[الجمعة: الآية ٢].

فصلى اللَّه عليه وآله وسلَّم من داع إلى الحكمة ومعلم للحكمة بالحكمة.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فبها يحصل الفهم واليقين، والفقه في الدين والرغبة في العمل والدوام عليه.

وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود في فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور في العمل.

فحق على أهل الدعوة إلى اللَّه - وخصوصًا المعلِّمين - أن يقاوموا ما بيَّنا من جهل وجمود وإعراض وفتورٍ بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمحاسنها، والأعمال بمصالحها.

وقد وجد الأخذ بهذه الأساليب القرآنية - والحمد للَّه - وأخذ أثرها - بفضل اللَّه - يظهر في الناس بقدر الأخذ بها، يوشك أن تتجدد بذلك في المسلمين حياة إن شاء اللَّه.

الموعظة الحسنة:

الوعظ والموعظة: الكلام الملِّين للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب، فيحمل السامع - إذا اتعظ وقبل الوعظ وأثر فيه - على فعل ما أمر به وترك ما نُهي عنه، وقد يطلق على نفس الأمر والنهي.

الاستدلال:

ففي حديث العرباض الذي رواه الترمذي وغيره:

«وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظة وجلت (خافت) منها القلوب وذرفت (سالت) منها العيون»[٣٩].

---

[٣٩] صحيح:

أخرجه أبو داود (٤٥٩٤) والترمذي (٢٦٨١) والدارمي (١/ ٤٤-٤٥) وابن ماجه (٤٣و٤٤) وأحمد (٤/ ١٢٦) وابن حبان (١٠٢- الموارد) والحاكم (١/ ٩٥-٩٧) عن العرباض بن سارية قال:

وعظنا رسول اللَّه ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودِّع. فماذا تعهد إلينا يا رسول اللَّه؟

قال:

«أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، =

فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر في قلوبهم، فهذه حقيقة الموعظة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٦٦] أي يؤمرون به.

وقال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النُّور: الآية ١٧] أي ينهاكم.

فهذا من إطلاق الوعظ على الأمر والنهي، لأن شأن الأمر والنهي أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب.

بماذا تكون الموعظة؟:

يكون الوعظ بذكر أيام اللَّه في الأمم الخالية، وباليوم الآخر وما يتقدمه وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم إلى الجنة أو النار، وما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب أليم، وبوعد اللَّه ووعيده.

وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ، ويكون بغيرها، كتذكير الإنسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يحب أن يُعامَل به، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها، مثل قوله تعالى - وقد نهى أن يقال لمن ألقى السلَم، لست مؤمنًا - ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٤]، وقوله تعالى - وقد أمر

= وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ».

وفي رواية: «فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وصححه البزار وابن عبد البر والحاكم والضياء المقدسي وأبو نعيم والذهبي وغيرهم.

وراجع «إرواء الغليل» (٢٤٥٥) للألباني.

بالعفو والصفح -: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: الآية ٢٢].

تفريق بالتمثيل:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] هذه حكمة.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] هذه موعظة.

ويقول تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩] هذه أيضًا موعظة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النّحل: الآية ٩٤] هذه حكمة ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّحل: الآية ٩٤] هذه موعظة.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: الآية ٣٠- ٣١] هذه حكمة، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحجّ: الآية ٣١] هذه موعظة.

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة في آيات القرآن العظيم، فتتبَّعْها في جميع سوره تَجِدْها، وتدبَّرْها تَقَعْ منها على علوم جَمَّةٍ وأسرارٍ غزيرةٍ.

حسن الموعظة:

الموعظة التي تحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب، للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة، هي الموعظة الحسنة.

وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس، فعذبت في الأسماع، واستقرت في القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثارت الرغبة والرهبة وبعثت الرجاء والخوف، بلا تقنيط من رحمة اللَّه، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، وتأدت بحماس وتأثر، فتلقتها النفس من النفس، وتلقفها القلب من القلب، إلاّ نفسًا أحاطت بها الظلمة، وقلبًا عمّ عليه الرّان[1]، عافى اللَّه قلوب المؤمنين.

تطبيق واستدلال:

كل هذا تجده في مواعظ القرآن، وفيما صح من مواعظ النبي ﷺ.

وكان ﷺ - كما جاء في «الصحيح» - إذا خطب وذكر الساعة، اشتد غضبه، وعلا صوته، واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش، يقول: صبَّحكم (أغار عليكم في الصباح) مسَّاكم[٤٠] (أغار عليكم في المساء).

---

(١) أصله: الطبع والتغطية، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] أي: طبع وختم. النهاية (٢/ ٢٩١) لابن الأثير.

[٤٠] صحيح:

رواه مسلم (٨٦٧) عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما

وسنسوقه بتمامه في التخريج رقم (١٨٠) إن شاء اللَّه تعالى.

وكان يقصر خطبه في بلاغة وإيجاز.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها إلى أنَّ من الموعظة ما هو حسن، وهو الذي تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب.

وبينت مواعظ القرآن ومواعظ النبيِّ ﷺ ذلك الحسن.

فعلينا أن نلتزمه لأنه هو الذي تبلغ به الموعظة غايتها، وتثمر بإذن اللَّه ثمرتها، وعلينا أن نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة كتعقيد ألفاظها، أو يقلبها إلى ضدّ المقصود منها، كذكر الآثار الواهية التي فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال.

تحذير:

أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة مسجعة طويلة من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيءٌ من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تُلقى بترنُّم وتلحينٍ، أو غمغمةٍ[1] وتمطيطٍ، ثم كثيرًا ما تُختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية سدَّ بها أهلها بابًا عظيمًا من الخير فتحه الإسلام، وعطَّلوا بها الوعظ والإرشاد، وهو ركن عظيم من أركان الإسلام.

---

(١) الترنُّم: التطريب والتغني.
والغمغمة: كلام غير بيِّن.

فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفتَ خطيبًا في الناس، وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون.

ورحم اللَّه أبا الحسن - كرم اللَّه وجهه - فقد قال(١): «الفقيه، كل الفقيه، كل الفقيه: من لم يقنِّط الناس من رحمة اللَّه، ولم يؤمنهم من مكره، ولم يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنه إلى ما سواه»[٤١].

الجدال بالتي هي أحسن:

لا بد أن يجد داعيةُ الحقِّ معارضةً من دعاة الباطل، وأن يلقى منهم مشاغبةً بالشُّبه، واستطالةً بالأذى والسفاهة، فيضطر إلى رد باطلهم، وإبطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذي أُمر به نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾.

ولما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة يموِّهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها، ويهربون إليها - لما كان هذا شأنهم أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

---

(١) أخرجه رزين. ذكر في «تيسير الوصول». [المصنف].

[٤١] حسن:

له طرق عن علي يقوي بعضها بعضًا، خرجتها في تحقيقي لِ«رسالة الشرك ومظاهره» (٢٣٩).

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها في لفظها ومعناها ومظهرها وتأثيرها وإفضائها للمقصود، من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه وسوء قصده.

وهذه هي الطريقة التي أمر اللَّه نبيه ﷺ بالجدال بها في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى الطريقة المحمودة المشروعة في الجدال، وفي آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام.

فإنه كما لم يترك القرآن عقيدةً من عقائد الإسلام إلَّا بينها وأوضح دليلها، ولا أصلًا من أصول أحكامه أو أصول آدابه إلَّا بينه، واحتج له، وذكر حكمته وثمرته، كذلك لم يترك شُبهة من شُبه الباطل إلَّا ردها بالطريقة الحسنة التي أمر بها، وجاءت السنة النبوية الكريمة والسيرة المحمدية الشريفة مطبقة لذلك ومنفذة له.

فالكتاب والسنة فيهما البيان الكافي الشافي للجدال بالتي هي أحسن، كما فيهما البيان الشافي الكافي للحكمة والموعظة الحسنة.

فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد في تتبعه وأخذه واستنباطه منهما، وندأب على العمل بما نجده والتحلي به والالتزام له من هذه الأصول الثلاثة في الدعوة والدفاع عنها.

أحكام وتنزيل:

أمر اللَّه بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور، فكلاهما واجب على المسلمين أن يقوموا به، فكما يجب لسبيل الرب ﷻ أن تعرف بالبيان بالحكمة، وأن تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة، كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتي هي أحسن، إذ لا قيام لشيء من الحق إلا بهذه الثلاث.

غير أن الدعوة بوجهيها والجدال ليستا في منزلة واحدة في القصد والدوام، فإن المقصود بالذات هو الدعوة، أما الجدال فإنه غير مقصود بالذات، وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصاد بالباطل عن سبيل اللَّه.

فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه، ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على كل حال، وكان الجدال مذمومًا في بعض الأحوال، وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذ شاغلًا عن الدعوة ومؤديًا - في الأكثر - إلى الفساد والفتنة. فإذا كان جدالًا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله، وأشد شرًا منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: الآية ٣٥] ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: الآية ٥٦]، وقوله ﷺ: «**ما ضل قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»[1]. ثم

---

(١) الترمذي وصححه. [المصنِّف].

تلا : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٨]»[٤٢].

تحذير:

المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيءٍ جدلًا، غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه وتقوّم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خُلُقُ المدافعةِ والمغالبةِ فنذهب في الجدل شر مذاهبه وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خُلُقًا؛ أصبح يندفع معها في كل شيء ولأدنى شيء لا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان، وهذا هو الذي قال فيه النبي ﷺ(١): «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد (الشديد الخصومة) الخصم**[٤٣] (الكثير الخصومات)».

---

[٤٢] حسن:

رواه الترمذي (٣٢٦٦) عن محمد بن بشر ويعلى بن عُبيد، وابن ماجه (٤٨) عن محمد بن فضيل ومحمد بن بشر، وأحمد (٥/ ٢٥٢) عن شهاب بن خراش و(٥/ ٢٥٦) عن ابن نمير ويعلى، والحاكم (٢/ ٤٤٧-٤٤٨) عن جعفر بن عون: ستتهم قالوا: عن حجاج بن دينار عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعًا.

وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات غير أبي غالب واسمه حَزَوَّر، فإن حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن، وفي «التقريب» قال الحافظ: «صدوق يخطئ».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» !

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي !.

(١) الصحيحان. [المصنِّف].

[٤٣] صحيح:

رواه البخاري (٢٤٥٧و٤٥٢٣و٧١٨٨) ومسلم (٢٦٦٨) والترمذي (٢٩٨٢) والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٤٧-٢٤٨) وفي «الكبرى» (٥٩٨٧) وأحمد (٦/ ٥٥و٦٣و٢٠٥) عن عائشة.

وقال الترمذي: «حديث حسن».

ومن ضبط نفسه وراقب ربه لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق وبالتي هي أحسن.

علينا الدعوة والجدال، وإلى اللَّه الهدى والضلال والمجازاة على الأعمال:

الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة، والجدال على وجهه عام مثلها، ثم يكون حظ كل واحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه من أمر ربه، وتكون مجازاته على ذلك للخالق الذي هو العالم بمن خرج عن طريقه وأعرض عن هداه، وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا في سبيله.

والعدل الحقيقي التام في الجزاء إنما يكون ممن يعلم السر والعلن، وليس ذلك إلا للَّه فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه.

ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ثمرة:

ثمرة العلم بهذا أن الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى اللَّه، وإنما عليه البلاغ، وأنه يصبر على ما يلقى من إعراض وعناد وكيد وأذى دون أن يجازي بالمثل أو يفتر في دعوة من أذاه، لعلمه بأن الذي يجازي إنما هو اللَّه.

جعلنا اللَّه والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر، الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر، ومن جحد وكفر، غير منتظرين إلا جزاءه، ولا متكلين إلا عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل[1].

---

(١) الشهاب: (ج٢ م١١) صفر ١٣٥٤هـ- ماي ١٩٣٥م.

من سورة الإسراء

تفسير الآيات (١٢ و١٨ و٢٠ - ٣٩ و ٥٣ و ٥٤
و ٥٦ و ٥٧ و ٥٩ و ٧٠ و ٧٨ - ٨٣)



آية الليل وآية النهار

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ١٢] .

للَّه تعالى في سور القرآن، وعالم الأكوان، آيات بينات دالة على وجوده، وقدرته، وإرادته، وعلمه، وحكمته، ونعمٌ سابغاتٌ موجبةٌ لحمده، وشكره، وعبادته.

ولما ذكر تعالى آيته، ونعمته، بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الأعظم، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الآية.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: خلقناهما ووضعناهما آيتين، وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير.

و﴿ٱلَّيْلِ﴾: هو الوقت المظلم الذي يغشى جانبًا من الكرة الأرضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل.

و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها.

ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها، يكور الليل على النهار بأن يحل محله في جزء من الكرة - وجزء الكرة مكور - فيكون

النهار الحال مكورًا بحكم تكور المحل، وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة فيكون أيضًا مكورًا بحكم تكور المحل.

وإنما جعلنا تكوير أحدهما على الآخر بحلوله في محله، لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه في نفسه لأنهما ضدان لا يجتمعان، وليس جسمين يحل أحدهما على الآخر.

والآية: هي العلامة الدالة، وكان الليل والنهار «آيتين»: بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر على نظام محكم وترتيب بديع، بحسب الفصول الشتوية والصيفية، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض، المناطق الاستوائية، والقطبية الشمالية والجنوبية، وما بينهما، حتى يكونا في القطبين ليلة ويومًا في السنة، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهما.

فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير، لطيف خبير.

الليل في نفسه آية، وفيه آيات، وأظهر آياته هو القمر، فيقال في القمر ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾.

والنهار في نفسه آية، وفيه آيات، وأظهر آياته هو الشمس، فيقال في الشمس ﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾.

وبعدما ذكر تعالى الليل والنهار آيتين في أنفسهما ذكر أظهر آيات كل واحد منهما وأضافها إليه، فقال تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾.

وليس محو القمر وإبصار الشمس متأخرًا عن الليل والنهار، وكيف؟ وما كان الليل والنهار إلا باعتبار إضاءة الشمس لجانب وعدم إضاءتها لمقابله، فليست الفاء في (فمحونا) للترتيب في الوجود، وإنما هي للترتيب في الذكر، وللترتيب في التعقل، فإن القمر والشمس بعضٌ من آيات الليل والنهار، والجزء متأخر في التعقل عن الكل.

وقد اتفق الكاتبون على الآية ممن رأينا على أن المراد من لفظ الآية في الموضوعين واحد:

فإما أن يراد بها نفس الليل والنهار، والإضافة في ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ و﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ للتبيين كإضافة العدد للمعدود.

أو يراد بها الشمس والقمر، فيكون ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ على تقدير مضاف في الأول مقدرًا هكذا: وجعلنا نيِّري الليل والنهار، أو في الأخير مقدرًا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين.

وأما على تقديرنا المتقدم فإن لفظ «آيتين» صادق على الليل والنهار، ولفظ «آية الليل» و«آية النهار» صادق على الشمس والقمر، وعليه يكون تقدير الآية هكذا: وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة، وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، وسالم من دعوى تقدير محذوف، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات: بالليل وقمره، والنهار وشمسه، فالتقدير به أولى، ولذلك فسرنا الآية عليه.

«فمحونا» المحو هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار.

فمحو «آية الليل» إزالة الضوء منها. وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل.

فتفيد الآية أن القمر كان مضيئا ثم أزيل ضوؤه فصار مظلما.

وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس.

واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر - كالأرض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه، وزالت لما برد.

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله اللَّه حجة لنبيه ﷺ وبرهانًا لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان، فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفًا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادًا قليلين من علماء الفلك، وأن حمو جرمه أولًا وزواله بالبرود ثانيًا ما عرف إلا في هذا العهد الأخير.

والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنًا - نبي أمي من أمة أمية كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا ويقوله إلا بوحي من اللَّه الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها...

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم[1].

(١) البيت من بردة البوصيري.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ .

فقد وضعت كذلك من أول خلقها (مبصرة) يبصر بها ، والإسناد مجازي ، كما تقول: لسان متكلم، أي متكلم به، فيسند الشيء إلى ما يكون به من آلة وسبب. والمبصرون حقيقة هم ذوو الأبصار. ولكنهم لا ينتفعون بأبصارهم إلا في ضوئها ولا ينتفعون بها في الظلام. وإذا كان الضوء يكون من النار، فأين ضوء النار من ضوء الشمس في القوة والدوام والعموم؟

وكما أفادت الآية زوال نور القمر بعد أن كان بمقتضى لفظة «فمحونا» ومدلولها لغة، فإنها تشير إلى أن نوره مكتسب، وتومئ إلى أنه من الشمس، وذلك أننا نرى فيه نورًا مع علمنا أن نوره قد أزيل، فنعلم قطعًا أن ذلك النور ليس منه، وإذا كان مذكورا مع الشمس المبصرة في الاستدلال والامتنان، ومعاقبًا مصاحبًا لها في الظهور، فنوره جاءه منها وهي التي أبصرته.

وقدم الليل وآيته على النهار وآيته في ترتيب النظم، لأنه ظلام، والظلام عدم الضوء، والعدم مقدم على الوجود في هذه المخلوقات.

﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ .

ذكر تعالى الليل والنهار وآيتيهما استدلالًا على الخلق ليعرفوه، وذكر ما فيها من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه، فكانت فائدة خلقها على هذا الوجه راجعة للعباد، ليبتغوا ويطلبوا فضلًا من ربهم بالسعي لتحصيل المعاش وأسباب الحياة ووجوه المنافع، وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين الشمسية والقمرية وما اشتملت عليه السنون من الشهور والأيام والساعات، وليعلموا جنس الحساب الذي منه حساب الشمس وتنقلها في منازلها، وحساب القمر

وتنقله في بروجه، وحساب أبعادهما وسَعتهما ومسير نورهما، ثم حساب ما يرتبط بهما من أجرام سابحة في الفضاء.

والابتغاء: هو طلب الشيء بسعي إليه ومحبة فيه.

ويسمِّي - تعالى - طلب أسباب الحياة ابتغاء تنبيهًا على هذا السعي وهذه المحبة، فهما الشرطان اللازمان للفوز بالمطلوب.

كما يسمِّي - تعالى - المطلوب بالابتغاء فضلًا من الرب، وفضله من رحمته، ورحمته واسعة لا تضبطها حدود ولا تحصرها الأعداد - تنبيهًا على سَعة هذا الفضل ليذهب الخلق في جميع نواحيه ويأخذوا بجميع أسبابه مما أذن لهم فيه وليكونوا - إذا ضاق بهم مذهب - آخذين بمذهب آخر من مسالك هذا الفضل الرباني الواسع غير المحصور.

وتنبيهًا أيضًا على قوة الرجاء في الحصول على البغية، لأن طلبهم طلب لفضل رب كريم.

ويقول تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة، فيعطيه في كل حال من أحواله ما يليق به، ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره اللَّه من أسباب وما يقسمه لهم من رزق، ثقةً بعدله وحكمته، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ بتعدٍّ أو حسدٍ.

فهذه الكلمات القليلة الكثيرة وهي: ﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، جمعت جميع أصول السعادة في هذه الحياة: بالعمل مع الجد فيه والمحبة له والرجاء في ثمرته، الذي به قوام العمران. وبالرضاء والتسليم للمولى، الذي به طمأنينة القلب وراحة الضمير، وبالكف للقلب واليد عن الناس، الذي به

الأمن والسلام.

ويذكر تعالى علم عدد السنين المتضمن لعدد الشهور والأيام والساعات تنبيهًا لخلقه على ضبط الأعمال بالأوقات، فإن نظام الأعمال واطرادها وخفتها والنشاط فيها وقرب انتاجها إنما هو بهذا الضبط لها على دقائق الزمان.

كما ذكر - تعالى - جنس الحساب تنبيهًا على لزومه لهذا الضبط ولجميع شؤون الحياة من علم وعمل.

فكل العلوم الموصلة إلى هذا العد وهذا الحساب هي وسائل لها حكم مقصدهافي الفضل والنفع والترغيب.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان، كلٌّ هذا فصِّل في القرآن تفصيلًا، كلٌّ فصل على غاية البيان والأحكام.

وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به. فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج١٢ م٥) شعبان ١٣٤٨هـ- جانفي ١٩٣٠م.

إرادة الدنيا وإرادة الآخرة

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٨].

كل الناس في هذه الحياة حارث وهمام: عامل ومريد، فسفيه ورشيد، وشقي وسعيد.

منهم من يريد بأعماله هذه الدار العاجلة والحياة الدنيا، عليها قصر همه، وعلى حظوظها عقد ضميره، جعلها وجهة قصده، ونصبها غاية سعيه، لا يرجو وراءها ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، فهو مقبلٌ عليها بقلبه وقالبه، معرض عن غيرها بكليته، فلا يجيب داعي اللَّه بترغيب ولا ترهيب، ولا يتقيد في سلوكه بشرائع العدل والاحسان.

فمن كان هذه إرادته، وهذا عمله، عجل اللَّه له في الدنيا ما مضى في مشيئته تعالى أن يعجله له، إن كان ممن أراد التعجيل لهم، بحكم إبدال الجار والمجرور في قوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ من الجار والمجرور في قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾.

فالتعجيل منه تعالى لمن يريد، لا لكل مريد، والشيء المعجل - في قدره وجنسه ومدته - على ما يشاء الرب المعطي، لا على ما يشاء العبد المريد.

فكم من مريدي الدنيا من يقصد الشيء فلا ينال إلا بعضه، فيضيع عليه شطر عمله، فلا في هذه الدار ولا في تلك الدار.

وكم منهم من سعى واجتهد وانتهى بالخيبة والحرمان، فعاد - بعد النصب -

ولا ثمرة حصلها عاجلًا ، ولا ثوابًا ادخره آجلًا ، وذلك هو الخسران المبين .

ثم إذا قدم على اللَّه في الآخرة جعل له وحضر له جهنم دار العذاب ، واضطره إلى دخولها فيصلاها .

مذمومًا : مذكورًا بقبح فعله وسوء صنيعه في قلة شكره لربه ، وعدم استعماله لما كان أنعم عليه به في طاعته ، وعدم نظره لعاقبة أمره .

مدحورًا : مبعدًا في أقصى النار مطرودًا من الرحمة . حرم نفسه من استثمار رحمة اللَّه في الدنيا بالشكر عليها ، فكان عدلًا أن يحرم منها في الآخرة .

ونظير هذه الآية آية (الشورى) : ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: الآية ٢٠] .

عمل للدنيا فنال نصيبه منها ، ولم يعمل للآخرة فلم يكن له نصيب فيها .

والتقييد بِ(مِنْ) في قوله تعالى : ﴿مِنْهَا﴾ على أن ما يناله - سواء كان كل ما أراد أو بعضه - ما هو إلا بعضه من الدنيا .

وإذا كانت الدنيا كلها شيئًا زهيدًا بقلتها وفنائها ونغصها بالنسبة لأقل شيء من نعيم الآخرة - فما بالك بما هو بعض منها ؟

فلقد خاب وخسر من استبدل بنعيم الآخرة هذا القليل الخسيس المنغص الزهيد .

ونظيرها أيضًا آية «هود» : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: الآية ١٥- ١٦] .

وتوفيتهم أعمالهم إنالتهم ثمراتها مكملة في الدنيا.

وهم فيها لا يبخسون: لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التي توسلوا إليها بأسبابها.

ثم في الآخرة تحبط تلك الأعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة، لأنها كانت أعمالًا باطلةً لا ثبات لها، عمل للدنيا دار الزوال فزالت بزوالها، وبقي على عمالها إثم عدم شكرهم لربهم فيه فدخلوا به النار. وتلك عاقبة الظالمين.

غير أن هاتين الآيتين مطلقتان في الشيء المعطى والشخص المعطى له، وآية «الإسراء» مقيدة بمشيئة اللَّه تعالى وإرادته فيهما. والمطلق محمول على المقيد في البيان والأحكام.

وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الأسباب الكونية التي وضعها اللَّه تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها - موصلة - بإذن اللَّه تعالى - مَن تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر اللَّه وتقديره، وسننه في نظام هذه الحياة والكون. ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن باللَّه ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين.

ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم.

نعم، لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالأسباب، فنال جزاءه في دار

الأسباب، وليس له في الآخرة إلا النار.

أقسام العباد:

فالعباد - إذًا - على أربعة أقسام:

١ - مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

٢ - ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

٣ - ومؤمن تارك للأسباب، فهذا شقي في الدنيا وينجو - بعد المؤاخذة على الترك - في الآخرة.

٤ - ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا، ويكون في الآخرة من الهالكين.

فلا يفتتن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم. فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم. ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة. وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم. وما صاروا من أهل القسم الثالث إلا لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم... فلا لوم إذًا إلا عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: الآية ١٩].

وهذا قسم آخر من الخلق، قصد بعمله الآخرة وإياها طلب، وثوابها

انتظر، يرجو أن يزحزح فيها عن النار ويفوز بالجنة ويحل عليه الرضوان، فهذا كان سعيه مشكورًا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدًا مخلصًا. كما يفيده فعل الإرادة في ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ولام الأجل في ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾.

الشرط الثاني: أن يعمل لها المعروف في الشرع اللائق بها، الذي لا عمل يفضي إلى نيل ثوابها سواه، وهو طاعة اللّٰه تعالى وتقواه بامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده.

الشرط الثالث: أن يكون مؤمنًا موقنًا بثواب اللّٰه تعالى وعظيم جزائه.

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ متقبلًا مثابًا عليه بحسن الثناء وجميل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦١].

وإذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدام المشروط بانعدام شرطه.

وفي هذه الشروط مباحث:

المبحث الأول:

أن قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافي الإخلاص فيه للّٰه: لأن الإخلاص هو أن تجعل عبادتك للّٰه وحده.

ورجاؤك الثواب وطمعك فيه، وحذرك العقاب وخوفك منه: هما مقامان

عظيمان لك في جملة عبادتك. يجب عليك أن تكون فيهما أيضًا مخلصًا، لا ترجو إلا ثوابه، ولا تخاف إلا عقابه.

وإذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك، فقمت في طاعته مجاهدًا، لا يردك معارضٌ، ولا تأخذك في اللَّه لومة لائم، وصغرت في نظرك العوالم فنطقت بقولك «اللَّه أكبر» نطق عالم واجد مشاهد.

والمقصود أن رجاء الثواب، وخوف العقاب، روحهما الإخلاص، فكيف ينافيانه؟

فالعامل الراجي للثواب، الخائف من العقاب. المخلص في الجميع آت بأربع عبادات: عمله، ورجائه، وخوفه، وإخلاصه، وهو روح الجميع.

وقد جاء في القرآن ثناء شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام هكذا:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٨٢].

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٥].

وفي دعاء القنوت: «**نرجو رحمتك، ونخاف عذابك الجد**»[٤٤].

---

[٤٤] صحيح موقوفًا:

جزء من دعاء القنوت الثابت عن عمر رضي الله عنه، رواه البيهقي (٢/ ٢١٠و٢١١) من طريق عبد الرحمن بن أبي أبزى قال:

صليت خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة الصبح فسمعته يقول بعد القراءة قبل الركوع:

إلى غير هذا من أدلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه.

المبحث الثاني:

أفاد هذا الشرط أن من لم يرد الآخرة لم يكن سعيه مشكورًا.

وفي هذا تفصيل، لأن العامل إما [أن][1] يكون في عبادته لم يرد بها الآخرة أصلًا، بل أراد بها شيئًا دنيويًا من محمدة الخلق أو استفادة شيء أو تحصيل منفعة العمل. أو أراد الآخرة وشيئًا مما ذكر شركة متساوية أو متفاوتة. وإما أن يكون في عمل عادة لم يرد بها الآخرة أصلًا بل أراد الغرض الدنيوي، أو أرادهما معًا، والدنيوي وسيلة للأخروي.

فهنالك - إذًا - أقسام:

القسم الأول:

العامل في أمر تعبدي كالصلاة والصدقة والحج والعلم، فهذا إذا لم يرد الآخرة أصلًا فهو موزور غير مشكور.

وفيه جاء حديث أبي هريرةفي «الصحيح» قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ

«اللَّهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكافرين ملحق.

اللَّهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخضع لك ونخلع من يكفرك».

وصححه البيهقي، وأقره النووي في «المجموع» (٣/ ٤٧٧-٤٧٨).

(تنبيه): ظاهر دعاء عمر رضي الله عنه هذا أنه كان في قنوت النازلة، واللَّه أعلم.

(١) سقطت في الأصل.

يقول:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال عالم، وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسَّع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقال هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[٤٥].

وهذا الذي كان من هؤلاء، هو الرياء، وهو أن يفعل العبادة ليقال إنه مطيع.

وما[١] دخل الرياء في عبادة إلا أحبطها، ولو كان قليلًا، لحديث أبي هريرة

---

[٤٥] صحيح:

رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٠٥) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٢٣-٢٤) وفي «الكبرى» (٤٣٤٥و٨٠٨٣و١١٥٥٩) وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) في الأصل: ومهما.

في «الصحيح»، قال رسول اللَّه ﷺ:

«قال اللَّه تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن شرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه»[٤٦].

وإشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير، فلا فرق بينهما في الإحباط.

والعامل المرائي موزور غير مشكور.

القسم الثاني:

العامل في العبادة الذي يقصد بها ثواب الآخرة وشيئا آخر من أعراض الدنيا «كالرجل يبتغي الجهاد وهو يريد من عرض الدنيا».

وقد سئل النبي ﷺ عن هذا فقال: «**لا أجر له**»[٤٧].

---

[٤٦] صحيح:

رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٤٧] حسن:

رواه أبو داود (٢٥١٣) وأحمد (٢/ ٢٩٠) وابن حبان (١٦٠٤- موارد الظمآن) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٨٥) من طريق ابن مكرز عن أبي هريرة:

«أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه، الرجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه وهو يبتغي عرض الدنيا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا أجر له**».

فأعظم الناس ذلك، وقالوا للرجل: عد لرسول اللَّه ﷺ لعله لم يفهم، فعاد. فقال: يا رسول اللَّه، الرجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه، وهو يبتغي عرض الدنيا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا أجر له**».

ثم عاد الثالثة: فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا أجر له**».

=

روه أبو داود وابن حبان.

وعلى وزانه نقول: من قصد الهجرة والتزوج بامرأة معًا أو قصد الوضوء والتبرد، أو قصد الصوم والحمية - وإن صحت عبادته لأن الصحة تتوقف على نية القصد، والثواب يتوقف على نية الإخلاص - لا أجر له.

هذا إذا سوى ما بينهما في القصد كما هو ظاهر لفظ الحديث.

وأما إذا كان الغالب هو قصد العبادة، فالظاهر أنه له من الأجر بقدر ما غلب من قصده.

القسم الثالث:

العامل في العبادة الذي يكون قصده إلى ثواب الآخرة، وما عداه من منافع تلك العبادة ملحوظ له على سبيل التبع لها، من حيث إنه مصلحة شرعية معتبرة في التشريع.

والأحكام الشرعية المعللة بفوائدها في الآيات والأحاديث لا تحصى كثرة، ومنها في الحج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٨].

ومن منافع الحج الحركة الاقتصادية لخير تلك البقاع ومصلحة أهلها

= وإسناده ضعيف، ابن مكرز مجهول كما قال الحافظ في «التهذيب» (١/ ٣٧١) وفي «الميزان» (٤/ ٥٩٦) قال الذهبي: «لا يعرف».

لكن الحديث حسن لأن له شاهدًا من حديث أبي أمامة عند النسائي في «المجتبى» (٦/ ٢٥)، حسن إسناده الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٨٤).

وقال الحافظ المنذري في «الترغيب» وتبعه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٦): «إسناده جيد».

والحديث صححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

وغزارة عمرانها، ولذا قال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨].

والفضل هو الاتجار في مواسم الحج[1].

فكل منفعة تجلبها عبادة أو مضرة تدفعها، فملاحظتها عند قصد العبادة لا تنافي الإخلاص ولا تنقص من أجر العامل، وهي مثل الثواب المرتب على العمل. هي في الدنيا وهو في الآخرة، وكلاهما من رحمة اللّه التي نرجوها بأعمالنا، ويشملها لفظ دعاء القنوت: «نرجو رحمتك» إذ هو تبارك وتعالى رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما.

القسم الرابع:

العامل لعمل عادي دنيوي من أكل وشرب ونوم وجماع ونحوها، فهذا إذا قصد بعملها النفع الدنيوي، ولا قصد له في الثواب، فهو غير مأجور ولا مأزور.

وهذه هي حالة أهل الغفلة والجهل.

القسم الخامس:

عامل الأعمال العادية الذي يتناولها بنية كونها مباحًا تناولها شرعًا، ويقصد بها التوسل إلى ما يتوقف عليها من أعمال واجبة ومندوبة، وإلى الانكفاف بها عن المحرمات والمكروهات، كمباضعة زوجته للقيام بواجب

---

(١) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (١٧٧٠)، وراجع «تفسير ابن كثير».

حقها، وكف نفسه وكفها، وكالنوم ليقوى على العبادة، والرياضة ليصح للطاعة، فهذا مثاب وسعيه مشكور. وله ما نوى.

وبهذه السبيل يستطيع العبد الموفق أن تكون حركته وسكناته كلها للّه، وفي طاعته. دائم الذكر له يعبده كأنه يراه[1]. لأن من كان يعبد كأنه يرى مولاه، لا يمكن أن يغفل عنه قلبه ويشتغل بسواه، حتى إذا اشتغل بشيء كان بإذنه ورضاه، فلم يخرج في أيٍّ عن حضرة قدس اللّه.

ومن أدلة هذا قوله ﷺ في حديث أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم:

«**وفي بضع أحدكم صدقة**، قالوا: يا رسول اللّه، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **أرأيتم لو وضعهافي حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[٤٨].

---

(١) وهي مرتبة الإحسان التي بينها النبي ﷺ في حديث جبريل - عليه الصلاة والسلام- كما في «صحيح مسلم» (٨، ٩) وغيره. وسيأتي برقم (١٥٢).

[٤٨] صحيح:

قطعة من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول اللّه! ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضل أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل اللّه لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع...» الحديث.

أخرجه مسلم (١٠٠٦) وأحمد (٥/ ١٦٧و١٦٨).

وأخرج نحوه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٢٧) وأبو داود (١٢٨١و٥٢٣٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٧و٩٠٢٨) وأحمد (٥/ ١٥٤و١٦١و١٦٧).

المبحث الثالث:

من الناس من يخترع أعمالًا وأوضاعًا من عند نفسه ويتقرب بها إلى اللَّه، مثل ما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها، والذبح عليها، والخضوع لديها، وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة للَّه مملوكة له، وإنما يعبدونها - كما قالوا - لتقربهم إلى اللَّه زلفى.

وكما اخترع طوائف من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم وإحراقها طاعة - زعموا - وتقربًا!.

وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر، والطواف حول القبور والنذر لها، والذبح عندها ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها.

فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها، لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور.

المبحث الرابع:

شكر الرب لعبده هو جزاء شكر عبده له، وإنما يكون العبد شاكرًا لربه إذا كان عاملًا بطاعته مؤمنا به. فإذا انعدم الإيمان لم يتصور شكران، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وأفادت الجملة الاسمية ثبوت الإيمان ورسوخه حال العمل، وعلى قدر ثبوت الإيمان ورسوخه يكون الثبات والدوام على الأعمال.

فالمؤمن باللَّه يعمل موقنًا برضاه، موقنًا بلقائه وعظيم جزائه، فهو يعمل

ولا يفشل، وسواء عليه أوصل إلى الغاية التي يسعى إليها أم لم يصل إليها، حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت، كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره إلا بعد أجيال.

فأفادت الجملة المذكورة شرط القبول للعمل. وسر الدوام عليه، والمضي بغبطة وسرور فيه.

إمكان العمل بالآية لجميع المسلمين:

خاتمة:

إن المسلمين كلّهم - والحمد للّه - أهل إيمان، فليستشعروه عند جميع الأعمال، ولا يخلون من عمل لمعاشهم أو لمعادهم، فليقصدوا بذلك كله وجه اللّه، وامتثال أمره وحسن جزائه، وليقتصروا في عبادتهم على ما ثبت عن رسول اللّه ﷺ ليكونوا على يقين من موافقه رضى اللّه وسلوك طريق النجاة.

فإذا فعلوا هذا وصمدوا إليه وجاهدوا أنفسهم في حملها عليه، كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم في منازل العاملين عند رب العالمين، واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٦) رمضان ١٣٤٨هـ- فيفري ١٩٣٠م.

عموم النوال من الكبير المتعال

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٠] .

إن هذه الموجودات كلها، علويَّها وسفليها، مشمولة برحمة اللّه، مغمورة بنعمته.

وأول تلك النعم هو وجودها، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة.

ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها، وتتفاوت أيضًا حسب ذلك. وينال كلٌّ حظَّه منها بتقدير الحكيم العليم.

ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطي من التكوين مايناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه أو ارتقاؤه، سواء أكان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان.

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدي العاجلة الذين لا يعملون إلا لها، وما أعدَّ لهم من عذاب النار. وذكر مريدي الآخرة بأعمالهم في الدنيا وما أعدَّ لهم من حسن الجزاء، فحالتهم في الآخرة متباينة: هؤلاء في النعيم المقيم، وأولئك في العذاب الأليم.

هذا في الآخرة.

وأما في الدنيا ، فإنهم قد أعطوا من نعم الحياة ومكنوا من أسبابها ، فقد تساووا في الخلقة البشرية ، وفي العقل المميز المفكر ، وفي الإرادة الحرة ، وقد أظلتهم السماء . وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء ، وقد أقلتهم الأرض ، وشملتهم نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء من النبات والحيوان والجماد وكل ما يخرج من الأرض ، وشاهدوا كلهم آيات اللَّه الكونية الدالة عليه ، وجاءتهم كلهم رسل اللَّه بآياته السمعية داعية إليه .

فاختار كلٌّ بعقله - وهو حر في إرادته حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها - ما اختار لنفسه . وحجة اللَّه بما تقدم قائمة عليه .

وبقوا بعد ذلك الاختيار الذي اختلفت به منازلهم عند اللَّه فيما أعد لهم يوم لقائه سواء ، في تلك النعم الدنيوية والتمكن من أسباب بقائها والتقدم فيها . لا فرق في ذلك بين بر وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ .

وليس تعالى مانعًا كافرًا لكفره أو عاصيًا لعصيانه من هذه الحياة وأسبابها ، وليس أحد على منع ما لم يمنعه اللَّه بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ، والحظر المنع ، والمحظور الممنوع .

وتركيب الآية يفيد أن عطاء الرب لا يمنع ولا يجوز أن يمنع ، لأن من مقتضى ربوبيته داوم عطائه ومدده لعموم خلقه ، بعلمه وحكمته .

وقدم المفعول وهو (كُلًّا) ردًّا على من يعتقد أن اللَّه تعالى يمد بعضًا دون بعض .

وفيه إيجاز بالحذف ، والأصل كلا الفريقين ، يعني فريق مريدي العاجلة ،

ومريدي الآخرة.

و(نمد) من الإمداد وهو المواصلة بالشيء، وذلك الشيء يسمى مددًا.

وأصل المد البسط للشيء، فيستطيل ويتسع، ومنه مد يده، ومد شبكته، ومنه مد اللَّه لك أسباب السعادة، أي بسطها ووسعها.

والإمداد بالشيء والمواصلة به يكون به دوام فائدته وامتداد النفع به.

والخلق كلهم في حاجة دائمة وفاقة مستمرة إلى مدد اللَّه وعطائه وأنواع بره وإحسانه. وهو تبارك وتعالى لا يزال يواصلهم في كل لحظة من وجودهم بما يحتاجون إليه من فيض عطائه.

وأضاف العطاء للرب لأنه من مقتضى ربوبيته بتكوينه للخلق وتطويرهم وإعطائهم ما يحفظهم في تلك الأطوار.

وأضاف الرب إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ لتشريفه بهذه الإضافة.

ولما تشرف بهذه الإضافة الربانية. والرب جل جلاله قد مضى من وصفه في الآية أنه عام الرحمة والنعمة والنوال، فمن شكر نعمة هذا الشرف أن يتخلق العبد وهو محمد ﷺ بما هو من مقتضى وصف ربه.

هذا من فوائد هذه الإضافة في هذا المقام.

وقد كان ﷺ رحمة للعالمين، شديد الشفقة على الخلق أجمعين، حريصًا على هدايتهم إلى الصراط المستقيم. حتى خاطبه ربه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣] أي قاتل نفسك غمًا لعدم إيمانهم.

وكان أساس شرعه على العدل، والإحسان العدل مع كل واحد والإحسان إلى كل شيء فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: الآية ٨] أي لا يحملنك بغض قوم على عدم العدل فيهم.

وقال ﷺ: «**إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»[٤٩].

ولما كان هو عليه الصلاة والسلام قدوتنا، فنحن مخاطبون بأن نكون مثله في عموم رحمته وشفقته وعدله وبره وإحسانه، نفعل الخير عامًا، كما تعم خيرات اللَّه تعالى العباد، نفعله لأنه خير نستطعم لذته، غير منتظرين جزاءه إلا من اللَّه. لأن من انتظر الجزاء من الناس وفي هذه الحياة لابد أن يميل بخيره عن جهة إلى جهة، وربما يكون في ميله قد أخطأ وجه الصواب، ولابد أيضًا أن ييأس فيفتر في العمل أو ينقطع عنه عند ما يرى عدم المكافأة من الناس وعدم ظهور أثر خيره في الحياة وأبناء الحياة.

وقد أفادت الآية - حسبما تقدم - أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ - بإذن اللَّه - إلى مسببه، سواء أكان برًا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا.

---

[٤٩] صحيح:

رواه مسلم (١٩٥٥) وأبو داود (٢٨١١) والترمذي (١٤١٣) والنسائي (٧/ ٢٢٧و٢٢٩و٢٣٠) والدارمي (٢/ ٨٢) وابن ماجه (٣١٧٠) وأحمد (٤/ و١٢٣و١٢٤و١٢٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وزادوا في آخره:

«وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديمًا وحديثًا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم.

وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه، وأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب.

ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام، لكان - مثل سالف أيامه - سيد الأنام.

* * *

النظر في تفاضل البشر

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٢١].

إن من أعظم العبر ما نشاهده في أحوال الخلق أممًا وجماعاتٍ وأفرادًا من الاختلاف الشديد.

فقد اختلفت بواطنهم النفسية، كما اختلفت ظواهرهم الجسدية، وإنك كما تجد أبناء الأمة الواحدة يتشابهون في تركيب أجسامهم، ثم لا بد من فروق تتمايز بها أشخاصهم، كذلك تجدهم يتشابهون في شؤونهم النفسية مع فروق لازمة تتمايزبها شخصياتهم، ويتبع هذا الاختلاف اختلافهم في إدراكهم وتمييزهم وأخلاقهم وعاداتهم، في ضلالهم وهداهم، وفي درجات الهدى ودركات الضلال.

كل هذا دال على بديع صنع الخالق القدير، وعجيب وضع العليم الحكيم.

فمكنهم تعالى كلهم من الأسباب وإدراك العقل وحرية الإرادة، ثم فضل بينهم هذا التفضيل. فكان منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والشقي والسعيد، إلى تقسيم كثير.

وفقه أسباب هذا التفضيل هو فقه الحياة والعمران والاجتماع، فلذا أمر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

و(كيف) سؤال عن الأحوال، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار، والجملة في محل نصب على العامل عن لفظها بكلمة الاستفهام.

وكما فضل بعض خلقه على بعض في دار الابتلاء، كذلك فضل بعضهم على بعض في دار الجزاء لكن التفضيل هنالك أكبر، والتفاوت بين العباد أظهر. في مواقف القيامة، وفي داري الإقامة، ويا بعد ما بين من في الجنة ومن في النار. وأهل النار متفاوتون في دركاتها، وأهل الجنة متفاوتون في درجاتها.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[٥٠].

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم.**

قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

---

[٥٠] صحيح:

رواه البخاري في «صحيحه» (٢٧٩٠) و(٧٤٢٣) وأحمد (٢/ ٣٣٥و٣٣٩) عن أبي هريرة مرفوعًا.

وفي إسناده من تكلم فيه لكن الحديث صحيح لشاهدين:

الأول: عن أبي الدرداء عند النسائي (٦/ ٢٠) وإسناده حسن.

والثاني: عن عبادة بن الصامت عند الترمذي (٢٥٣٦) والحاكم (٢/ ٨٠) وصححه ووافقه الذهبي.

قال: **بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»**[٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٥].

وهذا التفضيل الأخروي هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة. فإنهم إنما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضًا في شيء منها، وهي الدار الفانية، فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة - وما عملها إلا الخير والمعروف - حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه وأكمل حال؟.

فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(١).

* * *

---

[٥١] صحيح:

رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

و(الدري): هو النجم الشديد الإضاءة.

و (الغابر): الذاهب.

(١) الشهاب (ج٢ م٦) غرة شوال ١٣٤٨هـ- مارس ١٩٣٠م.

أصول الهداية في ثمان عشرة آية

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ - إلى - ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٢٢ - ٣٩].

تمهيد:

قد أوتي رسول اللَّه ﷺ جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا[١].

فالآية من كتاب اللَّه، والأثر من حديث رسول اللَّه، تجد فيه من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة، في لفظ قليل، وكلام بيِّن، ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومنح التوفيق.

فهذه ثمان عشرة آية من سورة الإسراء قد أتت في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية كلها. وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها.

وهي - فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم، وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم - قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، وبأي لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفطر وتسلمها العقول.

وأنك لست واجدًا مثلها في مقدارها وأضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان.

(١) انظر مقدمة «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب- رحمه اللَّه تعالى- ففيها فوائد هامة.

وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين.

ارتباط الآيات بما قبلها:

موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيل للسعي المشكور المتقدم في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾، ووقوعها بلصق قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾، إشارة إلى أن التفاضل في تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل في السلوك والسعي المشكور المستفاد من هذه الآيات.

التوحيد:

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾.

هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تتقبل الأعمال إلا به. وما أرسل اللّٰه رسولًا إلا داعيًا إليه ومذكرًا بحججه، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هي كلمة: «لا إله إلا اللّٰه» وهي كلمته الصريحة فيه. ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده.

وأنت ترى أن هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه.

﴿لَّا تَجۡعَلۡ﴾: الجعل يكون عمليًا، كجعلت الماء مع اللبن في إناء واحد.

ويكون اعتقاديًّا، كجعلت مع صديقي صديقًا آخر.

والجعل في الآية من هذا الثاني.

﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ : المعية هنا أيضًا هي معية اعتقادية.

﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ : الإله هو المعبود، والعبادة نهاية الذل والخضوع، مع الشعور بالضعف والافتقار، وإظهار الانقياد والامتثال، ودوام التضرع والسؤال.

﴿فَتَقْعُدَ﴾ : القعود ضد القيام، والعرب تكني بالقيام عن الجد في الأمر والعمل فيه، سواء أكان العامل قائمًا أو جالسًا، فتقول: قام بحاجتي، إذا جد وعمل فيها، ولو كان لم يمش فيها خطوة، وإنما قضاها بكلمة قالها أو خطاب أرسله.

وتكني كذلك بالقعود عن الترك للعمل، وانحلال العزيمة، وبطلان الهمة، سواء كان الشخص واقفًا أو جالسًا، فتقول: قعد زيد عن نصرة قومه، إذا لم يعمل في ذلك عملًا، ولم تكن له فيه همة ولا عزيمة، ولو كان قائمًا يمشي على رجليه.

فالقعود في الآية بمعنى المكث، كناية عن بطلان العمل، وخيبة السعي، وخور القلب، وفراغ اليد من كل خير.

﴿مَذْمُومًا﴾ : مذكورًا بالقبيح موصوفًا به.

﴿مَّخْذُولًا﴾ : متروكًا بلا نصير مع حاجتك إليه.

فنهى اللَّه الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكًا في ألوهيته فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنه الإله وحده فيعبدوه وحده. وبين لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكًا وعبدوه معه، فإن عبادتهم تكون باطلة، وعملهم يكون مردودًا عليهم، وأنهم

يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذي عقل سليم من الخلق، ويكونون مخذولين لا ناصر لهم. فأمَّا اللَّه فإنه يتركهم وما عبدوا معه، وأمَّا معبوداتهم فإنها لا تنفعهم، لأنها عاجزة مملوكة مثلهم، فما لهم - قطعًا - من نصير.

والخطاب وإن كان موجهًا للنبي ﷺ فإنه عام للمكلفين، وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق إلى أن شرائع اللَّه وتكاليفه عامة للرسول والمرسل إليهم، وإن كان هو قد عصم من المخالفة، فلا يبقى بعد ذلك وجهٌ لدعوى مدع خروج فرد من أفراد الأمة المكلَّفين عن دائرة التكليف.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾:

القضاء يكون بمعنى الإرادة، وهذا هو القضاء الكوني التقديري الذي لا يتخلف متعلقه، فما قضاه اللَّه لا بد من كونه.

ويكون القضاء بمعنى الأمر والحكم، وهذا هو القضاء الشرعي الذي يمتثله المُوَفَّقون ويخالفه المخذولون.

والذي في الآية من هذا الثاني.

﴿رَبُّكَ﴾ الرب هو الخالق المدبر المنعم المتفضل.

﴿أَن﴾ مصدرية والتقدير بألا تعبدوا إلا إياه، أي بعدم عبادتكم سواه، بأن تكون عبادتكم مقصورة عليه.

فالعبادة بجيمع أنواعها لا تكون إلَّا له.

فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال، هذه كلها لا تكون إلا للَّه.

فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده.

ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده.

ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه، غير ملتفت إلى أنه من عنده أو من عند اللَّه فقد عبده.

ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أويدفع عنه الضر فقد عبده.

فاللَّه تعالى يعلم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمرًا عامًا وحكم حكمًا جازمًا بأن العبادة لا تكون إلَّا له.

وجيء باسم الرب في مقام الأمر بقصر العبادة عليه تنبيهًا على أن الذي يستحق العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والإنعام، وليس ذلك إلَّا له، فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه.

فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التي من مقتضاها انفراده بالخلق، والأمر الكوني والشرعي على وحدانية الألوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته.

وكما انتظمت هذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمي والتوحيد العملي.

فالأولى: نهي عن أن تعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه، وهذا من باب العلم.

والثانية: أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه، لأنه هو ربك وحده، وهذا من باب العمل.

فمن وحَّد اللَّه ﷻ في ربوبيته وألوهيته، علمًا وعملًا، فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم، ومن أخل بشيء من ذلك كان ذلك نقصًا في دينه بقدر ما أخل، حتى ينتهي الأمر إلى خلَّص المشركين.

نعوذ باللَّه من الشرك، جليِّه وخفيِّه، إنه سميع عليم.

بيان واستدلال:

يكون الذل بمعنى ضعف الحال، وهذا قد يكون لأهل التوحيد والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٣].

ويكون بمعنى اللين المشوب بالعطف، وهذا من صفات المؤمنين الممدوحة إذا وقعت في محلها كما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤].

ويكون الذل بمعنى خنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار، وهذا هو الذي لا يكون من المؤمن الموحد إلا لربه كما في حديث دعاء القنوت «**ونخنع لك**»[٥٢] أي نذل ونخضع لك.

وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية، فلذلك لا يكون إلا للَّه.

وإن من أسرار كلمة «اللَّه أكبر» التي يأتي بها المؤمن مراتٍ كثيرةً في

---

[٥٢] صحيح:

جزء من دعاء قنوت عمر رضي الله عنه المتقدم برقم (٤٤).

صلواته وغيرها من أحواله حفظ القلب من الخنوع للخلق باستشعار عظمة الخالق التي يصغر عندها كل مخلوق.

فلا يزال المؤمن لهذا قوي القلب، عزيز النفس بالله، لا ينتظر قوة ضعفه إلَّا به، ولا سدَّ مفاقره إلَّا منه.

ولقلب المؤمن الموحد أمام من يحب في الله ويعظم بتعظيم الله خضوع أيضًا، ولكنه خضوع هيبة وتوقير وإجلال، لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار، إذ هذا - كما قدمنا - لا يكون إلا للغني القوي العزيز القهار.

من مظاهر هذا الخنوع الذي لا يكون إلا للّه الطاعة والانقياد، وهي أيضًا لا تكون إلَّا له، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] أي أطاعه واتبعه، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: الآية ١٤].

فمن تبع مخلوقًا وأطاعه فيما يأمره وينهاه دون أن يكون في طاعته مراعيًا طاعة الله فقد عبده واتخذه ربا فيما أطاعه فيه.

وفي حديث عديٍّ بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره لما جاء للنبي ﷺ وسمعه يتلو قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣١].

فقال عدي: يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم؟ قال:

«أليس كانوا إذا حرموا عليهم شيئًا حرموه، وإذا أحلوا لهم شيئًا أحلوه».

قال: قلت: نعم. قال رسول الله ﷺ:

«فتلك عبادتهم إياهم»[٥٣] .

فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته إلا للّه أو لمن طاعته طاعة للّه .

ومن مظاهر ذلك الخنوع : الدعاء والسؤال والتضرع والجؤار (رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة إليه) .

قال تعالى : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النّحل : الآية ٥٣] .

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل : الآية ٦٢] .

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال : الآية ٩] .

في آيات كثيرة .

---

[٥٣] حسن لغيره :

رواه الترمذي (٣١٠٤) والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١١٤) والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢١٨و٢١٩/ ٩٢) والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٦٤) والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٧٥٣) من طرق عن عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم ﷺ مرفوعًا .

وقال الترمذي :

«هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث» .

قلت : بل ضعفه الدارقطني كما في «الميزان» واعتمده الحافظ فقال في «التقريب» «ضعيف» لكن للحديث شاهد موقوف عن حذيفة - وله حكم الرفع - يتقوى به :

أخرجه الطبري (١٠/ ١١٤و١١٥) والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦) وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٤) والخطيب في «الفقيه» (٧٥٤و٧٥٥) ورجال إسناده ثقات إلا أن فيه انقطاعًا : أبو البختري - واسمه سعيد بن فيروز - لم يدرك حذيفة ، واللّه أعلم .

ولذا قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١) : «حسن» .

وقال ﷺ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي - :

«إذا سألت فاسأل اللَّه»[٥٤].

في أحاديث كثيرة.

فلا يدعو المؤمن الموحد غير اللَّه ولا أحدًا مع اللَّه، إذ الدعاء عبادة، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه يرفعه:

«الدعاء هو العبادة»[٥٥].

---

[٥٤] صحيح:

قطعة من حديث ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه اللَّه لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

رواه الترمذي (٢٥٢١) وقال: «حديث حسن صحيح».

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٠-٤٦٢):

«وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وعبيد اللَّه بن عبد اللَّه، وعمر مولى غفره، وابن أبي مليكة وغيرهم.

وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قال ابن منده وغيره.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه وصى ابن عباس بهذه الوصية من حديث علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري، وسهل بن سعد، وعبد اللَّه بن جعفر، وفي أسانيدها كلها ضعف.

وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة، وبعضها أصلح من بعض، وبكل حال، فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة».

والحديث صححه غير واحد من أهل العلم بالحديث كما كنت بينته في تخريجي لأحاديث «رسالة الشرك» (١١٦).

[٥٥] صحيح:

وزادوا في آخره: =

رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة.

وكما في حديث أنس رضي الله عنه يرفعه:

«الدعاء مخ العبادة»[٥٦].

رواه الترمذي.

وكل عبادة لا تكون إلا لله، فالدعاء لا يكون إلا لله، وإنما كان للدعاء من العبادة هاته المنزلة لأن حقيقة العبادة هي التذلل والخضوع، وهو حاصل في الدعاء غاية الحصول، وظاهر فيه أشد الظهور.

ألهمنا الله رشدنا وأعاذنا من شرور أنفسنا، إنه سميع قريب مجيب[١].

* * *

= «ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

وهو مخرج في «رسالة الشرك» (١٠٩) بقلمي.

[٥٦] ضعيف بهذا اللفظ:

وهو مخرج أيضًا في المصدر المذكور قريبًا برقم (١٠٨).

(١) الشهاب (ج٣ م٦) غرة ذي القعدة ١٣٤٨هـ- أفريل ١٩٣٠م.

بر الوالدين

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًاۚ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] .

اللَّه: هو الخالق، والوالدان - بوضع اللَّه - هما السبب المباشر في التخليق .

واللَّه هو المبتدئ بالنعم عن غير عمل سابق، وهما يبتدئان بالإحسان عن غير إحسان تقدم .

واللَّه يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته وهم الفقراء إليه، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد، وهما في غنى عنه، وهو في افتقار إليهما .

واللَّه يوالي إحسانه ولا يطلب الجزاء، وهما يبالغان في الإحسان دون تحصيل الجزاء .

فلهذه الحالة التي خصَّهما اللَّه بها، وأعانهما بالفطرة عليها، قرن ذكرهما بذكره، فلما أمر بعبادته أمر بالإحسان إليهما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النّساء: الآية ٣٦] ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: الآية ١٤] .

وفي هذا الجمع في القضاء والحكم بالإحسان، والأمر بالشكر لهما مع اللَّه تعالى، أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب، ثم زاد هذا الحكم، وهذا الأمر،

تقريرًا بلفظ التوصية بهما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العَنكبوت: الآية ٨] ليحفظ حكم اللَّه وأمره فيهما ولا يضيع شيءمن حقوقهما، فكان حقهما بهذه الوصاية أمانة خاصةووديعة من اللَّه عظيمة عند ولدهما. وكفى بهذا داعيًا إلى العناية بهذه الأمانة وحفظها وصيانتها.

وكما جاء هذا الجمع في باب الأمر في القرآن، كذلك جاء الجمع بينهما في باب النهي وكبر المعصية في السنة.

ففي «الصحيح» عن أبي بكرة رضي الله عنه قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«**ألا أخبركم بأكبر الكبائر**: قلنا: بلى يا رسول اللَّه، قال: **الإشراك باللَّه وعقوق الوالدين**»[٥٧].

وتقدير نظم الآية هكذا: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبأن تحسنوا للوالدين إحسانًا. فحذف (أن تحسنوا) لوجود ما يدل عليه وهو إحسانًا. وفي تنكيره إفادة للتعظيم، فهو إحسان عظيم في القول والفعل والحال.

وتقول: أحسنت إليه وأحسنت به، وأحسنت به أبلغ لتضمن أحسنت معنى لطفت، ولما في الباء من معنى اللصوق. ولهذا عدي في الآية بالباء ليفيد الأمر باللطف في الإحسان والمبالغة في تمام اتصاله بهما، فلا يريان ولا يسمعان ولا يجدان من ولدهما إلا إحسانًا، ولا يشعران في قلوبهما منه إلا بالإحسان.

---

[٥٧] صحيح:

رواه بهذا اللفظ البخاري (٦٢٧٣) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ورواه أيضًا (٥٩٧٦و٦٢٧٤) ومسلم (٨٧) وزادا: «قول الزور» أو «شهادة الزور».

ومن الإحسان ما يكون ابتداءً وفضلًا، ومنه ما يكون جزاءً وشكرًا، فعليه أن يعلم أن كل إحسانه هو شكر لهما على سابق إحسانهما الذي لا يمكنه أن يكافئه بمثله، لثبوت فضيلة سبقه.

وفي تعليق الحكم - وهو الأمر بالإحسان - بلفظ الوالدين المشتق من الولادة إيذان بعليتها في الحكم، فيستحقان الإحسان بالوالدية سواء أكانا مؤمنين أم كافرين، بارين أو فاجرين، محسنين إليه أو مسيئين، وقد جاء هذا صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥] فأمر بمصاحبتهما بالمعروف على كفرهما.

وفي «الصحيح» عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت:

قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول اللَّه ﷺ، فاستفتيتُ رسول اللَّه ﷺ قلتُ: قدمت عليَّ أمِّي وهي راغبة (أي في العطاء والإحسان) أفأصل أمِّي؟ قال:

«نعم، صِلِي أمَّك»[٥٨].

وهذا الإحسان الواجب لهما جانب الأم آكد فيه من جانب الأب، وحظها فيه أوفر من حظه، ويشير إلى هذا تخصيصها بذكر أتعابها في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ -ضعفًا على ضعفٍ- وَفِصَٰلُهُۥ فِى

[٥٨] صحيح:

رواه البخاري (٢٦٢٠) ومسلم (١٠٠٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

عَامَيْنِ﴾ [لقمان: الآية ١٤] وفي الأخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

فذكر ما تعانيه من ألم الحمل ومشقة الوضع ومقاساة الرضاع والتربية.

وجاء التصريح بهذا في الحديث الصحيح:

فقد جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ (أي صحبتي من حسن العشرة والبر والتكرمة) قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[٥٩].

فذكر الأب في الثالث.

وفي طريق آخر للحديث ذكره في الرابعة.

ولقد كان لها هذا بما ذكر من مزيد أتعابها وضعف جانبها ورقة عاطفتها

---

[٥٩] صحيح:

أخرجه - بذكر الأم مرتين - ابن ماجه (٣٦٥٨) وأحمد (٢/ ٣٩١) من طريقين عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة.

وصححه البوصيري في «الزوائد».

وعزاه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٩٤) لمسلم من رواية محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع، وهو فيه (٢٥٤٨) (٢) لكن بذكر الأم ثلاثًا، فلا أدري هل يرجع إلى اختلاف نسخ «الصحيح» أم ماذا؟

وأما الطريق الآخر: فأخرجه البخاري (٥٩٧١) وفي «الأدب المفرد» (٥) ومسلم (٢٥٤٨) وابن ماجه (٢٧٠٦) وأحمد (٣/ ٣٢٧-٣٢٨و٤٠٢).

وله شواهد عن معاوية بن حيدة، وأبي رمثة، وجد كليب بن منفعة، وخداش أبي سلامة، خرجها الألباني في «الإرواء» (٨٣٧) فليراجعها من شاء ثمة.

وشدة حاجتها، فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم، ومحاسن الشرع الكريم.

ومن الإحسان إليهما طاعتهما في الأمر والنهي، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما. وإنما تحل له مخالفتهما إذا منعاه من واجب عيني أو أمراه بمعصية، لما في الصحيح من قوله ﷺ: «**لا طاعة لأحد في معصية اللَّه، إنما الطاعة في المعروف**»[٦٠].

وعند الحاكم وأحمد: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٦١].

---

[٦٠] **صحيح**:

رواه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) وأبو داود (٢٦٢٢) والنسائي (٧/ ١٥٩-١٦٠) وأحمد (١/ ٩٤) عن علي رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ بعث جيشًا، وأمَّر عليهم رجلًا، فأوقد نارًا فقال: ادخلوها، فأراد ناسٌ أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها، لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين قولًا حسنًا، وقال: «لا طاعة في معصية الخالق، إنما الطاعة في المعروف».

والسياق لمسلم.

[٦١] **صحيح**:

رواه بهذا اللفظ الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٠/ ٣٨١) موصولًا عن الحسن عن عمران بن حصين مرفوعًا، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٧٠٦) عن الحسن مرسلًا.

ورواه أحمد (١/ ١٣١) عن علي، وفي (٥/ ٦٦) عن الحكم بن عمرو الغفاري، وفي (١/ ٤٠٩) عن ابن مسعود مرفوعًا بلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية اللَّه عز وجل».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٢٦):

«رواه أحمد بألفاظ والطبراني باختصار، وفي بعض طرقه: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ورجال أحمد رجال الصحيح».

ومن الدليل على رجحان جانبهما على الواجب الكفائي ما ثبت في «الصحيح» من حديث الرجل الذي أتى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك؟**» قال: نعم. قال: «**ففيهما فجاهد**»[٦٢].

وفي الطريق الثاني قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أقبل رجل إلى النبي ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال: نعم، بل كلاهما قال: «**فتبغي الأجر من الله؟**» قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»[٦٣].

هذا لأن القيام عليهما فرض عيني، والجهاد كان عليه فرض كفاية، ولو تعين عليه، ولم يكونا في كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه.

ومن حقوقهما عليه أن لا يخرج إلى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس إلا بإذنهما، بدليل ما جاء في سنن أبي داود: أن رجلًا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال: «**هل لك أحد باليمن؟**» قال: أبواي. قال: «**أذنا لك؟**» قال: لا. قال:

---

[٦٢] صحيح:

رواه البخاري (٣٠٠٤) ومسلم (٢٥٤٩) من طريق أبي العباس الشاعر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وكذا رواه أبو داود (٢٥٢٦) والترمذي (١٦٧٥) والنسائي (٦/ ١٠) وأحمد (٢/ ١٦٥و١٨٨و١٩٣و١٩٧و٢٢١) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

[٦٣] صحيح:

رواه مسلم (٢٥٤٩) والبيهقي (٩/ ٧٦) من طريق ناعم مولى أم سلمة عن عبد الله بن عمرو.

وزاد الحافظ في «الفتح» (٦/ ١٧٠) نسبته لسعيد بن منصور.

«فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما»[٦٤].

أما إذا أراد تعاطي ما لا خطر فيه ولا فجيعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات فليس عليه أن يستأذنهما، وليس لهما منعه، ولكن إذا منعاه من شيء امتنع لوجوب برهما، وطاعتهما - في غير المعصية - من برهما.

* * *

---

[٦٤] صحيح لغيره:

رواه أبو داود (٢٥٢٧) من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومن هذا الوجه رواه أحمد (٣/ ٧٥-٧٦) والحاكم (٢/ ١٠٣-١٠٤) وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٣٥) وابن حبان (١٦٢٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»!

وتعقبه الذهبي بقوله:

«قلت: دراج واهٍ».

لكن الحديث صحيح بشواهده منها حديث ابن عمرو المتقدم.

تفضيل الإحسان إليهما في القول والعمل وتأكيده في حالة الكبر

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣ - ٢٤]

الأمر بالإحسان إليهما عام في جميع الأحوال، وخصصت حالة بلوغ أحدهما أو كليهما الكبر بالذكر، لأنها حالة الضعف، وشدة الحاجة، ومظنة الملل والضجر منهما، وضيق الصدر من تصرفاتهما.

فهما في هذه الحالة قد عادا في نهايتهما إلى ما كان ولدهما عليه في بدايته وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما، فكان بأشد الحاجة إلى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما، ومزيد الرعاية لهما، وشدة التوقي والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما في هاته الحال على الخصوص، وإن كان ذلك واجبًا عليه في كل حالٍ على العموم.

وطول بقائهما عنده في كنفه وثقل مؤونتهما عليه، وما يكون من ضرورات الكبر والمرض مما يستقذره في بيته، كل هذا قد يؤديه إلى الضجر والتبرم، فيقول ما يدل على ضجره وتبرمه.

فنهي عن التفوُّهِ بأقل كلمة تدل على ذلك، وهي كلمة أف بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، فأحرى وأولى ما فوقها.

وهذا أمر بتحمل كل ذلك منهما ، ونهي عن التضجر منهما .

ومن ضرورة مباينتهما لولدهما في السن وفي النشأة أنهما كثيرا ما يخالفانه في آرائه وأفكاره، وقد يتناولان ما لايحب أن تصل يدهما إليه، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة، وكل هذا قد يؤديه إلى نهرهما، أي زجرهما بصياح وإغلاظ أو إظهار للغضب في الصوت واللفظ، فنهى عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ .

وفي هذا أمر له بالتلطف معهما في الطلب والعرض والدلالة على وجه الصواب في الأمر وأبواب الفعل والترك، وبحسن التلقي لكل ما يسألان ويطلبان، ونهي عن أي إغلاظ في اللفظ والصوت وحالة الكلام.

ولما نهاه عن القول القبيح المؤذي أمره بالقول اللين السهل، الحسن في لفظه وفي معناه، وفي قصده، وفي منشأه، السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ .

وفي هذا أمر بأن يخاطبهما بجميل القول ويؤنسهما بطيب الحديث، ونهي عن أن يؤذيهما في قول أو يوحشهما بطول السكوت، فليس له أن يتركهما وشأنهما، بل عليه مجالستهما، ومحادثتهما، وجلب الأنس إليهما، وإدخال السرور عليهما.

ثم إن القول إنما هو عنوان ما في الضمير، ولا يكون كريمًا شريفًا إلا إذا كان عنوانًا صادقًا، حسن مظهره ومخبره، وعذب جناه، وطاب مغرسه، وما ثماره إلا معانيه، وما مغرسه إلا القلب الذي صدر عنه.

فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والعطف من صميم قلبه كما هو يعرب لهما عنهما بلسانه، فيكون محسنا لهما حينئذ في ظاهره وباطنه، وذلك هو تمام البر الذي أمر به.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾:

مضى فيما تقدم أدب القول، وهذا أدب الفعل وبيان الحال التي يكون عليها.

فالوالدان عند ولدهما في كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفء والراحة، وولدهما يقوم لهما بالسعي كما يسعى الطائر لفراخه ويحيطهما بحنوه وعطفه، كما يحيط الطائر فراخه، فشبه الولد في سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر في ذلك كله على فراخه، وحذف المشبه به وأشير إليه بلازمه، وهو خفض الجناح، لأن الطائر هو ذو الجناح، وإنما يخفض جناحه حنوًا وعطفًا وحياطةً لفراخه، فيكون في الكلام استعارة بالكناية.

وأضيف الجناح إلى الذل - وهو الهون واللين - إضافة موصوف إلى صفة. اخفض لهما جناحك الذليل، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتهما حتى يشعر بأنهما مخدومان للاستحقاق، لا متفضل عليهما بالإحسان.

وفي ذكر هذه الصورة التي تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق للقلب موجب للرحمة وتنبيه للولد على حالته التي كان عليها معهما في صغره، ليكون ذلك أبعث له على العمل وعدم رؤية عمله أمام ما قدما إليه.

و«مِن» في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ للتعليل متعلقة بأخفض، فتفيد مع متعلقها الأمر بأن يكون ذلك الخفض ناشئا عن الرحمة الثابتة في النفس،

لا عن مجرد استعمال ظاهر كما كان يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة، فيكون هذا مفيدًا ومؤكدًا لما قدمناه من لزوم أن يتطابق على الإحسان إليهما، الظاهر والباطن، ليتم البرور.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ : مهما اجتهد الولد في الإحسان إلى أبويه فإنه لا يجازي سابق إحسانهما، فأمر بأن يتوجه بسؤال الرحمة لهما من اللَّه تعالى، وهي النعمة الشاملة لخير الدنيا والآخرة، إظهارًا لشدة رحمته هو لهما، ورغبةً في وصول الخير العظيم من المولى الكريم إليهما واعترافًا بعجزه عن مجازاتهما.

يدعو لهما هكذا في حياتهما وبعد مماتهما.

أما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة، سواء كانا مسلمين أم كافرين، ورحمة الكافرين بهدايتهما إلى الإسلام.

وأما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما إلا إذا ماتا مسلمين لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: الآية ١١٣].

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. للتعليل، أي: رب ارحمهما لتربيتهما لي، وجزاء على إحسانهما إليَّ في حالة الصغر، حالة الضعف والافتقار.

وفي هذا اعتراف بالجميل، وإعلان لسابق إحسانهما العظيم، وتوسل إلى اللَّه تعالى في قبول دعائه لهما بما قدَّما من عمل لأنه وعد أنه يجزي العاملين، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجلِّ مظاهر الرحمة، وهو قد أخبر

تعالى على لسان رسوله أنه يرحم الراحمين[٦٥] ، ولا أرحم - بعده تعالى - من الوالدين .

خاتمة:

من بر الوالدين أن نتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءًا من غيرنا ، فإن فاعل السبب فاعل للمسبب ، ومن هذا أن لا نسبَّ الناس حتى لا يسبُّوا والدينا ، لأنا إذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما ، وسبهما من أكبر الكبائر .

ففي «الصحيح» عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» ، قيل : يا رسول اللَّه ، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال : «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[٦٦] .

ومن برهما ، حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار ، و إنفاذ عهدهما

---

[٦٥] صحيح :

ثبت عنه مرفوعًا من طريق جماعة من الصحابة ، منهم :

١- عبد اللَّه بن عمرو : رواه أبو داود (٤٩٣١) والترمذي (١٩٢٩) وأحمد (٢/ ١٦٠) والحاكم (٤/ ١٥٩) بلفظ : «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى . . . » .

وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» .

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

وثبته الحافظ في «الفتح» (٣/ ٢٠٢) .

٢- أسامة بن زيد : رواه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣) ولفظه :

«إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء» .

[٦٦] صحيح :

رواه البخاري (٥٩٧٣) واللفظ له ، ومسلم (٩٠) عن ابن عمرو رضي الله عنهما .

وإكرام صديقهما وصلة رحمهما.

فقد روى ابن ماجه وأبو داود وابن حبان في «صحيحه» عن أبي أسيد مالك ابن ربيعة الساعدي البدري رضي الله عنه قال:

«بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاء رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال:

«نعم، الصلاة (أي الدعاء) عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»[٦٧].

وفي إكرام صديقهما جاء في «الصحيح» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلَّم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه.

قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب وأنهم يرضون

---

[٦٧] ضعيف:

رواه أبو داود (٥١٣١) وابن ماجه (٣٦٦٤) وأحمد (٣/ ٤٩٧- ٤٩٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥) وابن حبان (٢٠٣٠- الموارد) والحاكم (٤/ ١٥٤- ١٥٥) من طريق أسيد بن علي بن عبيد مولى بني ساعدة عن أبيه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

وهذا إسناده ضعيف وفيه جهالة، علي بن عبيد والد أسيد «لا يعرف» كما قال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٤٤) ولم يوثقه غير ابن حبان!

ومع ذلك صححه الحاكم، وليس ذلك بغريب لما عرف به من تساهل، وإنما الغريب أن يوافقه الذهبي الحافظ النقاد!!

وراجع «الضعيفة» (٥٩٧) للألباني.

* وأبو أسيد الساعدي: مشهور بكنيته، شهد بدرًا وغيرها.

ومات سنة (٣٠هـ)، وقيل: هو آخر من مات من البدريين.

باليسير.

فقال عبد اللَّه: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**إن أبر البر صلة الولد أهل ودِّ أبيه**»[٦٨].

هذا، وإن من راض نفسه على هذه الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والأقوال الطيبة التي أُمر بها مع والديه، حصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين، وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر اللَّه وطاعة الوالدين.

واللَّه يوفقنا ويهدينا سواء السبيل. إنه المولى الكريم رب العالمين[١].

* * *

---

[٦٨] صحيح:

رواه مسلم (٢٥٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والجزء المرفوع رواه بنحوه أبو داود (٥١٣٢) والترمذي (١٩٠٨) وقال:

«هذا إسناد صحيح، وقد روي هذا الحديث عن ابن عمر من غير وجهٍ».

(١) الشهاب (ج٤ م٦) غرة ذي الحجة ١٣٤٨هـ- ماي ١٩٣٠م.

صلاح النفوس وإصلاحها

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٥].

صلاح الشيء: هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال.

وفساده: هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الأعمال على وجه النقصان.

اعتبر هذا في البدن، فإن له حالتين: حالة صحة. وحالة مرض.

والأولى: هي حالة صحته باعتدال مزاجه، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله.

والثانية: هي حالة فساده باختلال مزاجه فتتعطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله.

هذا الذي تجده في البدن هو نفسه تجده في النفس، فلها صحة ولها مرض، حالة صلاح وحالة فساد.

والإصلاح: هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد.

والإفساد: هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث إختلال فيه.

فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء، وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة.

وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب.

هكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد. في كثير من الأحوال. غير أن الإعتناء بالنفوس أهم وألزم لأن خطرها أكبر وأعظم.

إن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه، وما البدن إلا آلة لها، ومظهر تصرفاتها.

وإن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، وإنما رقيه وانحطاطه باعتبار رقي نفسه وانحطاطها، وما فلاحه إلا بزكائها، وما خيبته إلا بخبثها. فقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآيتان ٩- ١٠].

وفي «الصحيح»: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[٦٩].

---

[٦٩] صحيح:
رواه البخاري (٥٢و٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل مَلِكٍ حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة.....». =

وليس المقصود من القلب مادته وصورته، وإنما المقصود النفس الإنسانية المرتبطة به.

وللنفس ارتباط بالبدن كله، ولكن القلب عضو رئيسي[1] في البدن ومبعث دورته الدموية، وعلى قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن لارتباط النفس به، فكان حقيقيًا لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز.

وصلاح القلب -بمعنى النفس- بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، وإنما يكونان بصحة العلم وصحة الإرادة، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة فسدالبدن وجرت أعمال الجوارح إلى غير وجه السداد.

فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة.

فما من شيء مما شرعه اللَّه تعالى لعباده من الحق، والخير، والعدل، والإحسان، إلَّا وهو راجع عليها بالصلاح.

وما من شيء نهى اللَّه تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء،

= والسياق لمسلم.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٩٣):

«وقد روي عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر، وعمار بن ياسر، وجابر، وابن مسعود، وابن عباس، وحديث النعمان أصح أحاديث الباب».

(١) كذا في الأصل!.

إلا وهو عائد عليها بالفساد.

فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل، وشرع الشرائع.

وهذه الآيات الثمان عشرة قد جمعت من أصول الهداية ما تبلغ به النفوس إذا تمسكت به غاية الكمال.

قد أمر تعالى في الآيات المتقدمة بعبادته، وتوحيده، والإخلاص له، وأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما في الظاهر والباطن، كما أمر بغير ذلك في الآيات اللاحقة.

ووضع هذه الآية أثناء ذلك، وهي متعلقة بالنفس وصلاحها، لينبِّه الخلق على أصل الصلاح، الذي منه يكون، ومنشأه الذي منه يبتدئ، فإذا صلحت النفس قامت بالتكاليف التي تضمنتها هذه الآيات الجامعة لأصول الهداية، وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها الذي قد يكون قبل التدبر خفيًا.

ونظير هذه الآية - في موقعها ودلالتها على ما به يسهل القيام بأعباء التكاليف- قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨] ، فقد جاءت أثناء آيات أحكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات، تنبيهًا للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات، لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع إلى اللّه تعالى وتوجه إليه ومناجاة له، وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال.

والنفوس الزكية الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة وأنسا تهون معهما أعباء التكليف.

ثم إن العباد بنقص الخلقة وغلبة الطبع معرَّضون للتقصير في ظاهرهم وباطنهم، في صور أعمالهم ودخائل أنفسهم - وخصوصًا في باب الإخلاص - فذكِّروا بعلم ربِّهم في نفوسهم في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ ليبالغوا في المراقبة، فيتقنوا أعمالهم في صورها، ويخلصوا بها له.

وهذه المراقبة هي الإحسان الذي هو عبادتك اللَّه كأنك تراه، وذكر اسم الرب لأنه المناسب لإثبات صفة العلم، فهو الرب الذي خلق النفوس وصورها ودبرها. ولا يكون ذلك إلا بعلمه بها في جميع تفاصيلها. وكيف يخفى عليه شيء منها وهو خلقها. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: الآية ١٤].

والصالحون: في قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ هم الذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وصلاح النفس وهو صفة لها خفي كخفائها.

وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها في البدن؛ كذلك نستدل على اتصافها بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها.

فمن شاهدنا منه الأعمال الصالحة - وهي الجارية على سنن الشرع وآثار النبي ﷺ - حكمنا بصلاح نفسه وأنه من الصالحين.

ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه وأنه ليس منه.

ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها إلا هذا الطريق.

وقد دلَّنا اللَّه تعالى عليه في قوله تعالى:

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤].

فذكر الأعمال ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين.

فأفادنا أن الأعمال هي دلائل الصلاح، وأن الصلاح لا يكون إلا بها، ولا يستحقه إلا أهلها.

ثم إن العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال.

ويكون لنا في أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد، ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند اللَّه في الباطن، فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند اللَّه تعالى من هذا، لأن الأعمال قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وهذه أصل لأعمال الجوارح، وقد قال النبي ﷺ: «**التقوى ها هنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات»[٧٠].

فمنازل الصالحين عند ربهم لا يعلمها إلا اللَّه.

---

[٧٠] صحيح:

جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة مرفوعًا:

«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

والأوابون في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ هم الكثيرو الرجوع إلى اللَّه تعالى.

والأوبة في كلام العرب هي الرجوع.

قال عُبيد[1]:

وكل ذي غيبة يؤوب   وغائب الموت لا يؤوب

والتوبة: هي الرجوع عن الذنب، ولا يكون إلا بالإقلاع عنه.

واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات، والعزم على عدم العود، وتدارك ما يمكن تداركه.

فيظهر أن الأوبة أعم من التوبة، فتشمل من رجع إلى ربه تائبًا من ذنبه، ومن رجع إليه يسأله ويتضرع إليه أن يرزقه التوبة من الذنب.

فنستفيد من الآية الكريمة سَعة باب الرجوع إلى اللَّه تعالى. فإذا تاب العبد فذاك هو الواجب عليه والمخلِّص له - بفضل اللَّه - من ذنبه. وإن لم يتب فليدم الرجوع إلى اللَّه تعالى بالسؤال والتضرع والتعرض لمظان الإجابة، وخصوصًا في سجود الصلاة فَقَمِنٌ - إن شاء اللَّه تعالى - أن يستجاب له[2].

---

(١) هو عُبيد بن الأبرص الأسدي، شاعر جاهلي فحل. قال أيضًا في هذه البائية:

من يسأل الناس يحرموه   وسائل اللَّه لا يخيب

ساعد بأرض إن كنت فيها   ولا تقل إنني غريب

ترجمته في «الأعلام» (٤/ ١٨٨).

(٢) لقوله ﷺ: «.. وأمَّا السجود فاجتهدوا في الدعاء، فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم». أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس، وسيأتي تخريجه برقم (١٤٣) مع ذكر لفظه بتمامه.

و«قَمِنٌ»: أي: جدير وخليق وحقيق.

وشر العصاة هو الذي ينهمك في المعصية مصرًا عليها غير مشمئز منها ولا سائل من ربه بصدق وعزم التوبة منها ، ويبقى معرضًا عنه ربه كما أعرض هو عنه، ويصر على الذنب حتى يموت قلبه .

ونعوذ باللَّه من موت القلب ، فهو الداء العضال الذي لا دواء له .

وجاء لفظ (الأوابين) جمعًا لأواب ، وهو فعال من أمثلة المبالغة ، فدلَّ على كثرة رجوعهم إلى اللَّه ، وأفاد هذا طريقة إصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع إلى اللَّه .

ذلك أن النفوس بما ركب فيها من شهوة ، وبما فطرت عليه من غفلة ، وبما عرضت له من شؤون الحياة ، وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن - لا تزال - إلا من عصم اللَّه - في مقارفة ذنب ، ومواقعة معصيةٍ ، صغيرة أو كبيرة ، من حيث تدري ، ومن حيث لا تدري ، وكل ذلك فساد يطرأ عليهما ، فيجب إصلاحها بإزالة نقصه ، وإبعاد ضرره عنها ، وهذا الإصلاح لا يكون إلا بالتوبة وبالرجوع إلى اللَّه تعالى .

ولما كان طروء[1] الفساد متكررًا ، فالإصلاح بما ذكر يكون دائمًا متكررا ، والمداومة على المبادرة إلى إصلاح النفس من فسادها والقيام في ذلك والجد فيه والتصميم عليه هو من جهاد النفس الذي هو أعظم الجهاد .

ومن معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢] وهم الذين كلما أذنبوا تابوا ، والتوبة طهارة للنفس من درن المعاصي .

---

(١) في الأصل : طرو .

و«الغفور»: في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ هو الكثير المغفرة، لأنه على وزن فعول، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة.

و«المغفرة»: ستره للذنب وعدم مؤاخذته به، ولما ذكر من وصف الصالحين كثرة رجوعهم إليه، ذكر من أسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته، ليقع التناسب في الكثرة من الجانبين، ومغفرته أكثر، وليعلم أن كثرة الرجوع إليه يقابلها كثرة المغفرة منه، فلا يفتأ العبد راجعًا راجيًا للمغفرة، لا تقعده كثرة مايذنب عن تجديد الرجوع، ولا يضعف رجاؤه في نيل مغفرة الغفور، كثرة الرجوع.

وقد أكد الكلام بـ(إنَّ) لتقوية الرجاء في المغفرة، وجيء بلفظة (كان) لتفيد أن ذلك هو شأنه مع خلقه من سابق. وهذا مما يقوي الرجاء فيه في اللاحق، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون إليه ويغفر لهم، ولا يزالون كذلك، ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفورا.

وإنما احتيج إلى هذا التأكيد كله في تقوية رجاء المذنب في المغفرة ليبادر بالرجوع على كل حال، لأن العبد مأخوذ بأمرين يضعفان رجاءه في المغفرة:

أحدهما: كثرة ذنوبه التي يشاهدها، فتحجبها كثرتها عن رؤية مغفرة اللَّه تعالى التي هي أكبر وأكثر.

والآخر: رؤيته لطبعه البشري وطبع بني آدم من المنع عند كثرة السؤال، كما قال شاعرهم - أي البشر - لأن الشاعر العربي عبَّر عن طبع بشري:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يومًا سيحرم[1]

فيقوده القياس - وهو من طباع البشر أيضًا - القياس الفاسد إلى ترك الرجوع والسؤال من الرب الكريم العظيم النوال.

فهذان الأمران يقعدانه عن الرجوع والتوبة فيستمر في حمأة المعصية، وذلك هو الهلاك المبين، فكان حاله مقتضيًا لأن يؤكد له حصول المغفرة عند رجوعه بتلك المؤكدات.

وقد كان مقتضى الظاهر في تركيب الآية أن يقال: إن تكونوا صالحين فإنه كان لكم غفورا، لأن المقام للإضمار لكنه عدل عن الضمير إلى الظاهر فقيل: (فإنه كان للأوابين غفورًا) لينص على شرط المغفرة وهو الأوبة والرجوع.

وعلم من ذلك أن الصالح عند ما تقع منه الذنوب مطالب - كغيره - بالأوبة لتحصيل المغفرة، لأن فرض الأوبة إلى اللّٰه من المعاصي عام على الجميع.

وقد اشتملت الآية من فعل الشرط وهو (إن تكونوا صالحين)، وجوابه وهو (فإنه كان للأوابين غفورًا)... على الحالتين اللازمتين للإنسان لتكميل نفسه، وهما الصلاح المستفاد من الأول، والإصلاح بالأوبة المستفاد من الثاني.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو البيت الأخير من معلقته. انظر «ديوانه» (ص١١٢).
وزهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، أحد فحول الجاهلية الأربعة، وهو أعف الشعراء قولًا، وأكثرهم تهذيبًا لشعره، وجرت أبيات كثيرة له مجرى المثل، وكثير من أصوله وفروعه شعراء لا يشق لهم غبار. ترجمته في «الأعلام» (٣/ ٥٢).

وما دام الإنسان يجاهد في تزكية نفسه بهذين الأصلين فإنه بالغ - بإذن اللَّه - درجة الكمال.

ثبتنا اللَّه والمسلمين عليهما، وحشرنا في زمرة الكاملين المكملين، إنه المولى الغفور الكريم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٥ م٦) غرة محرم ١٣٤٩هـ- جوان ١٩٣٠م.

إيتاء الحقوق لأربابها

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٦] .

الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم. ومامن أحد إلا وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه.

ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطّراد نظامه.

وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس.

وعند ما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده، بل هي خدمة للمجتمع كله. وبالأحرى[1] هي خدمة له هو في نفسه لأنه جزء من المجتمع، وما يصيب الكل يعود على جزئه .

فإذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعنا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران.

أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق وقصروا في تأديتها إلى بعضهم، فإن الحاجة المشتركة من العلم، والثقافة، وحفظ الصحة، والأخلاق، وأنواع الصناعة - تتعطل، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال

(١) في الأصل: بالآخرة!.

والتقهقر، وينحط بأفراده إلى أسفل الدركات.

فلهذا بعد ما أمر اللَّه تعالى بإيتاء حقه - وهو توحيده في عبادته - أمر بإيتاء حقوق العباد، القريب منهم والبعيد.

حق القريب:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

ابتدأ بحق القريب لوجوه:

الأول: أنه هو مقتضى طبيعة الترتيب.

الثاني: تأكيد حق القريب.

الثالث: أن من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الإنسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة.

وكلتا هاتين يحبب للنفس إيتاء حق القريب، فابتدئ به في الأمر ليكون تقبلهاله أسهل، ومبادرتها للامتثال أسرع، فإذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب، ومرنت عليه، اعتادت الإيتاء وصار من ملكاتها، فسهل عليها إيتاء كل حق ولو كان لأبعد الناس.

وشيء آخر، وهو أن الأقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل، أو تصادم المنافع، أو التشاح على المواريث، ما لا يكون بين الأباعد، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الأسرة، ويعود ذلك عليهم أولًا بالوبال، ويرجع ثانيًا على مجتمعهم - والمجتمع مؤلَّف من الأُسر - بالتضعضع، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم إلى المقتضيات

المتقدمة الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عام يشمل الأصل - وهو الأبوان - وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولهما وفصولهما، ويشمل الفصل - وهو الأبناء والبنات - وما يتصل به منهما من فصول، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة وإن كانا داخلين في هذا العموم.

والحق في قوله تعالى: ﴿حَقَّهُۥ﴾ هو الثابت له شرعًا المبيَّن في آيات من الكتاب: من صلة رحمٍ، ونصيب إرثٍ، ونفقة فرضٍ وندبٍ، وإحسانٍ بالقول والفعل، ومواساةٍ عن محبة وعطف.

حق المسكين:

«والمسكين».

قد ذكر في آية الزكاة الفقير والمسكين[1].

والحق أنهما متغايران، والراجح أن الفقير من له بلغة لا تكفيه، والمسكين من لا شيء له، فهو أشد حالًا من الفقير.

ولذا لما أريد هنا ذكر أحدهما اقتصر عليه تنبيهًا بالأعلى في الفقر على الأدنى، فالمراد أهل الفقر والحاجة كلهم.

وحق المساكين ما ثبت لهم من الزكاة وكذلك ما تدعو إليه الحاجة من تعليمهم، وإيوائهم، وطبهم، وتجهيز موتاهم، مما تقوم به الجمعيات

(١) يعني المصنف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ..﴾ الآية [التوبة: ٦٠].

الخيرية في هذا العصر، فكلّ هذا مما تصرف إليه الزكاة، ويجب القيام به عند عدم الزكاة أو فنائها أو قصورها عنه، ويجب القيام به واجبًا موزعًا على كل واحد ما استطاع، فإذا لم يقم به المجتمع عاد الإثم على جميع الأفراد كل بقدر ما قصر فيما استطاع. ثم ما إلى هذا من عموم الصدقة والإحسان.

حق ابن السبيل:

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

السبيل هي الطريق، وابنها هو المسافر، لأنه منها أتى كما أتى الإبن من أمه.

وحقه هو الثابت له في الزكاة، فيأخذ منها إذا قطع به ولم يكن معه ما يبلغه ولو كان غنيًّا في بلده، وعلى جماعة المسلمين تبليغه إذا لم تكن ثَمَّ زكاة.

ومن حقه ضيافته حسب السنة[1]، وإرشاده ودلالته على ما يريد معرفته من طريقه أو مرافقها.

وبذكر ابن السبيل والمسكين مع ذي القربى جمعت الآية القريب والبعيد من ذوي الحقوق.

وبذكر ابن السبيل والمسكين جمعت ذا الحاجة الثابتة وهو المسكين، والحاجة العارضة وهو ابن السبيل، وقدم الأول لأصالة حاجته.

وفي ذكرهما أيضًا جمع ما بين القريب الدار والبعيد الدار والمسافر.

---

(١) انظر «أحاديث الضيافة» (٦٢، ٦٣، ٦٦- ٦٩) لأبي بكر بن داود الحنبلي، بتحقيقي.

كل هذا ليعلم أن ذا الحق يُعطى حقه على كل حال، وبقطع النظر عن أي اعتبار.

وسمى هؤلاء الثلاثة بأسمائهم المذكورة لأنها ترقق عليهم القلوب من القرابة والمسكنة وغربة الطريق.

وسمى ما ينالونه حقًّا ليشعر المكلَّف بتأكده، ويحذر المعطي من المنِّ به ولا ينكسر قلب آخذه.

* * *

الإنفاق في غير وجه شرعي

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٦] .

المال قوام الأعمال، وأداة الاحسان، وبه يمكن القيام بالحقوق، فصاحبه هو مالكه، ولكن الحقوق فيه تشاركه ولا يقوم له بوجوه الحق إلا إذا أمسكه عن وجوه الباطل، ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه إلا إذا أحسن التدبير في التفريق وأصاب الحكمة في التوزيع.

فلذا بعدما أمر اللَّه تعالى بإعطاء الحقوق لأربابها نهى عن تبذير المال الذي هو أصلها وبه يمكن إعطاؤها.

والتبذير هو التفريق للمال في غير وجه شرعي أو في وجه شرعي دون تقدير فيضر بوجه آخر.

فالإنفاق في المنهيات تبذير وإن كان قليلًا.

والإنفاق في المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيرًا. إلا إذا أنفق في مطلوب دون تقدير فأضر بمطلوب آخر، كمن أعطى قريبًا وأضاع قريبًا آخر، أو أنفق في وجوه البر وترك أهله يتضورون بالجوع، وقد نبه النبي ﷺ على هذا بقوله: «**وابدأ بمن تعول**»[٧١].

---

[٧١] صحيح:

رويت هذه الجملة مرفوعة إلى النبي ﷺ من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة ﵃، منهم:

١- أبو هريرة: أخرجه البخاري (١٤٢٦و٥٣٥٥و٥٣٥٦) ومسلم (١٠٤٢). =

والإنفاق في المباحات إذا لم يضيع مطلوبًا ولم يؤد إلى ضياع رأس المال بحيث كان ينفق في المباح من فائدته ليس بتبذير، فإذا توسع في المباحات وقعد عن المطلوبات أو أداه إلى إفناء ماله فهو تبذير مذموم.

وأفادت النكرة وهي قوله «تبذير» - بوقوعه بعد النهي - العموم، فهو نهي عن كل نوع من أنواع التبذير، القليل منه والكثير، حتى لا يستخف بالقليل؛ لأن من تساهل في القليل وصلت به العادة إلى الكثير.

* * *

= ٢- أبو أمامة: أخرجه مسلم (١٠٣٦).

٣- حكيم بن حزام: أخرجه البخاري (١٤٢٧) ومسلم (١٠٣٤).

٤- جابر بن عبد اللَّه: أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠و٣٤٦) وابن حبان في «صحيحه» (٨٢٦-الموارد).

٥- عبد اللَّه بن عمر: أخرجه أحمد (٢/ ٤و٩٣-٩٤و١٥٢). من طريقين: أحدهما بسند على شرط الشيخين، والآخر بسند جيد. أفاده الألباني في «الإرواء» (٣/ ٣١٩).

٦- طارق المحاربي: أخرجه النسائي (٥/ ٦١) وابن حبان (٨١٠- الموارد) وصححه.

إخوان الشياطين

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٧] .

إن الشيطان يعمل وأعماله كلها في الضلال والإضلال .

فقد ضيع أعماله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير . وهو جاد في ذلك ضار عليه لرسوخه في نفسه .

والمبذر يضيع أمواله في الباطل وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير ، وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه ، فهو أخو الشيطان لمشاركته له في وصفه كمشاركة الأخ لأخيه ، وهو أخوه بامتثاله لأمره ، وصحبته له في الحال وفي المآل ، وفي سوء العاقبة ، في العاجل والآجل .

المال كما هو أداة لكل خير ، كذلك هو أداة لكل شر .

فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل بالغ - لا محالة - بماله إلى شر كثير وفساد كبير، ولذلك وصف بأنه أخ الشيطان الذي هو أصل الشر والفساد، ووصف تعالى الشيطان بقوله : ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ لأنه أنعم عليه بنعمته، فبدلًا من أن يستعملها في طاعته في الخير قصرها على المعصية والشر .

وذكر هذا من وصف الشيطان بعد ما تقدَّم يفيد أنه من وصف المبذِّر أيضًا .

فالمبذِّر أخو الشيطان، والشيطان كان لربه كفورًا. فالمبذر كان لربه كفورًا.

ذلك لأن اللَّه تعالى أنعم عليه بالمال الذي هو أداةٌ لكلِّ خير وعونٌ عظيمٌ على الطاعة، فجعله أداة في الشر واستعان به على المعصية. ومكَّنه بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد. وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذي كان به مضارعًا للشيطان أخيه. والعياذ باللَّه.

* * *

حسن المقال، عند العجز عن النوال

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٨] .

للمرء حالتان: حالة وجد وحالة عوز.

فلما علمنا اللَّه تعالى ما نصنع في حالة الوجد من الإيتاء لذوي القربى واليتامى والمساكين - علمنا ما نصنع في حالة العوز من الرد الجميل والقول اللين الحسن.

وقوله تعالى: ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ من الإعراض، وهو الانصراف عن الشيء، وهو هنا كناية عن عدم العطاء، لأن من يأبى أن يعطي يعرض بوجهه ولو إعراضًا قليلًا.

ولما كان الإعراض كناية عن عدم العطاء فإنه يشمل عدم العطاء عند السؤال الذي قد يكون معه الإعراض بالفعل ولو قليلًا، ويشمل عدم العطاء لمن هو أهل لأن يعطي مع عدم وجود السؤال.

وقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾:

الابتغاء هو الطلب باجتهاد، وذلك بالأخذ في الأسباب والاعتماد على مسببها وهو اللَّه تعالى.

ورحمة الربِّ هنا رزقه.

ورجاؤها هو انتظارها مع الأخذ في أسبابها بالقلب والعمل.

وابتغاء رحمة الربِّ ورجاؤها كناية عن حالة العوز والإعسار، لأن شأن المعوز المؤمن أن يكون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

تقول: يسَّرتُ له القول إذا لينته له. فالقول الميسور هو القول الملين.

وحاصل المعنى: إن أعرضت عنهم فلم تعطهم لأنك لم تجد ما تعطيهم - وهي الحالة التي تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجيًا رزقه - فقل لهم قولًا لينًا سهلًا، فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال، ولا تتركهم في ساحة الإهمال، وتردهم الرد الجميل عند السؤال فتقول لهم: يرزق اللّٰه، ونحوه من لين الكلام.

وفي الآية تعليم وتربية للمعسر من ناحيتين:

الأولى: معاملته لذوي القربى واليتامى والمساكين عند السؤال وعدمه. وعرف من الآية أنه مطالب بحسن المقال بدلًا مما عجز عنه من النوال.

والثانية: أدبه هو في نفسه، والحالة التي ينبغي له أن يكون عليها. فإن حالة العسر حالة شدة وبلاء يحتاج المكلف أشد الحاجة أن يعرف دواءه فيها لسيرته العملية، وحالته النفسية، فأعطته هذه الآية الكريمة الدواء لهما.

فأما في سيرته العملية فعليه أن يكون ساعيًا في الأسباب حسب جهده، وذلك هو ما يفيده قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾. وأن يكون مطمئن القلب باللّٰه، معتمدًا عليه، قوي الثقة فيه. وذلك هو ما يفيده قوله: ﴿تَرْجُوهَا﴾.

وقد ذكر برحمة الرب ﷻ لوجوه:

الأول: تقوية رجائه، فإنه يعلم سَعة رحمة اللّٰه وغمره بها في كل حين. ومن ذا الذي لم يجد نفحات الرحمات في أكثر الأوقات في أحرج الساعات؟

الثاني: بعثه على الصبر والتسليم، وعدم الضجر والسأم من الطلب والانتظار، فإنها رحمة الرب، ومن مقتضى ربوبيته تدبيره للخلق بحكمته، فما جاء منه كيف جاء وفي أي وقت جاء أبطأ أم تأخر - هو مقبول منه محمود منا عليه.

الثالث: بعث عاطفة الرحمة على غيره، فإن من كان يرجو رحمة ربه جدير بأن يكون رحيما بعباده.

ورحمته بعباد اللّٰه تعينه على القيام بما أمر به من حسن المقال عند العسر، وجميل النوال عند اليسر. وتكون سببا له في رحمة اللّٰه إياه، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم اللّٰه من عباده الرحماء[1].

* * *

---

(١) الجملتان ثبت رفعهما إلى النبي ﷺ، فانظر: «صحيح الجامع الصغير» (٢٣٧٧، ٣٥١٦) للألباني، وانظر التخريج المتقدم (٦٥).

العدل في الإنفاق

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] .

لما أمرنا تعالى بالإنفاق علمنا كيف ننفق، وبين لنا أدب الإنفاق في هذه الكلمات.

شبهت حالة وهيئة البخيل المسيك الذي لا يكاد يرشح بشيء، ولا يقدر لبخله على إخراج شيء من ماله، بحالة وهيئة الذي جعل يده مغلولة مجموعة بغلٍّ إلى عنقه. فذاك لا تتوجه نفسه للبذل ولا تمتد يده للعطاء، وهذا لا تمتد يده للتصرف.

ونقل الكلام المركب الدال على المشبه به فاستعمل في المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية لتقبيح حالة البخيل.

والمعنى: لا تبخل بالنفقة في حقوق اللّٰه، ولا تمسك إمساك المغلولة يده الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء.

وشبهت حالة المسرف الذي لا يُبقي على شيء بحالة الشخص الباسط لكفيه، فلا يمسكان عليه من شيء، فذلك يملك المال ولكنه بسرفه لا يبقى له منه شيء، وهذا قد يمر الشيء على يده، ولكنه لا يبقى فيها شيء.

ونقل المركب الدال على المشبه به إلى المشبه استعارة تمثيلية أيضًا.

والمعنى: ولا تخرج جميع ما تملك مع حاجتك إليه ولا تنفق جميع مالك.

وبهذا يعلم أن كل البسط المنهي عنه هنا غير التبذير المنهي عنه في الآية المتقدمة، ذاك توزيع المال وتبديده في غير وجوهه، وهذا التجاوز في الإنفاق المطلوب والتوسع في الإنفاق المأذون حتى يبقى بلا شيء.

نهى تعالى بهذه الآية عن طرفي الإفراط والتفريط، وهما الإسراف والتقتير.

فالمأمور به هو العدل الوسط، فعلى ذي المال أن يأخذ في إنفاقه بهذا الميزان ليكون إنفاقه محمودًا. فلا يمسك عما يستطيع ولا يتجاوزه إلى ما لا يستطيع أو إلى ما يوقعه في عسر وضرر.

وكان النهي عن كل البسط لأنه هو الذي فيه إسراف، وأما أصل البسط الذي هو توسعة بحكمة فغير منهي عنه لأنه لا ضرر فيه.

وحذَّر تعالى من سوء عاقبة الإسراف والتقتير بقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

فالبخيل الممسك ملوم من اللّٰه تعالى ومن العباد إذا لم تلمه نفسه الخبيثة لموت قلبه. على أنه سيلوم هو نفسه بعد الموت.

والمسرف ملوم من الجميع ومن نفسه بعد ضياع ما في يده.

والمحسور: المتعب المضنى الذي انكشفت عنه القوة ولم تبق به قدرة على شيء.

تقول العرب: حسرت البعير، أي أنضيته وأتعبته بالسير حتى لم تبق به قدرة عليه.

والجمل لا يقطع الطريق ويصل إلى الغاية إلا إذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة فسار به سيرًا وسطًا.

أما إذا أجهده واستنزف قوته فإنه يسقط كليلًا محسورًا، فلا قطع طريقه، ولا وصل منزله، ولا أبقى جمله.

فكذلك الإنسان في طريق هذه الحياة محتاج إلى قوة المال، فإذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع، وبلغ غاية حياته هادئًا راضيًا، وإذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع، ولم يبلغ غاية حياته إلا بأتعاب ومشاق.

وعلم من هذا أن قوله: ﴿مَلُومًا﴾ يرجع للمقتر والمسرف، وقوله: ﴿مَّحْسُورًا﴾ يرجع للمسرف فقط.

ولكن لما كان المحسور هو الذي ذهبت قوته فلا قدرة له على شيء، فقد نقول إن البخيل أيضًا مبغوض من الناس مخذول منهم، فلا يجد في ملماته معينًا ولا في نوائبه معزيًا، فهو أيضًا ضعيف الجانب لا قوة له.

فالمسرف ضيع المال. والبخيل ضيع الإخوان، فكلاهما مكسور الظهر، عديم الظهير.

والمخاطب بهذا الخطاب إما مفرد غير معين، فيشمل جميع المكلفين غير النبي ﷺ، لأنه كان يأخذ لعياله قوت سنتهم حين أفاء اللّه عليه النضير

وفدك وخيبر، ثم يصرف ما بقي في الحاجات حتى يأتي أثناء الحول وليس عنده شيء، وما كان ملومًا ولا محسورًا، بل كان على ذلك صبارًا شكورًا مشكورًا .

وإما هو النبي ﷺ، والمراد أمته، وعادة العرب أن تخاطب سيد القوم، تريد القوم، وتعبر بالمتبوع عن أتباعه .

ونظير هذه الآية في ذلك : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يُونس: الآية ٩٤] .

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] .

فالنبي ﷺ غير داخل في هذا الخطاب بإجماع، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٣] ، يعني الوالدين، وكان والداه - عليهما الرحمة -(١) قد توفيا، فلم يدخل في الخطاب قطعًا، فكذلك هنا .

قال الإمام ابن العربي - في تعليل عدم دخوله ﷺ في هذا الخطاب :

«لما هو عليه من الخلال والجلال، وشرف المنزلة، وقوة النفس على الوظائف، وعظيم العزم على المقاصد .

فأما سائر الناس فالخطاب عليهم وارد، والأمر والنهي - كما تقدم - إليهم متوجه، إلا أفرادًا خرجوا من ذلك بكمال صفاتهم وعظيم أنفسهم، منهم أبو بكر الصديق خرج عن جميع ماله للنبي ﷺ[٧٢]، فقبله منه اللَّه سبحانه،

---

(١) لازم الدعاء لهما بالرحمة أنهما توفيا مسلمين، والتحقيق خلاف ذلك كما سيأتي في (٢/ ٢٧٨- ٢٨٢).

[٧٢] حسن :

أخرجه أبو داود (١٦٧٥) والترمذي (٣٦٨٤) والدارمي (١/ ٣٩١-٣٩٢) والحاكم (١/ ٤١٤) عن=

وأشار على أبي لبابة[٧٣] وكعب[٧٤] بالثلث من جميع مالهم لنقصهم عن هذه المرتبة في أحوالهم.

= عمر بن الخطاب ﵁ قال:
أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي: فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم اللَّه ورسوله، قلت: واللَّه لا أسبقه إلى شيء أبدًا».
وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي!
قلت: وإسناده حسن على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال مسلم غير هشام بن سعد المدني فإنه «صدوق له أوهام» كما قال الحافظ في «التقريب» واللَّه أعلم.

[٧٣] ضعيف منكر:
أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٢-٤٥٣و٥٠٢) من طريق ابن شهاب أن الحسين بن السائب بن أبي لبابة أخبر أن أبا لبابة بن عبد المنذر لما تاب اللَّه عليه، قال: يا رسول اللَّه، إن من توبتي أن أهجر دار قومي، وأساكنك، وإني أنخلع من مالي صدقة لِلَّه ولرسوله، فقال الرسول ﷺ:
«يجزئ عنك الثلث».
ومن هذا الوجه أخرجه ابن حبان (٨٤١- الموارد) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٨١) بنحوه.
وأخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٣/ ٦٨-٦٩/ برقم: ١٠٥٨- شرح الزرقاني) عن عثمان بن حفص بن عمرو بن خلدة عن الزهري بلاغًا.
قال الحافظ ابن عبد البر ﵀ في «التمهيد» (١/ ٣٢٨- فتح البر للمغراوي):
«ولا يتصل حديث أبي لبابة - فيما علمت - ولا يستند - وقصته مشهورة في السير محفوظة».
وقال العلامة الألباني ﵀ في «ضعيف موارد الظمآن» (٩٧-٨٤١):
«منكر: والمحفوظ أن صاحب القصة كعب بن مالك - تخريج المشكاة (٣٤٣٩)».

[٧٤] صحيح:
أخرجه أبو داود (٣٣١١- عون المعبود) من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن كعب عن أبيه عن جده في قصته، قال:
قلت: يا رسول اللَّه، إن من توبتي إلى اللَّه أن أخرج من مالي كله إلى اللَّه وإلى رسوله صدقةً. =

وأعيان من الصحابة كانوا على هذا فأجراهم النبي ﷺ عليه، وائتمروا بأمر اللَّه واصطبروا على بلائه، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا، ولا ارتبطت أبدانهم بمال منها، وذلك لثقتهم بموعود اللَّه في الرزق وعزوب أنفسهم عن التعلق بغضارة الدنيا.

وقد كان من أشياخي من ارتقى إلى هذه المنزلة فما ادخر قط شيئًا لغدٍ، ولا نظر بمؤخر عينه إلى أحد، ولا ربط على الدنيا بيد»[1].

فههنا ثلاثة أصناف من الخلق: الأعم الأكثر، وهم أهل الحظوظ البشرية، والقليل وهم الذين ضعفت فيهم حظوظهم، والأقل الأندر وهم الذين زالت منهم تلك الحظوظ.

وقد أفادتنا السنَّة العملية المتقدمة في كلام الإمام ابن العربي أن لأهل الصنف الثاني أن يخرجوا عن كثير من أموالهم على مقدار ما بقي من حظوظهم، وأن لأهل الصنف الثالث أن يخرجوا منها كلها، وأما أهل الصنف

= قال: «لا»، قلت: فنصفه؟ قال: «لا»، قلت: فثلثه؟ قال: «نعم». قلت: فإني سأمسك سهمي من خيبر.

وإسناده حسن: رجاله ثقات غير ابن إسحاق - وهو محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «السيرة» - ف «صدوق يدلس» لكنه صرح بالتحديث فأمن تدليسه.

وقد تابعه ابن عيينة: أخرجه ابن مردويه كما في «الفتح» (٨/ ١٥٤) لابن حجر.

وتابعه أيضًا عقيل -وهو ابن خالد-: أخرجه البخاري (٢٧٥٧و٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) مطولًا دون تعيين لقدره.

ويونس عند البخاري (٤٦٧٦) ومسلم أيضًا؛ وغيرهم.

وبهذه المتابعات يرتقي الحديث إلى درجة الصحة، واللَّه أعلم.

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٢٠٤، ١٢٠٥).

الأول فلا يخرجون عن الوسط الذي بينته الآية .

وقد جاءت الآية الكريمة على مقتضى حال الأعم الأكثر لأنها قاعدة عامة في سياسة الإنفاق، وشأن القواعد العامة أن يعتبر فيها جانب الأعم الغالب، ولا يلتفت للنادر .

وقد وكل للنبي ﷺ بيانه فجاء مبينا فيما تقدم من سنته، وتقررت القاعدة واستثناؤها من الكتاب والسنة، وهما مصدر التشريع .

* * *

تفاوت الأرزاق من حكمة الخلاق

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٠].

لما أرشدنا تعالى إلى السلوك الأقوم في العمل في باب الإنفاق؛ أرشدنا إلى العقد الصحيح في مسألة تفاوت الأرزاق، وفي ذلك تمام الهداية إلى الاستقامة في الظاهر والباطن.

وأن أحوال العباد في الغنى والفقر، والسَّعة والضيق، وتعاقبها عليهم بسرعة وبمهل، وتفاوتهم فيها لما يخفى ولما يظهر من العلل - لأمر عجب عجاب يحيِّر الألباب.

فعلَّمنا اللَّه تعالى في هذه الآية أن الرب وهو الذي يربي المربوب في أحواله وأطواره بمقتضى الصلاح والصواب هو الذي يبسط ويوسع على من يشاء - ولا يشاء إلا ما هو حق وعدل وصواب وإن خفي علينا وجهه - ويقدر، أي يضيق على من يشاء، وكل أحد هو حقيق بالحال الذي هو فيه.

وأنه كان بعباده خبيرًا: مطلعًا على دواخل أمورهم وبواطن أسرارهم من أنفسهم، ومما يرتبط بهم ومن سوابقهم ومصائرهم.

بصيرًا: منكشفة له جميع أمورهم.

وكما أنه بالعمل بآية الإنفاق ينتظم أمر العباد في معاشهم، كذلك بالإيمان بهذه العقيدة تزول حيرتهم وتطمئن قلوبهم فيما يرونه من أحوال

الرزق في أنفسهم وفي غيرهم. واللّه يبصر القلوب ويقوِّم الأعمال، إنه سميع مجيب[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٦ م٦)، غرة صفر ١٣٤٩هـ - جويلية ١٩٣٠م.

حفظ النفوس
بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣١ - ٣٣].

إن الأرواح الإنسانية كريمة الجوهر لأنها من عالم النور، فقد خُلقت من نفخ الملك، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في «الصحيح»:

«إن أحدكم يُجمَع خَلقُه في بطن أمه أربعين يومًا نطفةً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح.. إلخ»[٧٥].

---

[٧٥] صحيح:

رواه البخاري (٣٢٠٨و٣٣٣٢و٦٥٩٤و٧٤٥٤) ومسلم (٢٦٤٣) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذي (٢١٤٢) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦) وابن ماجه (٧٦) وأحمد (١/ ٣٨٢و٤١٤و٤٣٠) وغيرهم عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق -:

«إن أحدكم يُجمَع خَلقُهُ فِي بَطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً، مثل ذلك، ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فو الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى=

والملائكة - كما في «الصحيح» - خُلقوا من النور»[٧٦].

وأنها كريمة الخلقة أيضًا لأنها فطرت على الكمال، ولذا أضافها اللَّه تعالى إلى نفسه في معرض الامتنان في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السَّجدَة: الآية ٩]، دع ما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال، أو تدسية تنحط بها إلى أسفل سافلين، وبعد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب المسمى بالإنسان، الذي جعله اللَّه تعالى خليفةً في الأرض ليعمرها ويستثمرها، ويعبرها إلى دار الكمال الحق والحياة الدائمة الأبدية.

هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلًا قطعيًا، وكليةً عامة في الدين، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة سنتكلم عليها واحدًا واحدًا:

(١) - حفظ النسل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ

= ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

والسياق لمسلم.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥٣):

«هذا الحديث متفق على صحته، وتلقته الأمة بالقبول».

(تنبيه): قال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٥٨٤):

«ووقع عند أبي عوانة من رواية وهب بن جرير عن شعبة مثل رواية آدم لكن زاد: «نطفة» بين قوله: «أحدكم» وبين قوله «أربعين» فبين أن الذي يجمع هو النطفة...».

[٧٦] صحيح:

أخرجه مسلم (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ:

«خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارجٍ من نارٍ، وخُلق آدم مما وصف لكم».

كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٣١] .

العرب في زمان البعثة هم المخاطَبون قبل الناس بالقرآن، وهم المأمورون أول الناس - لعموم الرسالة - بالبلاغ، وعلى اهتدائهم كان يتوقف اهتداء غيرهم، فمن الحكمة توجه القصد إلى تطهيرهم من مفاسدهم .

وقد كانوا في الجاهلية منهم من يقتل البنات خشية الفقر وليوفر ما ينفق عليهن لينفقه على نفسه وبيته وبنيه، ويرى النفقة عليهن ضائعة لأنه لا ينتظر منهن سعيًا للكسب ولا نصرةً على العدو، وهذه هي الموءودة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: الآية ٨-٩] .

على أنه قد كان من ساداتهم من يحيي الموءودة، فيشتريها من عند أبيها وينجيها من القتل، كزيد ابن نفيل القرشي[1] أبي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين ﵃، وصعصعة بن ناجية التميمي[2] الصحابي، جد الفرزدق الشاعر المشهور .

وقد كان قتل البنات شائعًا فيهم مستفيضًا، ومنهم - كما في «لسان العرب»[3] - من كان يئد البنين عند المجاعة، فجاء النهي عن القتل في الآية متعلقًا بلفظ الولد شاملًا للبنات والبنين، ومعه السبب الذي كان يحملهم على القتل، وهو خشية الإملاق: أي خوف الفقر والإقتار .

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٨٢٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ١٢٨) للذهبي، و«الإصابة» (٢٩٣٠) للحافظ .

(٢) ترجمته في «الإصابة» (٤٠٨٨).

(٣) في (١٥/ ١٣٦).

والمملق هو الذي خرج ماله من يده فلم يبق بها شيء، ومن مادته الملقة، وهي الصفاة الملساء[1].

فنهوا عن هذا القتل الفظيع مع ذكر سببه لتصوير حالتهم بوجه تام، وليتخلص من ذكر السبب إلى إبطاله ورده.

معالجة هذه الرذيلة؛ بإبطال سببها، وعظيم قبحها، وسوء عاقبتها:

أبطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فأخبر أن رزق الجميع عليه، وأنه متكفل برزق خلقه بما يسر لهم من أسباب جلية أو خفية، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى، والكبير والصغير.

كما أنه تعالى هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، كما في الآية السابقة، فهما مرتبطان بهذه المناسبة.

ومن ضلالهم أنهم نظروا إلى قوة الكبير فحسبوه مرزوقًا من نفسه فهداهم بقوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ إلى أن الكبار مرزوقون من اللّٰه بتقديره وتيسيره.

ولما كان لا فرق بين الكبير والصغير في الحاجة إلى لطف اللّٰه وضمان الرزق من اللّٰه، فلا وجه لخوف الفقر من وجود الأولاد وكثرتهم، لأنه ما من واحد منهم إلا ورزقه مضمون من خالقه ﷻ.

وبيَّن تعالى فظاعة هذا القتل بقوله: ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ بإضافة الأولاد إليهم، فإن الأولاد أفلاذ الأكباد، وبضعة من لحم المرء ودمه، ونسخة من ذاته، فمحبتهم فطرة، والعطف التام عليهم خلقة، فكيف يكون قبح وفظاعة فعل من بلغ بهم

---

(١) انظر «لسان العرب» (١٤/ ١٢٥).

القتل؟

وأي خير يرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفظع الجنايات على ألصق الناس به؟

وبيَّن تعالى سوء العاقبة لهذا القتل بقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾: أي إثمًا كبيرًا، لما فيه من قتل النفس، وقطع النسل، وهلاك الجنس، وخراب العمران، وسوء الظن بالله، وعدم خشيته، وعدم الشفقة على خلقه.

يقال: خطئ يخطأ خِطئًا، إذا قصد الفعل القبيح ففعله.

وأخطأ يخطئ خطأً، إذا قصد شيئًا فأصاب غيره.

ومن مثل وعيد الآية ما ثبت في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي ذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**» قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»[٧٧].

عموم حكم الآية وترغيبها:

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والحكم يعم بعموم اللفظ، كما أن ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص، لأنه ذكر لتصوير الحال الذي كانوا عليه، فالقتل حرام لأي سبب كان.

---

[٧٧] صحيح:

رواه البخاري (٤٤٧٧ و٤٧٦١ و٦٠٠١ و٦٨١١ و٦٨٦١ و٧٥٢٠ و٧٥٣٢) ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وزادا في آخره:

«قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك».

وهذا الفعل الذي كان في الجاهلية على الوجه المتقدم، وهو فعل مؤدٍّ إلى قطع النسل وخراب العمران، لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان، إما بالقتل بعد الولادة، وإما بإفساد الحمل بعد التخليق[1]، وهو حرام باتفاق.

وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعدم الإنزل في الفرج وهو العزل[2].

والآية كما نهت عن القتل قد رغبت في النسل بذكر ضمان الرزق، فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع وأن يتلقى ما يعطيه اللَّه من نسل، ابنٍ أو بنتٍ، بفرحٍ لنعمة اللَّه وثقةٍ برزق اللَّه وإيمان بوعده.

(٢) - حفظ الفرج: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٢].

في الزنى إراقة للنطفة وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع الصلة، ساقط الحق.

فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله.

ولهذا بعد ما نهى عن قتل الأولاد نهى عن الزنى الذي هو كقتلهم لأنه

---

(١) أي: بعد نفخ الروح فيه.

(٢) وهو جائز لحديث جابر رضي الله عنه قال: «كُنا نعزل والقرآن ينزل». أخرجه البخاري (٥٢٠٩)، ومسلم (١٤٤٠).

وفي رواية له: «كنا نعزل على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا».

لكن الأولى تركه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم». أخرجه أبو داود (٢٠٤٩) وغيره، وصححه الحاكم (٢/ ١٦٢) ووافقه الذهبي.

سبب لوجودهم غير مشروع.

قال الجوهري(١): «قربته أقربه قربانًا، أي (دنوت منه)».

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ أبلغ في النهي من (ولا تزنوا) لأنه بمعنى: ولا تدنوا من الزنى.

وأفاد هذا تحريم الزنى وتحريم الدنو منه، لا بالقلب ولا بالجوارح.

فقد جاء في «الصحيح»: «**كُتب على ابن آدم نصيبُه من الزنى، فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه**»[٧٨].

فزنى هذه الجوارح دنو من الزنى الحقيقي ومؤد إليه.

وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعي، وهو ستر الحرة ما عدا وجهها وكفيها، وجمع ثيابها عند الخروج بالتجلبب، وبما حرم من تطيب المرأة، وقعقعة حُليِّها عند الخروج، وخلوتها بالأجنبي، واختلاط النساء بالرجال، فتظافر النهي والتشريع على إبعاد الخلق عن هذه الرذيلة.

والمسلم المسلم مَن تحرَّى مقتضى هذا النهي وهذا التشريع في الترك والابتعاد.

---

(١) في الصحاح (١/ ١٩٨).

[٧٨] صحيح:

رواه البخاري (٦٢٤٣و٦٦١٢) ومسلم (٢٦٥٧) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة.

معالجة هذه الرذيلة بتقبيحها وسوء عاقبتها:

بيَّن تعالى قبحها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾.

والفاحشة: هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح.

وعظم قبح الزنى مركوز في العقول من أصل الفطرة، كان ولم يزل كذلك معروفًا.

ومن رحمة اللَّه تعالى بخلقه أن ركز في فطرهم إدراك أصول القبائح والمحاسن ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل إلى فعل المحاسن وترك القبائح، وتأتيهم بما هو معروف في الحسن أو القبح لهم، فتبين لهم حكم اللَّه فيه وما لهم من الثواب أو العقاب عليه.

وبين تعالى سوء عاقبة الزنى بقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس طريقًا طريقه، طريق مؤد إلى شرور ومفاسد كثيرة في الدنيا، وعذاب عظيم في الأخرى، فهو طريق إلى هلاك الأبدان، وفساد الأعراض، وضياع الأموال، وخراب البيوت، وانقطاع الأنساب، وفساد المجتمع وانقراضه، زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفوس الذي تقدم في صدر الكلام...

فعلى المؤمن إذا وسوس له الشيطان بهذه الرذيلة أن يتعوذ باللَّه منه، ويستحضر قبحها، والمفاسد التي تجر إليها، والإثم الكبير الذي يعقبها، وقبل ذلك كله حرمة النهي الشرعي عنها، فيكون ذلك له - بإذن اللَّه - وقاية منها...

(٣) عدم العدوان:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٣] .

جاء أسلوب هذه الآيات تدرجًا من الخاص إلى العام، فقتل الأولاد قتل للنفس التي حرَّم اللَّه، والزنى كالقتل للنفس كما قدمناه، وجيء هنا بالنهي الصريح عن قتل النفس، وأكد مقتضى النهي بوصف النفس بقوله: ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ والتحريم هو المنع، فحرم اللَّه معناه منع اللَّه، والتقدير حرم اللَّه قتلها، فحذف لدلالة: «لَا تَقْتُلُوا» عليه، فالمنهي عنه هو القتل، والمحرم هو القتل، فتأكد المنع بالنهي والتحريم.

وفي إسناد التحريم إلى اللَّه بعث للنفوس على الخشية من الإقدام على المخالفة، وتنبيه لها على ما يكفُّها عن الإقدام، وهو استشعار عظمة اللَّه.

القتل المحرم:

وبيَّن تعالى بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أن القتل المحرم هو القتل بالباطل، وأن القتل بالحق ليس بمنهي عنه.

وبيَّن الحق في الحديث الصحيح بقوله ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الزاني الثيب، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٧٩] في غير هذه الثلاث مما جاء في بيانات أخرى عند بعض الأئمة،

---

[٧٩] صحيح:

رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه. =

ويرجع إلى إحدى هذه الثلاث، أو يقال بتقدم هذا الحصر في الورود عليها.

وهذا القتل الحق لا يتولاه أفراد الناس في بعضهم، إنما يتولاه الإمام الذي إليه القيام بتنفيذ الأحكام وفصل الحقوق.

الردع عن العدوان بشرع القصاص:

القتل وسفك الدم عمل قديم في البشر، فلهم - على الجملة - ضراوة عليه وإلف به، وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه، فلذلك شرع اللَّه تعالى القصاص بين النفوس، وبين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

المظلوم من قتل عمدًا عدوانًا. والولي هو القريب، والسلطان هو التسلط.

والمعنى: ومن قتل عمدًا عدوانًا، فقد جعلنا لقريبه تسلطًا بتمكينه من القصاص.

= وله شاهد من حديث عثمان بن عفان: أخرجه أبو داود (٤٤٩١) والترمذي (٢١٦٣) وقال: «حديث حسن» والنسائي (٧/ ٩١-٩٢و١٠٣و١٠٤) وابن ماجه (٢٥٣٣) وأحمد (١/ ٦١-٦٢و٦٣و٦٥و٧٠) والحاكم (٤/ ٣٥٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٢٠١).

وآخر من حديث عائشة: أخرجه مسلم (١٦٧٦) (٢٦) - ولم يسق لفظه - والنسائي (٧/ ١٠١-١٠٢و٨/ ٢٣) والحاكم (٤/ ٣٦٧) وأحمد (٦/ ٥٨و١٨١و٢٠٥و٢١٤) من طرق عنها، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

وفي الباب عن جابر وعمار بن ياسر، أخرجهما الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٥٢و٢٥٣) فليراجعه من شاء.

لا يحفظ النفوس إلا العدل:

كفاء النفس نفس، فلا يقتل إلا القاتل بما قتل، دون غيره ودون تمثيل به، وبين تعالى هذا بقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ أي لا يتجاوز القصاص المشروع، لأن الإسراف ظلم ومثير للحفائظ؛ فيتسلسل الشر.

تسكين نفس الموتور:

الموتور هو من قُتل قريبه، ولفقد القريب لوعة ربما تذهب بالنفس إلى شر غاية، فذكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾، فإن قريب المقتول قد نصره اللَّه بما جعل له من القصاص، فإذا لم يستوف له في الدنيا، استوفى له في الأخرى.

والمؤمن بيقينه لا يرى يوم القيامة إلا قريبًا. وكفى باللَّه حسيبًا[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٧، م٦) غرة ربيع الأول ١٣٤٩هـ- أوت ١٩٣٠م.

حفظ الأموال باحترام الملكية

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ٣٤].

مال الشخص: هو ما كان ملكًا له.

واليتيم: هو من عدم أباه، من اليتم، بمعنى الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة.

ومن عدم أباه فقد عدم ناصره، فإذا بلغ النكاح فقد بلغ القوة فاستغنى عن الناصر، فلا يقال فيه يتيم في اللغة(١).

واعتبر الشرع الشريف وجود قوة العقل فمنع استقلاله ودفع ماله إليه بعد البلوغ حتى يؤنس منه الرشد.

والتي هي أحسن: الفعلة والخصلة التي هي أنفع.

والبلوغ إلى الشيء: الوصول والانتهاء إليه.

والأشدُّ: جمع شدَّة، كأنعم جمع نعمة، فالأشد هو القوي، وبلوغ الأشد هو بلوغ القوى والوصول إلى الحالة التي تحصل فيها القوى للإنسان، القوى البدنية والقوى العقلية، ولا يقال في الشخص قد بلغ أشده إلا إذا حصل على قواه من الجهتين.

فأما القوى البدنية فعلامة حصولها هو البلوغ.

---

(١) وكذلك في الشرع؛ لقوله ﷺ: «لا يُتْمَ بعد احتلام». أخرجه أبو داود (٢٨٧٠) عن علي رضي الله عنه، وحسنه النووي في «رياض الصالحين» (١٨٩٠)، وفي «المجموع شرح المهذب» (٦/ ٤٢٢).

وأما القوى العقلية فعلامة حصولها هو الرشد الذي يظهر في حسن التصرف.

وقد جمع العلامتين قوله تعالى في سورة النساء: -

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦].

فابتداء الأشد من البلوغ إذا كان معه رشد، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الأربعين كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

فالأربعون هي سن الاستكمال والاستواء والتمام في القوى، وهي السن التي بعث الله فيها النبي ﷺ للعالمين بشيرًا ونذيرًا، ولا يزال الإنسان في قوته - ما لم تعرض الطوارئ - إلى الخمسين، قال الشاعر[1]:

أخو الخمسين مجتمعُ أَشُدِّي ونجّذني مداورة الشؤون

ثم يأخذ في التراجع.

مال المرء قطعة من بدنه، ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه، وبه قوام أعماله في حياته.

فالأموال مقرونة بالنفوس في الاعتبار، فقرنت في النظم آية حفظ الأموال بآيات حفظ النفوس، كما قرن بينهما النبي ﷺ في قوله: «**فإن دماءكم**

(١) هو سُحيم، عبدُ لِبني الحسحاس بطن من بني أسد، شاعر مخضرم مشهور، عاش إلى أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر «الإصابة» (٣٦٧٨) للحافظ، و«الأعلام» (٣/ ٧٩) للزركلي.

وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[٨٠].

---

[٨٠] صحيح:

قطعة من الحديث الطويل في خطبته ﷺ في حجة الوداع، رواه جمع من أصحابه ﷺ، منهم:

١- أبو بكرة: أخرجه البخاري (٦٧و١٠٥و١٧٤١و٤٤٠٦و٥٥٥٠و٧٠٧٨و٧٤٤٧) ومسلم (١٦٧٩).

٢- جابر بن عبد اللَّه: أخرجه مسلم (١٢١٨) وليس فيه «وأعراضهم».

٣- عبد اللَّه بن عمر: أخرجه البخاري (١٧٤٢).

٤- عبد اللَّه بن عباس: أخرجه البخاري (١٧٣٩).

٥- أبو سعيد الخدري: أخرجه ابن ماجه (٣٩٣١) وأحمد (٣/ ٨٠) وصححه البوصيري وليس فيه «أعراضكم».

٦- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٧) وليس فيه «وأعراضكم» وصححه البوصيري.

٧- عمرو بن الأحوص: أخرجه الترمذي (٢١٦٤و٣٠٩٦) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في «الكبرى (٤١٠٠) وابن ماجه (٣٠٥٥).

٨- نُبيط بن شريط: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٠٩٧) وأحمد (٤/ ٣٠٥-٣٠٦) وإسناده صحيح.

٩- أبو غادية الجهني: أخرجه أحمد (٤/ ٧٦) ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٨٤).

١٠- العداء بن خالد: أخرجه أحمد (٥/ ٣٠).

١١- عم أبي حرة الرقاشي: أخرجه أحمد (٥/ ٧٢-٧٣) وفيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكنه حسن في الشواهد.

١٢- رجل من أصحاب النبي ﷺ: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٠٩٩) وإسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، واللَّه أعلم.

١٣- حِذْيم بن عمرو الساعدي: أخرجه النسائي وابن حبان في «صحيحه» - كما قال الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٤١/ ١٦٥٧) - من طريق موسى بن زياد بن حذيم عن أبيه عن جده.

وهذا إسناد ضعيف، موسى بن زياد «لا يعرف كأبيه» كما قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٠٥)، وأشار الحافظ في «التقريب» لذلك بقوله في ترجمة كُلٍّ منهما: «مقبول» يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث.

=

نهى تعالى عن قربان مال اليتيم إلا بالوجه الذي هو أنفع، فلابُدَّ لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع، وما هو ضار ولا نافع، وما هو أنفع، فلا يتصرف إلا بما هو نافع. فإذا تعارض وجهان نافعان تحرَّى أنفعهما لليتيم.

وفي هذا النهي - بطريق الأحرى - تحريم أخذ مال اليتيم بالباطل والتعدي عليه ظلمًا.

ومثل اليتيم في وجهي النهي المتقدمين غيره، فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرَّى التحري[1] المذكور.

كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره.

وإنما خص اليتيم بالذكر لأنه ضعيف لا ناصر له، والنفوس أشد طمعًا في مال الضعيف، فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه أشد.

ومن تأدب بأدب الآية في مال الضعيف، كاليتيم، كان حقيقا أن يتأدب بأدبها في مال غيره.

ومن بليغ إيجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على نظيره، أو الذي هو أحرى بالحكم منه، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعيًا إلى

= لكن الحديث صحيح لشواهده المتقدمة.

وفي الباب أحاديث أخر أخرجها الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٥-٢٧٣) فليراجعها من شاء.

(١) في الأصل: التحرير.

امتثاله في غيره بالمساواة أو الأحروية.

وأجاز تعالى لولي اليتيم أن يتصرف في ماله بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، فيجوز له تنميته لليتيم بوجوه التجارة.

الولاية والاستقلال:

الولاية على اليتيم واستقلاله حالتان كلتاهما حق وخير إذا كانت كل واحدة منهما في وقتها المناسب لها.

وكل واحدة منهما تكون ظلمًا وشرًا إذا كانت في غير وقتها.

فلذلك بين تعالى الحالتين ووقتهما بما قبل (حتى) وما بعدها.

فوقت عدم بلوغ الأشد هو وقت الولاية، فمن الفروض الكفائية على الأمة أن يكون أيتامها مكفولين غير مهملين.

ووقت بلوغ الأشد - ببلوغ الحلم والرشد - هو وقت استقلال من كان يتيمًا، ووقت دفع ماله إليه، فلا يجوز حينئذ الاستيلاء على ماله والسيطرة عليه.

* * *

الوفاء بالعهد

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

أوفى بعهده: إذا أتى بما التزم تامًّا وافيًا.

والعهد: من عهد إليه بالشيء إذا أعلمه به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: الآية ١١٥] أي أعلمناه.

فالعهد هو الإعلام بالالتزام، أو الإعلام بما يلتزم.

فمن الأول: عاهدت زيدًا على كذا. أي أعلمته بالتزامي له، وتعاهد القوم على الموت، أي أعلم بعضهم بعضًا بالتزامه.

ومن الثاني: عهد اللَّه إلى العباد أي إعلامهم بما عليهم أن يلتزموه.

وقول عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه: «الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، هذا عهد نبينا إلينا، وعهدنا إليكم»[٨١] أي إعلامه لنا، وإعلامنا لكم

---

[٨١] صحيح:

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٣/ ٢٧٧-٢٧٨/ ١٣٦٢- مع شرح الزرقاني) عن حميد بن قيس المكي عن مجاهد أنه قال:

كنت مع عبد اللَّه بن عمر فجاءه صائغٌ فقال له: يا أبا عبد الرحمن! إني أصوغ الذهب ثم أبيع الشيء من ذلك بأكثر من وزنه فأستفضل من ذلك قدر عمل يدي، فنهاه عبد اللَّه عن ذلك، فجعل الصائغ!؟ يردِّد عليه المسألة وعبد اللَّه ينهاه حتى انتهى إلى باب المسجد أو إلى دابة يريد أن يركبها، ثم قال عبد اللَّه بن عمر: =

بما يلتزم.

والمسؤول: مِن سأل. وسأل: بمعنى طلب، إما طلب علمًا وإما طلب شيئًا.

فإن كانت الأولى تعدى الفعل إلى المفعول الثاني بعن، تقول: سألته عن كذا فأجابني.

وإن كانت الثانية تعدى الفعل إليه بنفسه، تقول: سألته ثوبًا فأعطانيه.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ إذا كان من الأولى فالأصل «مسؤولًا عنه» فحذف إيجازًا لظهور المراد - وإذا كان من الثاني فلا حذف، والمعنى حينئذ مطلوب أي مطلوب الوفاء به.

الوفاء بالعهد شرط ضروري لحصول السعادتين:

عهد اللَّه تعالى لعباده هو ما شرعه لهم من دينه، فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم، وانتظام شؤونهم في هذه الحياة - أفرادًا وجماعات وأممًا - متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود، فالوفاء ضروري

= «الدينار . . . (فذكره)».

وهذا إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح، واللَّه أعلم.

وله شواهد عن:

١- أبي هريرة: أخرجه مسلم (٣/ ١٢١٢/ ١٥٨٨).

٢- علي: أخرجه ابن ماجه (٢٢٦١) والدارقطني (٣/ ٢٥) والحاكم (٢/ ٤٩) وقال: «صحيح غريب» ووافقه الذهبي.

٣- أبي أسيد الساعدي: أخرجه الحاكم (٢/ ١٩-٢٠) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١١٤) للطبراني في «الكبير» وقال: «إسناده حسن».

لنجاة العباد مع خالقهم، ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن، وضروري - إذًا - لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

ولمكانة هذا الأصل وضرورته تكرر في الكتاب والسنة الأمر به على وجه عام بين الأفراد والأمم بلا فرق بين الأجناس والملل.

وجاء هنا في آية الوصاية باليتيم، وهي آية حفظ الأموال باحترام الملكية، لوجهين:

الأول: أن الكافل لليتيم قد أعلن بكفالته - بلسان حاله - أنه ملتزم لحفظه في بدنه وماله، فهذا عهد منه يطالب بالوفاء به ويسأل عن ذلك الوفاء.

الثاني: أن الآية في حفظ الأموال وعدم التعدي على ملك أحد، والناس يتعاملون بحكم الضرورة، ويبنون تعاملهم على تبادل الثقة والعهود المبذولة من بعضهم لبعض بلسان المقال أو بلسان الحال، فأمروا بالوفاء بالعهد الذي هو أساس للتعامل، وفي ذلك سلامة مال كل أحد من التعدي عليه.

ولا ينافي هذا عموم اللفظ الذي يقتضي الأمر بالوفاء عامًّا لأنه باق على عمومه، وإنما يدخل فيه هذان الوجهان المذكوران في ارتباط النظم دخولًا أوليًّا.

ومن بديع إيجاز القرآن في نظم الآيات أن يؤتى باللفظ مفيدًا للعام ومقويًا للخاص.

الترغيب في الوفاء والترهيب من الخيانة:

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾

إذا كان مسؤول بمعنى مطلوب، أي مطلوب الوفاء به، فإنه مطلوب في الفطرة وفي الشريعة، فالعباد فطروا على استحسان الوفاء ومطالبة بعضهم بعضًا به، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم ووعدهم الثواب عليه.

ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ ترغيب لهم في الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه. ويتضمن هذا الترغيب بالتخويف من ترك المطلوب.

وإذا كان مسؤول بمعنى «مسؤول عنه» فإن المعنى: أن اللَّه تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن عهودهم هل أوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء، وعلى الخيانة بالعذاب والإهانة، «**فينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ويقال هذه غدرة فلان**» كما جاء في «الصحيح»[٨٢].

ففي الآية على هذا - أيضًا - ترغيب وترهيب.

* * *

---

[٨٢] صحيح:

رواه البخاري (٣١٨٨و٦١٧٧و٦١٧٨و٦٩٦٦و٧١١١) ومسلم (١٧٣٥) عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

ورواه البخاري (٣١٨٦) ومسلم (١٧٣٦) بنحوه عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

ورواه البخاري (٣١٨٧) ومسلم (١٧٣٧) عن أنس رضي الله عنه.

ورواه مسلم (١٧٣٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إيفاء الحقوق عند التعامل

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٥] .

إيفاء الكيل : إتمامه .

والقسطاس : هو الآلة التي يحصل بها الإيفاء من المكيال والميزان على تعدد أنواعهما .

والمستقيم : الصحيح الذي لا عيب فيه ، وممَّا يجعله غير صالح للوفاء بالعدل ، ككسره أو اعوجاجه أو أي خلل في تركيبه .

والخير : النافع .

والتأويل : مصدر أول ، بمعنى رجع من آل يؤول أولًا ، بمعنى رجع ، وهو هنا بمعنى المرجع والمآل ، أي العاقبة .

الأمر بإيفاء الكيل من موضوع ما قبله في الأمر بحفظ الأموال واحترام الملكية .

والمكيلات والموزونات مورد عظيم للتعامل ، ومعرضة تعريضًا كبيرًا للبخس والتطفيف ، وأخذ مال الناس بالزيادة أو بالتنقيص ، إمَّا بفعل الشخص وإما بفساد الآلة ، فأمر تعالى بإيفاء الكيل ، وأمر باختيار الآلة الصالحة لذلك ، وبين أن الوفاء يكون عند الكيل بقوله : ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ على سبيل التأكيد ،

حتى لا يتأخر الوفاء عن الكيل بأن يكمل ما نقص أو يرد ما زاد، فإن الذي يفصل الحق ويطيب النفوس هو الوفاء وقت الكيل.

* * *

الترغيب في إيفاء الكيل

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

رغب تعالى في الإيفاء بوجهين:

الأول: أنه خير، فيفيد العدل والحق وأكل الحلال وراحة البال، وفيه حصول الثقة التي هي رأس مال التاجر، وفيه حفظ نظام التعامل الذي هو ضروري للحياة، وهذه كلها وجوه نفع وخير.

الثاني: أنه أحسن عاقبةً عاجلًا في نفس الشخص وأخلاقه، وفي عرضه وسمعته، وفي سلامته من المطالبات والمنازعات، وآجلًا بحسن جزائه عند اللَّه بما أعد للموفين من الأجر العظيم.

تركيب على هذا الترغيب:

هذا الوجهان اللذان رغب اللَّه تعالى بهما في الوفاء - ينبغي للعاقل أن يجعلها نصب عينيه في كل ما يتناوله ويعمله، فيقتصر على ما هو خير ينفعه في الحال، وحسن العاقبة بنفعه وعدم ضرره في المآل.

واللَّه يوفقنا إلى خير الأقوال والأعمال، إنه الكريم الواسع النوال[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٨، م٦) غرة ربيع الثاني ١٣٤٩هـ- سبتمبر ١٩٣٠م.

العلم والأخلاق

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ . [سورة الإسراء، الآية: ٣٦ - ٣٧] .

المناسبة:

العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان. وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف، فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما، فجيئ بهما بعده ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آيته على آياتها تقدم الأصل على الفرع.

آية العلم:

المفردات والتراكيب:

القفو: اتباع الأثر، تقول: قفوته أقفوه، إذا اتبعت أثره، والمتبع لأثر شخص مُوالٍ في سيره لناحية قفاه، فهو يتبعه دون علم بوجهة ذهابه ولا نهاية سيره.

فالقفو اتباع عن غير علم، فهو أخص من مطلق الاتباع، ولذلك اختيرت

مادته هنا.

ولكونه اتباعًا بغير علم جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل. قال جرير:

وطال حذاري خيفة البين والنوى وأحدوثة من كاشح متقوف[1].

أي متقول بالباطل.

والعلم: إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة، سواء كانت تلك البينة حسًّا ومشاهدةً أو برهانًا عقليًّا، كدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن، هذا هو الأصل.

ويطلق العلم أيضًا على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جدًّا كما قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨١].

فسمى القرآن إدراكهم لما شاهدوا: علمًا، لأنه إدراك كاد[2] يبلغ الجزم لانبنائه على ظاهر الحال وإن كان ثَمَّ احتمال خلافه في الباطن، لأنه احتمال ضعيف بالنسبة لما شاهدوه.

والسمع: القوة التي تدرك بها الأصوات بآلة الأذن.

والبصر: القوة التي تدرك بها الأشخاص والألوان بآلة العين.

وقدم السمع على البصر لأن به إدراك العلوم وتعلم النطق، فلا يقرأ

(١) البيت في «ديوان جرير» (ص٢٨١) وفيه «غربة» بدل «خيفة»، و«يتقوَّف» بدل «متقوف».
(٢) في الأصل: كان.

ولا يكتب إلا من كان ذا سمع وقتًا من حياته .

والفؤاد: القلب، والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما، وإطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور .

وكان: تفيد ثبوت خبرها لاسمها، وكونها على صورة الماضي لا يدل على انقضاء ذلك الارتباط، ومثل هذا التركيب يفيد في الاستعمال استحقاق الاسم للخبر، فالجوارح مستحقة للسؤال، ويكون ذلك بالفعل يوم القيامة .

والمسؤول: الموجه إليه السؤال ليجيب .

وأولئك إشارة إلى هذه الثلاثة، وضمير (كان) عائد على (كل)، وضمير (عنه) عائد على (ما)، وضمير (مسؤولًا) عائدٌ على ما عاد عليه ضمير (كان) .

والتقدير: كل واحد من هذه الثلاثة: السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولًا عما ليس لك به علم .

العقل ميزة الإنسان وأداة علمه:

يمتاز الحيوان عن الجماد بالإدراك، ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها وأدرك نسب بعضها لبعض إيجابًا وسلبًا، وارتباط بعضها ببعض نفيًا وثبوتًا، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول .

فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكرًا .

ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير - امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام إلى التحليق في الجو مثلًا، وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال.

وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها - تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب.

وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم. عربوا كتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا. فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عصرهم، ومهدوا الطريق، ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وما ضيها ومستقبلها.

وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة، وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضًا بمكتشفاته العجيبة التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده، وثمرة تفكيره ونظره فيها.

وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه، كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي لتكاثر المعلومات، فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها، وهكذا يكون كل قرنٍ - ما دام التفكير

عمالًا - أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله .

فإذا قلَّت معلوماته قلَّت اكتشافاته . وهذا كما كان النوع الإنساني في أطواره الأولى .

وإذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها بقي حيث هو جامدًا ، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئًا فشيئًا ، وهذا هو طور الجمود الذي يصيب الأمم المتعلمة في أيامها الأخيرة عندما تتوافر الأسباب العمرانية القاضية بسنة اللَّه بسقوطها .

وإذا لم يصح إدراكه للحقائق أو لنسبها ، أو لم يستقم تنظيمه لها كان ما يتوصل إليه بنظره خطأ في خطأ وفسادًا في فسادٍ .

ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول .

وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئيًّا وكليًّا من قريب أو من بعيد .

وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ، وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها ، فتتخذ رؤوسًا جهالًا لأمور دينها وأمور دنياها ، فيقودونها بغير علم ، فيَضِلُّون ويُضِلُّون ، ويَهلكون ويُهلكون ، ويفسدون ولا يصلحون .

وما أكثر هذا - على أخذه في الزوال بإذن اللَّه - في أمم الشرق والإسلام اليوم .

العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات:

سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا، يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه. لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره.

وهذه الإدراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة في القوة والضعف، فمنها ما هو قوي معتبر، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار.

فالأول: العلم، وهو إدراك أمر على وجه لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه، وهو عام الاعتبار.

ويليه الظن، وهو إدراك لأمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه إلا ذاك، وهذه هي الحالة التي يطلق عليه فيها لفظ العلم مجازًا.

والثاني: الوهم، وهو إدراك لأمر على الوجه المرجوح.

والشك، وهو إدراك لأمر على وجهين أو وجوه متساوية في الاحتمال.

وكلا هذين لا يعوَّل عليه.

ولما كان الإنسان - بما فطر عليه من الضعف والاستعجال - كثيرًا ما يبني أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظن، وفي هذا البناء الضرر والضلال - بيَّن اللَّه تعالى لعباده - في محكم

كتابه أنه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم إلا على إدراك واحد وهو العلم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لا تتبع ما لا علم لك به، فلا يكن منك اتباع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لما لا تعلم.

فنهانا عن أن نعتقد إلا عن علم، أو نفعل إلا عن علم، أو نقول إلا عن علم.

فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوي عليه عقد قلوبنا، بل علينا أن ننظر فيه ونفكر، فإذا عرفناه عن بينة اعتقدناه وإلا تركناه حيث هو في دائرة الشكوك والأوهام أوالظنون التي لا تعتبر.

ولا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله أو نقوله، فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع كما جاء في «الصحيح»[٨٣]، بل علينا أن نعرضه على محك الفكر، فإن صرنا منه على علم قلناه، مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمان والمكان والحال.

فقد أُمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون(١)، وما حُدِّث قوم بحديث لا تبلغه

---

[٨٣] صحيح:

أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/ ١٠/ ٥) وأبو داود (٤٩٨٢) والحاكم (١/ ١١٢) عن أبي هريرة مرفوعًا وقال:

«صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

وصححه أيضًا النووي وغيره.

(١) كما قال علي ﷺ: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب اللَّهُ ورسولُه. أخرجه البخاري (١٢٨). قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٢٩٧): «والمراد بقوله: (بما يعرفون) أي: يفهمون».

عقولهم إلا كان عليهم فتنة[1] وإلا طرحناه.

ولا كل فعل ظهر لنا نفعله، بل حتى نعلم حكم اللَّه تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره، ونفعه وضره.

فما أمر تعالى إلا بما هو خير وصلاح لعباده، وما نهى تعالى إلا عما هو شر وفساد لهم أو مؤد إلى ذلك.

وإذا كان من المباحات نظرنا في نتائجه وعواقبه ووازنا بينها. فإذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضي فعله فعلناه وإلا تركناه.

فلا تكون عقائدنا - إذا تمسكنا بهذا الأصل الإسلامي العظيم - إلا حقًّا، ولا تكون أقوالنا إلا صدقًا، ولا تكون أفعالنا إلا سدادًا.

ولَعمر اللَّه، إنه ما دخل الضلال في عقائد الناس، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم، ولا كان الفساد والشر في أفعالهم، إلا بإهمالهم أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم.

تفصيل:

نهينا عن أن نتبع ما ليس لنا به علم، فالذي نتبعه هو ما لنا به علم، أي لنا علم يقتضي اتباعه بأن يكون من عقائد الحق وأقوال الصدق وأفعال السداد.

فأما ما كان من عقائد الحق في أمر الدين أو في أمر الدنيا فلا حظر في اعتقاد شيء منه.

---

(١) كما في أثر ابن مسعود: ما أنتَ بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه».

وأما ما كان من أفعال السداد فكذلك.

وأما ما كان من أقوال الصدق، ففيه تفصيل، إذ ليس كل قول صادق يقال، فالنقائص الشخصية في الإنسان لا تقال في غيبته لأنها غيبة محرمة، ولا يجابه بها في حضوره لأنها إذاية، إلا إذا ووجه بها على وجه النصحية بشروطها المعتبرة التي من أولها أن لا تكون في الملأ.

وهكذا يجب في مثل هذه الأصول الكلية عندما يتفقه فيها أن ينظر فيما جاء من الآيات والأحاديث مما في البيان لها والتفصيل في مفاهيمها.

تفريع:

الفرع الأول:

من اتبع ما ليس له به علم، فاعتقد الباطل في أمر الدين أو في حق الناس أو قال الباطل كذلك فيهما، أوفعل المحظور فهو آثم من جهتين: اتباعه ما ليس له به علم، واعتقاده أو قوله للباطل وفعله للمحظور.

ومن اعتقد حقًّا عن غير علم، أو قال في الناس صدقًا عن غير علم، أو فعل غير محظور عن غير علم، فإنه - مع ذلك - آثم من جهة واحدة، وهي اتباعه ما ليس له به علم، ومخالفته لمقتضى هذا النهي.

الفرع الثاني:

المقلد في العقائد الذي لا دليل عنده أصلًا، وإنما يقول: سمعت الناس يقولون فقلت - هذا آثم لاتباعه ما ليس له به علم.

فأما إذا كان عنده دليل إجمالي كاستدلاله بوجود المخلوق على وجود

خالقه فقد خرج من الإثم لتحصيل هذا الاستدلال له العلم.

والمقلد في الفروع دون علم بأدلتها متبع لمفتيه فيها، يصدق عليه باعتبار الأدلة التي يجهلها أنه متبع ما ليس له به علم، ولكنه له علم من ناحية أخرى وهي علمه بأن التقليد هو حكم اللّه تعالى في حق مثله من العوام بما أمر تعالى من سؤال أهل العلم، وما رفع عن العاجز من الإصر، وهو من العامة العاجزين عن درك أدلة الأحكام[1].

نصيحة على هذا الفرع:

أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير.

وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبيِّ ﷺ - الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم.

فحقٌّ على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم. ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب اللّه، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه[2].

---

(١) التقليد ضرورة، فلا يجوز إلا عند عدم التمكن من اتباع الدليل، لا فرق في ذلك بين العقائد والأحكام؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]. ويؤكده السياق والسباق، فتأمل.

(٢) على هذا المنهج السلفي الأقوم في تعليم العقيدة سار إمامنا المصنف - رحمه اللّه تعالى - في دروسه، فألقى على طلابه: «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، وقد نشرت مرات، برواية وتعليق أستاذنا محمد الصالح رمضان، أطال اللّه عمره في الصالحات.

أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب اللَّه، وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم أيضًا - إذا أفتوا أو أرشدوا - أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم، ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائمًا على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس.

فإلى القرآن والسنة - أيها العلماء - إن كنتم للخير تريدون.

الفرع الثالث:

المجتهد إذا أفتى مستندًا إلى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو الأقيسة أو النصوص الأخرى الظنية الدلالة، هل هو متبع لغير العلم؟

والجواب: لا، بل هو متبع للعلم، وذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: إن كل دليل يكون ظنيًّا بمفرده - يصير يقينًا إذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت له بالصواب. وهذا هو شأن المجتهدين في الأدلة الفردية.

الوجه الثاني: أن المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية لما له من العلم بالألة الشرعية الدالة على اعتبارها.

الوجه الثالث: أن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزمًا ويسمى كما تقدم - علمًا، فما اتبع المجتهد إلا العلم.

الفرع الرابع:

لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي ﷺ من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم.

فإذا كان الحكم ثابتًا بالحديث الصحيح مثل قيام الليل، ثم وجدنا حديثًا في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه، جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديدًا على وجه الترغيب.

ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه، وهذا هو معنى قولهم: «الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال» أي في ذكر فضائلها المرغبة فيها لا في أصل ثبوتها[1].

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه، لا يثبت بماجاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين.

الفرع الخامس:

أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب، فلا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم بما جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح.

وقد كثرت في تفاصيلها الأخبار من الروايات مما ليس بثابت، فلا يجوز

---

(١) انظر تحقيق هذه المسألة الهامة في بحث نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٦٥- ٦٨) والشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٢٢٨- ٢٣١).

الالتفات إلى شيء من ذلك.

ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب، مثل الملائكة، والجن، والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، وأشراط الساعة، وما لم يصل إليه علم البشر.

سؤال الجوارح يوم الهول الأكبر:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

من قال ما لم يسمع سئل يوم القيامة سمعه فشهد عليه، ومن قال: رأيت ولم ير سئل بصره فشهد عليه، ومن قال: عرفت ولم يعرف أو اعتقد ما لم يعلم سئل فؤاده فشهد عليه، لأنه في هذه الأحوال الثلاثة قد اتبع ما ليس له به علم.

وهذه الشهادة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النُّور: الآية ٢٤].

هذه الثلاثة تسأل على وجوه منها ما تقدم وهو الذي يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهي.

ومنها سؤال السمع لِمَ سمع ما لا يحل؟ ولِمَ لَمْ يسمع ما يجب؟

وسؤال البصر لِمَ رأى ما لا يحل؟ وعن جميع أعمال البصر من نظر البغض والاحتقار ونحو ذلك.

وسؤال الفؤاد عما اعتقد وعما قصد وجميع أعمال القلوب.

فوائد ختام الآية:

فختام هذه الآية تأكيد للنهي السابق وتفصيل لطرق العلم وتنبيه على لزوم حفظها واحدة واحدة، وترهيب للإنسان من اتباع ما لا يعلم بما يؤول إليه أمره

من فضيحة يوم القيامة وخزي بشهادة جوارحه عليه.

فاللَّه نسأل أن يجعلنا متبعين للعلم في جميع ما نعمل، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٩، م٦) غرة جمادى الأولى ١٣٤٩هـ- أكتوبر ١٩٣٠م.

آية الأخلاق

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٧] .

(١) **المفرادت والتراكيب:**

المرح: مشية فيها خفة ونشاط واختيال، ناشئة عن شدة فرح بالنفس.

تقول العرب: أمرح الكلأ الفرس فمرح، فهو فرس مرح وممراح، إذا شبع فأخذ يمشي بخفة ونشاط واختيال.

ويقال: مرح الرجل إذا اختال في مشيته ونظر في عطفيه، ولا يكون ذلك إلا لفرحه بنفسه وإعجابه بها.

وخرق الأرض: ثقبها.

والطول: ارتفاع القامة.

نصب (مرحًا) بـ(تمش) لأنه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه، إذ المرح جزئي من جزئيات المشي، فكأنه قال: لا تمرح مرحًا.

ونظيره قول الشاعر:

يعجبه السخون والبرود   والتمر حبًّا ما له مزيد[٢]

---

(١) ارتباط الآية بما قبلها في صدر الجزء السابق. [المصنف].

(٢) البيت لِرُؤْبَةَ بن العَجَّاج. انظر ملحق ديوانه (ص١٧٢)، وقارن بما في «لسان العرب» (٧/ ١٤٧-١٤٨). =

فنصب حبًّا بيعجب لأن الإعجاب متضمن للحب، أو نصب على أنه حال كجاءني زيد ركضًا.

ونصب طولًا على أنه تمييز أي من جهة الطول. والتقدير: ولن يبلغ طولك طول الجبال.

التفسير:

حبُّ الإنسان لنفسه غريزة فيه، وذلك يحمله على الإعجاب والفرح بها وبكل ما يصدر عنها، ويستخفه ذلك حتى يتركه يمشي بين الناس مختالًا متبخترًا، وهذه هي مشية المرح التي نهى اللَّه تعالى في هذه الآية عنها.

ولما كانت هي فرعًا عن الإعجاب بالنفس والفرح بها، فالنهي منصب على أصلها كما انصب عليها.

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن علة العجب أعقب اللَّه تعالى بيان الداء الذي نهى عنه بذكر الدواء الذي يقلعه من أصله، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

فذكر الإنسان بضعفه بين مخلوقين عظيمين من فوقه ومن تحته، فإذا ضرب برجليه الأرض في مرحه فهو لا يستطيع خرقها، وإذا تطاول بعنقه في اختيال فهو لن يبلغ طول الجبال، فقد أحاط به العجز من ناحيتيه، وذكر الإنسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض إعجابه بنفسه.

= ورؤبة راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، لما مات قال الخليل: دفنَّا الشِّعرَ واللغةَ والفصاحةَ.

توفي سنة ١٤٥هـ. انظر «الأعلام» (٣/ ٣٤).

نعم، الإنسان أعظم من الأرض والجبال بعقله، ولكنه لو سار على نور عقله لما مشى في الأرض مرحًا، لأن عقله يبصره بعيوب نفسه ونقائص بشريته، فلا يدعه يعجب بها، فلا يكون من المرحين.

فما مرح إلا وهو محروم من نور العقل مفتون بمادة الجسم، فذكر بضعف هذا الجسم وصغارته.

العجب أصل الهلاك:

إذا أعجب المرء بنفسه عمي عن نقائصها، فلا يسعى في إزالتها، ولها عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها، فعاش ولا أخلاق له، مصدرًا لكل شر، بعيدًا عن كل خيرٍ.

وعن العجب بالنفس ينشأ الكبر على الناس والاحتقار لهم، ومن احتقر الناس لم ير لهم حقًا، ولم يعتقد لهم حرمة، ولم يراقب فيهم إلًّا ولا ذمة، وكان عليهم - مثل ما كان على نفسه - أظلم الظالمين.

وإبليس اللعين - نعوذ باللَّه تعالى منه - كان أصل هلاكه من عجبه بنفسه، وأنه خلق من النار، وأنه خير من آدم، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين.

ترك العجب شرط في حسن وكمال الأخلاق:

تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل.

والعجب هو أساس الرذائل، فأول الترك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه كذلك.

ومن لم يكن معجبًا بنفسه كان بمدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه

عن نقائصها، لأن الإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلة تدعوه إلى ذلك التخلق والتنزه. فإذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة، وإذا رغب في الكمال كانت له إليه هزة، فلا يزال بين التذكيرات الإلهية والجبلة الإنسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال.

ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة - وهي أصول في علم الأخلاق - عنونًا عليها بآية الأخلاق.

* * *

تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الإيجاز

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ [الإسراء: الآية ٣٨] .

المناسبة:

إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هي السعادة الحقة، وأن التكاليف الإسلامية كلها شرعت لسوقه إليها، ولما كانت أصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمرًا ونهيًا بطريق الإطناب والتفصيل - أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الإيجاز والإجمال، قصدًا للتأكيد وتقرير هذه الأصول العظيمة في النفوس، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها، وهذا من بديع التأكيد، لاشتماله على السابق مع شيء جديد.

المفردات والتراكيب:

السيئ: هو القبيح، والقبائح المنهي عنها فيما تقدم، قبيحة لذاتها، ولنهي اللَّه تعالى عنها.

والمكروه: هو المبغوض المسخوط عليه، وهو ضد المحبوب المرضي عنه.

والمحاسن محبوبة للَّه، أمر بها، ويثيب عليها، ويرضى على فاعلها.

والمقابح مبغوضة له تعالى نهى عنها، ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبها.

وليس المكروه بمعنى عدم المراد لأنه لا يكون في ملكه تعالى ما لا يريد، وما تشاءون إلا أن يشاء اللَّه.

وليس بمعنى المنهي عنه نهيًا غير جازم، لأن ذلك اصطلاح فقهي حادث بعد نزول القرآن، والقرآن لا يفسر بالاصطلاحات الحادثة[1].

ذلك: إشارة إلى جميع ما تقدم من المأمورات والمنهيات على قراءة (سيئه)، فالمكروه هو سيئ ما تقدم، وهو القبائح المنهي عنها.

أو إشارة إلى خصوص القبائح على قراءة (سيئة).

ومكروهًا خبر (كان) على القراءة الأولى، وخبر ثان على القراءة الثانية.

وتقدم الكلام على القراءة الأولى: كل ذلك المذكور كان سيئه - وهو المنهيات - مكروهًا عند ربك ، ومفهومه أن حسنه - وهو المأمورات - محبوب عنده.

وعلى الثانية كل ذلك المنهي عنه كان سيئةً مكروهًا عند ربك، ، ومفهومه أن المأمور به حسن عنده.

التفسير:

عرف - تعالى - عباده في هذه الآية بمنطوقها ومفهومها - على ما تقدم في التقرير - أن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح

(١) وقد حصل بذلك للمتأخرين أغلاط شديدة في فهم نصوص الكتاب والسنة، وفي رسالتي «أحكام صلاة المسبوق في السنن والآثار» أمثلة أخرى لتلك الأخطاء، فليراجع المبحث الثالث منها، واللَّه ولي التوفيق.

المبغوض.

فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وأنه - تعالى - لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن، وفي علمهم بهذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه، فإن الحسن تميل إليه النفوس، والقبيح تنفر منه.

وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ غاية الترغيب في الحسن، والتنفير من القبيح، فإن الحسن جد الحسن ما كان حسنًا عند اللَّه تعالى، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحًا عنده.

وفي اسم الرب تنبيه على أن العلم بالحسن والقبيح على وجه التفصيل والتدقيق، حتى يكون المأمور به حسنًا قطعًا والمنهي عنه قبيحًا قطعًا، إنما هو له تعالى، وأن أوامره ونواهيه - تعالى - الجارية على مقتضى ذلك هي من مقتضى ربوبيته - تعالى - وتدبيره لخلقه.

* * *

مكانة هذه الأصول علمًا وعملًا

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: الآية ٣٩] .

المناسبة:

لما بُينت الأصول تمام البيان، وقُررت غاية التقرير، جاءت هذه الآية للتنويه بها، لحث العباد على تحصيل ما فيها من علم، والتحلي بما دعت إليه من عمل.

المفردات والتراكيب:

الحكمة: هي العلم الصحيح والعمل المتقن المبني على ذلك العلم.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: هي الفقه في دين اللّه والعمل به[1].

والقرآن حكمة لدلالته على ذلك كله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته الآيات المتقدمة من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

و(من) في ﴿مِمَّآ﴾ تبعيضية. و(من) في ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ بيانية، مجرورها بين المبهم وهو ما في قوله: (مما).

والتقدير: ذلك الذي تقدم بعض الحكمة التي أوحاها إليك ربك.

---

(١) انظر «جامع بيان العلم وفضله (٧٠) لابن عبد البر.

التفسير:

هذا ضرب آخر من تأكيد العمل بما تقدم والترغيب فيه ، فبين تعالى أن ما تضمنته الآيات المتقدمة كله حكمة ، فالمتحقق بما فيها من علم ، والمتحلي بما حثت عليه من أعمال ، هو الحكيم الذي كمل من جهته العلمية وجهته العملية ، وتلك أعلى رتب الكمال للإنسان .

وفي ذكر أنها بعضٌ مِن كلٍّ تنبيهٌ على جلالة كلها ، وهو عموم ما أوحى اللّٰه تعالى إلى نبيه ﷺ ، وتنبيهٌ أيضًا على أن شرح هذه الأصول فيما أفادته من علم وعمل ، والتفقه فيها يرجع فيه إلى الوحي ، ويعتمد في ذلك على بيانه .

وفيه بيان أن الوحي هو المرجع الوحيد لبيان دين اللّٰه تعالى وشرعه ، وما أنزله لعباده من الحكمة ، وذلك الوحي هو القرآن العظيم وسنة النبيِّ ﷺ الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم .

* * *

ختام الآيات

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٩].

المناسبة:

لما كانت هذه الآيات في أصول الهداية، وأساس الهداية وشرطها هو التوحيد، ختمت الآيات بالنهي عن الشرك كما بدئت به.

المفردات والتراكيب:

الإلقاء: هو الطرح.

والملوم: هو الذي يقال له: لِم فعلت القبيح؟ وما حملك عليه؟ ونحو هذا.

والمدحور: المبعد، وانتصبا على الحال.

المعنى:

نهى تعالى عن الشرك وأن يعبد معه سواه، فالعبادة بالقلب واللسان والجوارح لا تكون إلّا له.

وكما حذر في فاتحة الآيات بقعود المشرك في الدنيا مذمومًا بالشرك الذي ارتكبه، مخذولًا لا ناصر له.

كذلك حذر هنا بمآل المشرك في آخرته، بإلقائه في جهنم ملومًا على ما قدم، مطرودًا مبعدًا في دركات الجحيم.

نظرة عامة في الآيات المتقدمة:

قد تضمنت هذه الآيات على قِلَّتها الأصول التي عليها تتوقف حياة النوع البشري وسعادته من حفظ النفوس والعقول ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ الآية، والأنساب والأموال والحقوق ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾، والأعراض ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾، ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، والدين الذي هو عمدة ذلك كله، وفي حفظه حفظ لجميعها.

وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٢]. وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٩]، بيان من اللَّه تعالى لخلقه بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها، وهو سياج وقايتها وسور حفظها، وأن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها ومنه بدايتها وإليه نهايتها.

وكذلك المسلم الموفق يبتدئ حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها.

فاللَّه نسأل - كما منَّ علينا بها في البداية - أن يمنَّ علينا بها في النهاية.

اللَّهم هذا لنا وللمسلمين أجمعين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج١٠، م٦) غرة جمادى الثانية ١٣٤٩هـ- نوفمبر ١٩٣٠م.

القول الحسن

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: الآية ٥٣] .

اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان، والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاصلون، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك، ولما تلاقحت الأفكار والمشاعر، ولما تزايدت العلوم والمعارف، ولما ترقى الإنسان في درجات أنواع الكمالات، ولما امتاز على بقية الحيوانات.

فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه، وبريد عقله وواسطة تفاهمه.

فإذا حسن قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم، وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي على التعاون والتوازر، وجنى العالَم من وراء ذلك تقرر الأمن واطراد العمران.

وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك.

فالكلام السيئ قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستمداد والتعاون، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة، وهما أشرف ما تتحلى به القلوب، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون، وحلت القساوة والعداوة، وتبعهما

التخاصم والتقاتل. وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر.

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم هو القول الحسن، ولهذا أمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يرشد العباد إلى قول التي هي أحسن فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون، لوجهين:

الأول: أنهم أضيفوا إليه، وهذه إضافة شرف لا يكون إلا للمؤمنين به.

الثاني: أن الذين يخاطبون بهذا الإرشاد ويكون منهم الامتثال إنما هم من حصلوا على أصل الإيمان.

والتي هي أحسن: هي الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها، فيعم ذلك ما يكون من الكلام في التخاطب العادي بين الناس حتى ينادي بعضهم بعضًا بأحبِّ الأسماء إليه، وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم، حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء، وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه، دون إذاية لخصمه، ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به، وما يكون من باب إقامةالحجة وعرض الأدلة، فيسوقها بأجلى عبارة وأوقعها في النفس، خالية من السب والقدح، ومن الغمز والتعريض، ومن أدنى تلميح إلى شيء قبيح.

وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم.

وقد جاء في «الصحيح» أن رهطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، ففهمتها عائشة رضي الله عنها فقالت: وعليكم السام واللعنة. فقال لها رسول الله ﷺ:

«**مهلًا يا عائشة! إن اللَّه يحب الرفق في الأمركله**». فقالت: ألم تسمع ما قالوا؟ فقال: «**قد قلت: وعليكم**»[٨٤].

فكان الرد عليهم بمثل قولهم بأسلوب العطف على كلامهم وهو قوله: «وعليكم» أحسن من الرد عليهم باللعنة. فقال ﷺ القولة التي هي أحسن، وهذا هو أدب الإسلام للمسلمين مع جميع الناس.

وأفاد قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنُ﴾ بصيغة اسم التفضيل، أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام.

فحاصل هذا التأديب الرباني هو اجتناب الكلام السيئ جملة، والاقتصار على الحسن، وانتقاء واختيار الأحسن من بين ذلك الحسن.

وهذا يستلزم استعمال العقل والروية عند كل كلمةٍ تقال ولو كلمة واحدة، فربَّ كلمة واحدة أوقدت حربًا. وأهلكت شعبًا، أو شعوبًا. ورب كلمة واحدة أنزلت أمنًا، وأنقذت أمة أو أممًا.

وقد بين لنا النبي ﷺ مكانة الكلمة الواحدة من الأثر في قوله: «**الكلمة**

---

[٨٤] صحيح:

رواه البخاري (٦٠٢٤) و(٦٠٣٠) و(٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥) عن عائشة رضي الله عنها.

وله شاهد عن جابر رضي الله عنه: أخرجه مسلم (٢١٦٦) والبخاري في «الأدب المفرد» (١١١٠).

الطيبة صدقة»[٨٥]، **«واتقوا النار ولو بكلمة طيبة»**[٨٦].

وهذا الأدب الإسلامي - وهو التروي عند القول، واجتناب السيئ، واختيار الأحسن - ضروري لسعادة العباد وهنائهم.

وما كثرت الخلافات ، وتشعبت الخصومات، وتنافرت المشارب، وتباعدت المذاهب، حتى صار المسلم عدوَّ المسلم، والنبي ﷺ يقول: **«المسلم أخو المسلم»**[٨٧] إلا بتركهم هذا الأب، وتركهم للتروي عند القول،

---

[٨٥] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٢٨٩١) و (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«كل سُلامى من الناس عليه صدقة: كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة: و يعين الرجل على دابته فيحمل عليها - أو يرفع عليها - متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها الرجل إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

[٨٦] صحيح:

رواه البخاري (٦٠٢٣و٦٥٤٠و٦٥٦٣) ومسلم (٢/ ٧٠٤/ ١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: ذكر رسول اللَّه ﷺ النار فأعرض وأشاح، ثم قال: «اتقوا النار» ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنما ينظر إليها، ثم قال:

«اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

[٨٧] صحيح:

وردت هذه الجملة النبوية في أحاديث صحيحة عن جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد اللَّه بن عمر: أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).

٢- أبو هريرة: أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

٣- عقبة بن عامر: أخرجه ابن ماجه (٢٢٤٦) والحاكم (٢/ ٨) وقال:

«صحيح على شرط الشيخين»! ووافقه الذهبي وأقره المنذري في «الترغيب».

٤- سويد بن حنظلة: أخرجه أبو داود (٣٢٥٣) وابن ماجه (٢١١٩) وأحمد (٤/ ٧٩) والحاكم (٤/ ٢٩٩-٣٠٠) وصححه! ووفقه الذهبي!

=

والتعمد للسيئ بل للأسوإ في بعض الأحيان.

* * *

= وفي سنده جدة إبراهيم بن عبد الأعلى «مجهولة لا تعرف» كما في «عون المعبود» لكن الجملة المرفوعة منه صحيحة لشواهدها.

٥- عمرو بن الأحوص: أخرجه الترمذي (٣٠٩٦) وقال: «حسن صحيح».

٦- واثلة بن الأسقع: أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١) بإسناد ضعيف، لكن يشهد له ما قبله.

٧-رجل من بني سليط: أخرجه أحمد(٤/ ٦٦ و٦٩ و٥/ ٢٤ و٢٥و٣٧٩و٣٨١) بأسانيد، وإسناده حسن، ورواه أبو يعلى بنحوه كما في«المجمع» (٨/ ١٨٤) للهيثمي.

التحذير من كيد العدوِّ الفتَّان

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٣].

نزغ الشيطان: وسوسته ليهيج الشر والفساد.

وعداوته باعتقاده البغض، وسعيه في جلب الشر والضر.

وإبانته لعداوته بإعلانه لها كما علمنا القرآن.

وهو يلقي للإنسان كلمة الشر والسوء، ويهيج غضبه ليقوله، ويهيج السامع ليقول مثلها، وهكذا حتى يشتد المراء، ويقع الشر والفساد.

ولون آخر من نزغه، وهو أنه يحسن للمرءقول الكلمة التي يكون فيها احتمال السوء، ويلح عليه في قولها، ويبالغ في تحسين الوجه السالم منه، وفي تهوين أمر وجهها القبيح - حتى يقولها، فإذا قالها أعاد لسامعه بالنزغ يطمس عنه الوجه السالم منها، ويكبر له الوجه القبيح، ولا يزال به يثير نخوته، ويهيج غضبه، حتى يثور، فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه.

فحذر اللَّه تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه إذا تكلموا وإذا سمعوا، فيتباعدون عما فيه احتمال السوء فضلًا عن صريحه، ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له، ويتجاوزون عن سيئه الصريح ما أمكن التجاوز.

* * *

المحاسنة على الحال والظاهر والتفويض إلى الله تعالى في العواقب والسرائر

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٤] .

أقوى الأحوال مظنة لكلمة السوء هي حالة المناظرة والمجادلة، وأقرب ما تكون إلى ذلك إذا كان الجدال في أمر الدين والعقيدة.

فما أكثر ما يضلل بعضٌ بعضًا أو يفسقه أو يكفره فيكون ذلك سببًا لزيادة شقة الخلاف اتساعًا، وتمسك كلٍّ برأيه ونفوره من قول خصمه. دع ما يكون عن ذلك من البغض والشر.

فذكَّر اللَّه تعالى عباده بأنه هو العالم ببواطن خلقه وسرائرهم وعواقب أمرهم، فيرحم من يشاء ويعذب من يشاء بحكمته وعدله، فلا يقطع لأحدٍ أنه من أهل النار لجهل العاقبة، سواء كان من أهل الكفر، أو كان من أهل الفسق، أو كان من أهل الابتداع، كما لا يقطع لأحد بالجنة كذلك، إلا من جاء النص بهم[1].

فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته أنك من أهل النار، ولكن تذكر

(١) كالعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، فإنا نشهد لهم بالجنة على شهادة الرسول ﷺ. انظر شرح «العقيدة الطحاوية» (ص٤٢٦) لابن أبي العزِّ.

الأدلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته.

ولا يقال للمبتدع: يا ضال، وإنما تبين البدعة وقبحها.

ولا يقال لمرتكب الكبيرة: يا فاسق، ولكن يبين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم إثمها.

فتقبح القبائح والرذائل في نفسها، وتجتنب أشخاص مرتكبيها. إذ رُبَّ شخص هو اليوم من أهل الكفر والضلال تكون عاقبته إلى الخير والكمال، ورُبَّ شخص هو اليوم من أهل الإيمان ينقلب - والعياذ باللّٰه تعالى - على عقبه في هاوية الوبال.

وخاطب اللّٰه تعالى نبيه ﷺ - أنه لم يرسله وكيلًا على الخلق، حفيظًا عليهم، كفيلًا بأعمالهم.

فما عليه إلا تبليغ الدعوة ونصرة الحق بالحق، والهداية والدلالة إلى دين اللّٰه وصراطه المستقيم.

خاطبه بهذا ليؤكد لخلقه ما أمرهم به من قول التي هي أحسن للموافق والمخالف، فلا يحملنهم بغض الكفر والمعصية على السوء في القول لأهلهما، فإنما عليهم تبليغ الحق كما بلغه نبيهم ﷺ، ولن يكون أحد أحرص منه على تبليغه، فحسبهم أن يكونوا على سنته وهديه.

أحيانا اللّٰه عليهما، وأماتنا عليهما، وحشرنا في زمرة أهلهما، آمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١١، م٦) رجب ١٣٤٩هـ- ديسمبر ١٩٣٠م.

دعاء غير اللّه
من دعا غير اللّه فقد عبد ما دعاه
وهو في عبادته من الخاسرين

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٥٦] .

المفردات:

الدعاء: هو النداء لطلب شيء من المدعو، ولذلك لا يدعى إلا العاقل أو ما نزل منزلته مجازًا من الجمادات، أو ما كان له فهم لبعض الأصوات من العجماوات[1] .

وإذا كان لشيء معظَّم ليطلب منه ما هو وراء الأسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة، ولا يكون إلَّا من المخلوق لخالقه.

وإذا لم يكن كذلك فهو عادة، وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضا لغرض من الأغراض.

و(الزعم): القول بغير دليل.

و(من دونه): أي غيره.

و(الملك): الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه.

---

(١) جمع عجماء، وهي البهيمة.

و(كشف الضر): إزالته.

و(لا تحويلًا): نقلًا له إلى شخص آخر.

التراكيب:

أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون. وحذف مفعولا (زعم)، والتقدير زعمتوهم آلهة، للعلم بهما لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم آلهة في زعمهم.

ولا يملكون: وقع بعد الفاء، ولم يجزم في جواب الأمر، لأنه خبرلمبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية، ولا يصح أن تقصد بها السببية لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسببًا عن الدعاء، مثلها في قول الشاعر:

رب وفقني فلا أعدل عن سنن الساعين في خير سنن[1].

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق.

وليس كذلك الأمر في هذه الآية فإن عدم ملكهم متحقق، سواء دعوا أم لم يدعوا، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المتقدم.

المعنى:

قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين اتخذوا آلهة من دون اللَّه فعبدوها: ادعوا معبوداتكم هذه التي زعمتموها آلهة من دون اللَّه عندما ينزل

(١) البيت بلا نسبة كما في «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٢/ ٣٢٣).

بكم الضر، وانظروا هل تستطيع تلك المعبودات الباطلة أن تكشف وتزيل عنكم ذلك، أو أن تحوِّله عنكم إلى غيركم، فإنكم تجدونها عاجزة عن ذلك غير قادرة على شيء منه، و إنما يقدر على ذلك الإله الحق، وهو اللَّه الذي خلقها وخلقكم، فاعبدوه هو وادعوه هو، وأقلعوا عن عبادة ودعاء ما سواه.

الأحكام:

تدل الآية على أن دعاء غير اللَّه تعالى لدفع الضرر -ومثله جلب النفع- عبادة للمدعو، فإن المشركين كانوا يتعبدون لآلهتهم بهذا الدعاء الذي نهاهم اللَّه تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ووقوعه في غير محله.

وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغةً وشرعًا بغير ما دليل:

منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعًا:

«**الدعاء هو العبادة**»[٨٨].

وحديث أنس عند الترمذي مرفوعًا:

«**الدعاء مخ العبادة**»[٨٩].

وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل لمن بيده الخلق والتصرف، والعطاء والمنع، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر، أو

---

[٨٨] صحيح:
تقدم برقم (٥٥).

[٨٩] ضعيف بهذا اللفظ:
تقدم برقم (٥٦).

جلب النفع، فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة أي معظمها، وفي الثاني بأنه مخ العبادة أي خالصها.

ودلت الآية أيضًا على أنه لا يجوز دعاء غير اللَّه من المخلوقين أيّ مخلوق كان لدفع ضر - ومثله جلب نفع - لأن الآية نَعَتْ على المشركين دعاءهم مَن لا يملك كشف الضر ولا تحويله، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره، فلا مخلوق يجوز دعاؤه.

ودلت على أن كشف الضر أو تحويله - ومثله جلب النفع - إنما هو للمعبود الحق، لأن الآية استدلت عليهم في مقام الأمر بتوحيد اللَّه بالعبادة، بانتفاء ملك كشف الضر أو تحويله عن غير اللَّه، فأفاد ذلك قصر هذا التصرف عليه تعالى وحده.

استنتاج:

لما ثبت شرعًا أن الدعاء عبادة، فمن دعا شيئًا فقد عبده ولو كان هو لا يسمي دعاءه عبادة، جهلًا منه أو عنادًا، لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلَّف واعتباره.

ألا ترى لو أن شخصًا قام للصلاة بدون وضوء مستحلًّا لذلك، فلما أنكرنا عليه، قال: إنني لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة ولا أسميها صلاة، أترى ذلك يجيز فعله ويدفع عنه تبعته؟

كلا، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين، بل قد حكموا بردَّته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالًا، لأنه يكون قد أنكر معلومًا من الدين بالضرورة.

فالداعي لغير اللَّه تعالى يطلب منه قضاء حوائجه قد عبد من دعاه وإن لم يعتبر دعاءه عبادة، لأن اللَّه قد سماه عبادة، وإذا استمر على فعله ذلك مستحلًّا له بعد تعليمه وإرشاده يكون قد أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، وهو أن العبادة - والدعاء منها - لا تكون إلا للَّه، فيحكم بردَّته نظير مستحل الصلاة بلا وضوء بلا فارق.

تطبيق:

إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقًا في هذا الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد، فيدعون مَن فيها، ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم، وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجُّه قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم.

فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجُّههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وإن لم يعتقدوها عبادة، إذ العبرة باعتبار الشرع لا باعتبارهم.

فيا حسرتنا على أنفسنا! كيف لبسنا الدين لباسًا مقلوبًا حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال!؟

تحذير وإرشاد:

فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير اللَّه، وليحذِّروا غيرهم منه.

ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين.

* * *

نجاة المعبودين بهداهم، وهلاك العابدين بضلالهم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٧] .

المفردات:

(يبتغون) : يطلبون باعتناء واهتمام .

(الوسيلة) : سبب الوصول إلى البغية والقرب من المطلوب ، والوسيلة الموصلة إلى اللَّه هي عبادته ، وطاعته بامتثال أوامره ونواهيه ، والتزام محابه واجتناب مكارهه ، وهذا المعنى هو المراد هنا .

(أقرب) : أي في المكانة والمنزلة .

(يرجون رحمته) : ينتظرون إنعاماته[1] لافتقارهم إليه .

(ويخافون عذابه) : يخشون عقوبته وانتقامه لعلمهم بقوته وسلطانه ، وقصورهم عن القيام بجميع واجب حقه .

(محذورًا) : مخيفًا متحرزًا منه .

التراكيب:

أولئك : إشارة إلى المعبودين الذين وصفهم .

---

(١) انظر ما سيأتي التعليق عليه في (٢/ ١٥- ١٦ و٨٢).

و(يدعون) ضميره للداعين. وأصله يدعونهم، يبتغون خير أولئك.

و(أيهم): اسم موصول مضاف إلى ضمير المبتغين، وهو بدل بعضٍ من كلٍّ من الواو في (يبتغون).

و(أقرب) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو.

والجملة صلة الموصول، ويحتمل أن يكون أيهم استفهامًا مبتدأ، وأقرب خبر، وتقدير الكلام ينظرون أيهم أقرب.

نزول الآية:

قال ابن مسعود: هي في نفر من الإنس كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم[٩٠].

وجاء عنه وعن غيره أنها في الذين كانوا يعبدون الملائكة من العرب[٩١].

---

[٩٠] صحيح:

رواه البخاري (٤٧١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٨٧-١١٢٨٩) عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

(تنبيه): قال الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٥٠٥).

«وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية، وأما ما أخرجه الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود قال: كان قبائل العرب يعبدون صنفًا من الملائكة يقال لهم الجن، ويقولون: هم بنات الله، فنزلت هذه الآية».

فإن ثبت فهو محمول على أنها نزلت في الفريقين، وإلا فالسياق يدل على أنهم قبل الإسلام كانوا راضين بعبادتهم، وليست هذه من صفات الملائكة.

وفي رواية سعيد بن منصور عن ابن مسعود في حديث الباب «فعيَّرهم الله بذلك».

وكذا ما أخرجه من طريق أخرى ضعيفة عن ابن عباس أن المراد من كان يعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا».

[٩١] ضعيف:

انظر ما قبله.

المعنى:

أولئك الجن والملائكة، الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أربابًا قد أسلموا، فصاروا من عباد اللّٰه المؤمنين، يطلبون أسباب الزلفة والقرب عند ربهم، ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانة باجتهاده، وصالح عمله.

هذا على الإعراب الثاني

وعلى الإعراب الأول: يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفة عند اللّٰه فأحرى وأولى غيره، ويرجون بأعمالهم الصالحة رحمته، ويخافون بمخالفتهم عذابه. إن عذاب ربك كان من حقه وشأنه أن يتقى ويُحذَر لما فيه من عظيم الخزي وشديد الألم.

الأحكام:

أفادت الآية أن العبادة لا تنفع صاحبها إلا إذا كانت على الوجه الحق، وإلَّا فإنه لا يحصل منها إلا على الخيبة والوبال.

وأن المكلف لا يحمل شيئًا من إثم عمل غيره إذا لم يكن راضيًا به ولو كان ذلك العمل متسببًا عنه إذا لم يكن متسببًا هو فيه.

وأن المكلف مطالب أن يطلب أسباب القرب إلى اللّٰه بجد واجتهاد، وأن يكون جامعًا بين الرجاء والخوف في سلوكه.

التطبيق:

نعرف كثيرًا من الصالحين - رحمهم اللّٰه تعالى - قد شُيِّدت عليهم القباب، ونُذرت لهم النذور، وقُصدوا لقضاء الحاجات، ودُعوا في

المهمات، وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم، وبالغ فيه المستغلون له ممن ينتمون إليهم، فهم - إن شاء اللَّه تعالى - برآء من إثم ذلك كله، وإنما إثمه على فاعليه.

عبرة وتحذير:

يأتي يوم القيامة أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد اللَّه الصالحين، ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم. فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب.

فما أمرّ خيبتهم يومذاك! وما أعظم حسرتهم! ويا لها من عبرة لقوم يعقلون!.

فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة، وهذا الموقف المخزي!.

فبادروا إلى توحيد اللَّه بالدعاء الذي هو مخ العبادة، واقتصروا في جانب الصالحين على محبتهم، والترضية عليهم، وسؤال الرحمة لهم، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير، ولا تعظِّموهم بما لا يكون إلا للَّه رب العالمين.

واللَّه يبصرنا بالحق، ويهدينا إليه، ويجعلنا من حزبه، ويميتنا عليه، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج١٢، م٦) شعبان ١٣٤٩هـ- جانفي ١٩٣٠م.

الطور الأخير لكل أمة وعاقبتُه

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٨] .

تمهيد:

الأمم كالأفراد، تمر عليها ثلاثة أطوار: طور الشباب، وطور الكهولة، وطور الهرم.

فيشمل الطور الأول نشأتها، إلى استجماعها قوتها ونشاطها مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسَعة النفوذ وقوة السلطان، إلى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من استعداد، وما لديها من أسباب.

ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال. إما بانقراضها من عالَم الوجود، وإما باندراسها من عالَم السيادة والاستقلال.

وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار.

هذه السنة الكونية التي أجرى اللّٰه عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار

إليها في كتابه العزيز في غير ما آية.

فذكر أعمار الأمم وأنها مقدرة محددة بآجالها في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤].

وذكر إنشاء الأمم على إثر الهالكين في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١١].

وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

فإن بني إسرائيل ما استخلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه.

وذلك هو الطور الأول: طور الشباب للأمة الإسرائيلية.

وذكر الطور الثاني: وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النّحل: الآية ١١٢].

وذكر الطور الثالث: طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: الآية ٥٩].

وإهلاكهم يكون بعد إسباغ النعمة، وإقامة الحجة عليهم، وتمكُّن الفساد فيهم، وتكاثر الظلم منهم.

فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاث.

وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٨] .

الألفاظ:

«القرية»: المساكن المجتمعة ومادة (ق ر ي) تدل على الجمع، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى، وتطلق القرية مجازًا على السكان إطلاقًا لاسم المحل على الحال. ومنه هذا.

و«الإهلاك»: الإبادة والإفناء بالاستئصال كما فعل بعاد وثمود.

و«قبل يوم القيامة»: أي في الدنيا.

و«العذاب الشديد»: كأمراض الأبدان، وفساد القلوب، وانحطاط الأخلاق، وافتراق الكلمة، وتسليط الظُّلَّام، كما أرسل على بني إسرائيل عبادًا أولي بأس شديد فساؤوا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم، وكتسليط أهل الحق على أهل الباطل، وكالجدب والقحط وجوائح الأرض وجوائح السماء.

و«في الكتاب»: أي اللوح المحفوظ.

و«مسطورًا»: أي مكتوبًا أسطارًا مبينًا.

التراكيب:

«إنْ» نافية، و«مِن» زيدت لاستغراق الجنس وتأكيد العموم، و«إلَّا» أفادت مع «إن» النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب

الشديد، ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعًا .

و«أو» تفيد أحد الشيئين المذكورين على الإبهام وعدم التعيين .

و«ذلك» إشارة إلى المذكور من الهلاك والتعذيب .

المعنى:

يقول تعالى : ما من قرية على وجه الأرض إلا ولابد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها ، أو عذاب شديد لا يفنيها ولكنه يذيقها أنواع الآلام وشديد النكال . كان هذا قضاء سابقًا في علمنا ، ماضيًا في إرادتنا ، مكتوبًا أسطارًا في اللوح المحفوظ .

الأحكام:

أحكام اللَّه تعالى قسمان :

أحكام شرعية : وهي التي فيها بيان ماشرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه .

وأحكام قدرية : وهي التي فيها بيان تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه وما سبق في إرادته .

والأحكام الشرعية تقع من ا لعباد مخالفتها ؛ فيتخلف مقتضاها من الفعل أو الترك .

والأحكام القدرية لا تتخلف أصلًا ، ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعًا .

وفي هذه الآية حكم من أحكامه القدرية ، وهو أن كل قرية لابدَّ أن يصيبها

أحد الأمرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من إرادته، فلا يتخلف هذا الحكم، ولا تخرج عنه قرية.

إيضاح وتعليل:

اللَّه حكم عدل حكيم خبير، فما من حكم من أحكامه الشرعية إلا وله حكمته، وما من حكم من أحكامه القدرية إلا وله سببه وعلته. لا لوجوب أو إيجاب عليه، بل بمحض مشيئته، ومقتضى عدله وحكمته.

وقد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد في هذه الآية، وبين في غيرها سبب استحقاقها لهما فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: الآية ٥٩] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هُود: الآية ١١٧] ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٩] ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: الآية ١١] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطّلَاق: الآية ٨] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٢].

فأفادت هذه الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتوُّ والتمرد عن أمر اللَّه ورسله والكفر بأنعم اللَّه، وما ربك بظلام للعبيد.

توجيه:

الطور الأخير للأمم هو الذي ذكر في الآيات كثيرًا دون الطور الأول والثاني.

ووجه ذلك أنه هو الطور الذي ينتشر فيه الفساد، ويعظم فيه الظلم، وينتهي فيه الإعذار للأمة، ويحلُّ فيه أجلها، فينزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب.

فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه، والتخويف من سوء عاقبته، والحث على تدارك الأمر فيه، بالإقلاع عن الظلم والفساد، والرجوع إلى طاعة اللَّه، وإعمال يد الإصلاح في جميع الشؤون؛ فيرتفع العذاب بزوال ما كان لنزوله من أسباب.

استنتاج وتطبيق:

القُرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال، هذه قد انتهى أمرها بالموت وفات عن العلاج، مثل عاد وثمود من الأمم البائدة.

وأما القرى التي قضي عليها بالعذاب الشديد، فهذه لا تزال بقيد الحياة، فتداركها ممكن وعلاجها متيسر، مثل الأمم الإسلامية الحاضرة.

فمما لا شك أن فينا لظلمًا وعتوًّا وفسادًا وكفرًا بأنعم اللَّه، وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد.

ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض. وأن لهم لقسطهم من العذاب الشديد، إذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما، فلأنه لكل أمة أجل، ولما يأت ذلك الأجل بعد. فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

إرشاد واستنهاض:

قد ربط اللَّه بين الأسباب ومسبباتها، خلقًا وقدرًا، بمشيئته وحكمته، لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها، ونجتنبها باجتناب أسبابها.

وقد عرفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب، فنسلم أو نقلع عنها فننجو. فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب.

وقد ذكر لنا في كتابه أمةً أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعدما كان ينزل بها، ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبب، فقال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يُونس: الآية ٩٨].

فبمبادرتهم للإيمان، وإقلاعهم عن الكفر، كشف عنهم العذاب.

وأرشدنا في ضمن هذا إلى العلاج الناجع في كشف العذاب وإبطال أسبابه وهو الإيمان، كما أرشدنا إليه أيضًا في قوله تعالى قبل هذا: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يُونس: الآية ٩٨] أي نجاها من العذاب، وذكر قوم يونس دليلًا على ذلك.

وأرشدنا إليها أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ٩٦].

فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب.

ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفرادًا وجماعاتٍ، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه، ثم فيمن إليه ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته، فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه؛ كان خليقًا أن يصل إلى غايته أو يقرب منها.

ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد، ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا.

فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله.

وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا.

ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز، والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى. وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على اللَّه بعزيز.

رجاء وتفاؤل:

إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء، وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج.

وأن ذلك وإن كان يبدو اليوم قليلًا لكنه بما يحوطه من عناية اللَّه، وما يبذل

فيه من جهود المصلحين - سيكون بإذن اللَّه كثيرًا، وعسى أن يكون في ذلك خير لأمم الأرض أجمعين.

حقق اللَّه الآمال، وسدد الأعمال، بلطف منه وتيسير، إنه نعم المولى ونعم النصير[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٧) رمضان ١٣٤٩هـ- فيفري ١٩٣١م.

التكريم الرباني للنوع الإنساني

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٠] .

اللغة:

(كرَّمنا) : الكرم ضد اللؤم، يوصف به الشيء لشرفه في ذاته بكمال صفاته أو لحسن أفعاله وما يصدر عنه من النفع لغيره .

فيقال فرس كريم وشجرة كريمة وأرض كريمة، إذا حسنت هذه الأشياء في ذواتها وكملت فيها صفات أنواعها .

ويقال: نفس كريمة، إذا كملت بمحاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس .

وقالت بلقيس في كتاب سليمان عليه السلام : ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النّمل: الآية ٢٩] لأنه كان على أكمل ما تكون عليه الكتب: من بيان اسم مرسله، وذكر اسم اللَّه تعالى في أوله وختمه على ما فيه، هذا كله من كرم الذات بما كمل فيها من صفات .

ووصف جبريل بأنه رسول كريم[1] لشرف ذاته الملكية ، وحسن أفعاله بما كان على يده من نفع للخلق بتبليغ الوحي والهُدى، وهذا من كرم الذات

(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

والأفعال، وهو الكرم الكامل الذي يكون بشرف الذات ونفع الأفعال.

ويقال: كَرُمَ الشيءُ - بضم الراء - لازمًا، ويتعدى بالهمز والتضعيف، فيقال أكرمته وكرَّمته بمعنى واحد، أي فعلت له فعلًا فيه رفعة له ومنفعة.

فكرمنا بني آدم، أي فعلنا لهم ما فيه رفعتهم ومنفعتهم، من إنعاماتنا عليهم.

و(حملناهم): من الحمل بمعنى الرفع، أي أركبناهم ورفعناهم على المركوبات مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: الآية ٩٢] . ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: الآية ١٣] ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: الآية ٣] .

و(الطيبات): ما يطيب للأكل والشرب مما يلذ في الطعم وتحمد عاقبته، فلا يكون الطيب إلا حلالًا، لأن غير الحلال - وإن لذ طعمه في بعض أقسامه - فإنه لا تحمد عاقبته بما فيه من إثم وتبعة، وما يكون فيه من ضرر.

و(فضلناهم): من الفضل بمعنى الزيادة، أي صيرناهم ذوي فضل وزيادة في الكرامة، كما تقول: فضلت زيدًا على عمرفي العطاء، أي صيرته ذا فضل وزيادة عليه فيه.

التراكيب:

متعلق (حملناهم) محذوف لقصد التعميم المناسب لمقام الامتنان بالتكريم مع الاختصار، تقديره: على كل ما يصلح لحملهم عليه.

المعنى:

يقول تعالى: ولقد أنعمنا على بني آدم نعمًا عظيمةً كثيرةً في خلقتهم من تركيب أبدانهم وأرواحهم وعقولهم، وفي حياتهم بما مكَّناهم منه من أسباب السلطان على غيرهم من الخلق، من عالم الجماد والنبات والحيوان، وتسخير هذه العوالم لهم يحصلون منها منافعهم، فأوصلنا إليهم هذه النعم وكرمناهم بها، فنفعناهم ورفعنا أقدارهم.

ومن هذا التكريم والإنعام الذي فيه المنفعة وفيه الرفعة، أننا سخرنا لهم ما يركبونه في البر والبحر، ومكناهم من أسباب تسييره والانتفاع به، وأننا بثثنا لهم على وجه الأرض أنواعًا من المآكل والمشارب اللذيذة المباحة من النبات والحيوان والجماد، فخلقناها صالحة لغذائهم، ومكناهم من أسباب تحصيلها وإصلاحها والتفنن فيها. فكان لهم بذلك كله زيادة بينة من نعمتنا، وفضل محقق على كثير من مخلوقاتنا.

مسائل:

الأولى: تكريم اللَّه تعالى لخلقه، قسمان: أحدهما عام، والآخر خاص.

فأما العام: فهو إخراجه لهم من العدم إلى الوجود، وإعطاؤه لكل شيء منهم خلقته اللائقة به، من تركيب أجزاء ذاته، وتعديل مادة تكوينه، ومن أعضائه - إذا كان من ذوي الأعضاء - التي يحتاج إليها في حياته لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهدايته وإلهامه ما خلق صالحًا لذلك إلى استعمال تلك الأعضاء وطرق الجلب والدفع بها.

وأما الخاص: فهو تكريمه وإنعامه على عباده المؤمنين بنعمة الإسلام في الدنيا، وبدار السلام في الأخرى.

والتكريم المذكور في هذه الآية من القسم الأول العام كما سيتبين في المسألة الرابعة.

المسألة الثانية: جميع المخلوقات التي أخرجها اللَّه تعالى من الوجود إلى العدم[1] وإن كانت متساوية في أصل التكريم العام، فإنها متفاوتة فيه بحسب تفاوتها في شرف الذات وكمال الخلقة، فعالم النبات أكثر حظًّا في التكريم من عالم الجماد، وعالم الحيوان أكثر حظًّا منهما، ونوع الإنسان أكثر حظًّا في التكريم العام من جميع الحيوان.

المسألة الثالثة: عظم حظ الإنسان من هذا التكريم من جهة ذاته بحسن صورته واعتدال مزاجه، ومن جهة روحه بأنها من العالم النوراني العلوي، وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتحلي بأكمل الصفات وأطهر الأخلاق، ومن جهة عقله الذي به أدرك الحقائق وحصل المعارف، وعرف الأسباب ومسبباتها ووجوه ارتباطاتها واتصالاتها ونسبة بعضها إلى بعض، فملك وساد واستفاد وأفاد.

المسألة الرابعة: هذا التكريم المذكور في المسألة السابقة هو عام للنوع الإنساني من حيث هو إنسان؛ لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر، لأنه راجع للخلقة الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع، والتمكين من أسباب المنافع

---

(١) كذا في الأصل!.

الذي هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير، وهذا هو مقتضى العموم المستفاد من لفظ (بني آدم).

ومثل هذا التكريم في العموم الحمل في البر والبحر والرزق لأنهما من جملة التكريم، كما تقدم في فصل بيان المعنى.

المسألة الخامسة: تفضيل اللَّه تعالى لمن يشاء من خلقه قسمان: تفضيل في الخلقة، وتفضيل في الجزاء والمثوبة.

فمن الأول تفضيل بني آدم المذكور في هذه الآية بما كرموا به وأعطوه في خلقتهم من الوجوه المتقدمة زائدًا على كثير من مخلوقات اللَّه مما كانت لهم به الرفعة والمنفعة لجميع نوعهم على العموم.

ومن الثاني تفضيل المجاهدين على القاعدين في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٥].

المسألة السادسة: اقتضى قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ أي بما كرمناهم به في خلقتهم أنهم لم يفضلوا على جميع مخلوقات اللَّه وأن بعض المخلوقات أفضل منهم في الخلقة وأكثر منهم كرمًا في الجنس، فمن هو هذا المخلوق المفضل عليهم؟

هذا ما نبينه في المسألة التالية:

المسألة السابعة: إذا نظرنا في عوالم المخلوقات فإننا نجدها منقسمة إلى قسمين: قسم مشاهد، وقسم غير مشاهد علمناه بالوحي الصادق من الكتاب والسنة.

فالقسم الأول: هو عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان، وهذا القسم كله قد فضل عليه الإنسان بميزة عقله التي ساد بها الجميع وبغيرها مما تقدم.

والقسم الثاني: هو الملائكة والجن.

فأما الجن، فالإنسان أشرف منهم خلقةً وأكرم عنصرًا، فهم ظلمانيون خلقوا من النار. وهو ترابي وروحه من عالم النور الذي هو عالم الملائكة. فلذا كان أهلاً لاصطفاء الرسل منه كما اصطفيت من الملائكة، ولم يصطف من الجن رسول ولا نبي.

وأما الملائكة فخلقتهم أشرف من خلقة الإنسان وأكرم، لأنهم خلقوا من نور محض، منزهة أجسامهم النورانية عن كثافة الأجساد الإنسانية الترابية وأخلاطها وظلمتها، فلم يفضل عليهم النوع الإنساني في الخلقة بل فضلوا عليه، فهم غير الكثير الذي فضل عليه الإنسان.

المسألة الثامنة: المفاضلة تقع بين الملائكة وبني آدم على وجهين: إمَّا من جهة الخلقة، وإمَّا من جهة المثوبة.

فأما من جهة الخلقة فقد عرفنا في المسألة المتقدمة أن الملائكة أفضل، والآية ظاهرة في ذلك ظهورًا بيِّنًا.

وأما من جهة الأجر والمثوبة فهو خارج عن معنى الآية وموضوعها، وأفضل الخلق ﷺ أفضل منهم قطعًا.

وفي المفاضلة بين الأنبياء والملائكة في الأجر والثواب خلاف كبير،

وتفويض أمر ذلك إلى اللَّه تعالى في مقام التذكير أسلم.

سلوك المكرمين - حكمة الامتنان بتكريم الإنسان:

امتن اللَّه تعالى على بني آدم بهذا التكريم لهم في شرف الخلقة ورفعتها وكثرة المنفعة وتيسير أسبابها، تذكيرًا لهم بنعمته ليشكروها فيزيدهم منها، وتعريفًا لهم بشرف أنفسهم ليقدروها فينتفعوا بها.

فهذان الأمران هما الحكمة المقصودة بهذا الامتنان، فلنتكلم عليها في الفصلين التاليين.

شكر العبد لنعمة ربه:

قد ابتدأنا بهذه الكرامة في الخلقة بدون سعي منا ولا عمل، وهوالمبتدئ بالنعم قبل استحقاقها. فمن قبل هذه الكرامة وشكرها كان من المكرمين، ومن لم يعرف قيمتها وكفرها كان من المهانين. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحَجّ: الآية ١٨].

فلنقابل هذا التكريم في الخلقة بالشكر الجزيل بأن نعقد قلوبنا على تعظيم النعمة به، ونطلق ألسنتنا بالإعتراف والثناء على مسديه، ونستعمل هذه الخلقة الكريمة في مراضي ربنا وطاعته. متوسلين بشكر ما ابتدأنا به خالقنا من تكريم الخلقة، إلى ما وعد به الشاكرين من تكريم الجزاء والمثوبة بأنواع ألطافه وإنعامه، وجزيل فضله وإكرامه. فسبحانه ذا الجلال والإكرام.

معرفة العبد لقدر نفسه:

قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة، فعلينا أن نعرف قيمتها، وأن نقدرها

قدرها . وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه .

فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها .

وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات .

وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي، وتجميلها بالطاعات، فنتحرى بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأعمال، ونترفع عن جميع الرذائل والدنايا، ونتباعد عن كل مواطن السوء والسفالة .

ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام اللّٰه والناس، ونجتهد أن لا يُمَسَّا بسوء لا مِنَّا ولا من غيرنا .

فإذا قدرنا - هكذا - أنفسنا وشكرنا - كما تقدم - ربنا، بلغنا - بإذن اللّٰه تعالى - أبعد الغايات من التكريم والتفضيل .

يسَّرنا اللّٰه والمسلمين أجمعين لما يسَّر له عباده المكرمين المفضلين، برحمتك يا أرحم الراحمين[1] .

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م٧) غرة شوال ١٣٤٩هـ- مارس ١٩٣١م.

الصلاة لأوقاتها

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] .

المفردات:

(أقم) : أمر من أقام أي اجعلها قائمة ، وذلك بحفظها والمحافظة عليها .

وحفظها : صونها من الخلل في شروطها وأركانها ، من أقوالها وأعمالها ، في الظاهر والباطن .

والمحافظة عليها بالمداومة عليها في أوقاتها .

(الصلاة) : المراد الصلوات الخمس المكتوبة .

(لدلوك) : اللام : لام الأجل والسببية .

(الدلوك) : هو الميل ، وبدايته عند الزوال ونهايته بالغروب .

(إلى) : لانتهاء الغاية ، فغسق الليل هو نهاية غاية الإقامة .

(الغسق) : هو ظلمة الليل ، وبداية الظلمة بالغروب ، وتمامها بعد مغيب الشفق عند اشتداد الظلمة .

(قرآن الفجر) : ما يقرأ به في صلاة الفجر - وهي الصبح - من القرآن ، فسميت قرآنًا من تسمية الكل باسم جزئه تنبيهًا على أهمية ذلك الجزء ومكانته .

(مشهودًا) : محضورًا .

التراكيب:

أفادت اللام السببية أن ميل الشمس سبب في وجوب الصلاة و(إلى) عند التجرد عن القرائن لا يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها، لكن هنا قامت القرينة الشرعية - وهي مشروعية الصلاة في الليل - على أن ما بعد (إلى) داخل في حكم ما قبلها، فهو محل أيضًا لإقامة الصلاة فيه.

وقرآن الفجر منصوب عطفًا على الصلاة، وخصصت بالذكر لأنها لم تكن عند ميل الشمس ولا عند الغسق. بل تكون عند الوقت الذي أضيفت إليه وهو الفجر.

وجملة ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تذييل لتأكيد إقامة صلاة الفجر.

المعنى:

أقم يا محمد ﷺ -وأمره أمر لأمته لأنهم مأمورون بالاقتداء به - الصلاة لأجل ميل الشمس، فأدِّ الظهر والعصر، وفي غسق الليل فأد المغرب والعشاء وأقم صلاة الفجر إنها صلاة مشهودة.

بيان وتوجيه:

هذه الآية قد انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ووجِّه ذلك بوجوه:

الأول: أن الظهر تكون أول الميل، والعصر تكون وسطه. وأن المغرب تكون عند أول الغسق، والعشاء تكون عند شدته بمغيب الشفق، والصبح عند الفجر.

الثاني: أن الظهر عند أول الميل، والعصر عند وسطه، والمغرب عند نهايته، والعشاء عند الغسق أي اشتداد الظلمة بمغيب الشفق.

والفرق بين الأول والثاني أن الأول اعتبر المغرب عند بداية الظلمة والثاني اعتبرها عند تمام الميل، وهما في الواقع متلازمان، فإنه إذا تم الميل ابتدأت الظلمة.

الثالث -ولم أره لأحد واللفظ يحتمله-: أن ميل الشمس يبتدئ بالزوال، وينتهي فيما يرى لنا بالبصر بمغيب الشفق، غير أن ميلها في الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها، وميلها بعد الغروب مستدل عليه بما يشاهد من أخذ الشفق في المغيب إلى أن يغيب بتمامه، ولا شك أن ذلك نتيجة ميلها من وراء الأفق، فالصلوت الأربع على هذا واجبة لدلوك الشمس.

أما غسق الليل فهو اشتداد ظلمته، وذلك يكون على أتمه بعد مضي الثلث الأول من الليل، فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجًا عن حكم ما قبل (إلى)، لأن وقت العشاء ينتهي بانقضاء الثلث الأول، فالأوقات تنتهي عند غسق الليل.

تفسير نبوي:

أخرج البخاري - رحمه اللَّه تعالى - في «صحيحه» عن أبي هريرة - رضي اللَّه تعالى عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«تفضل صلاةُ الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءًا، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر».

ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] [٩٢].

فاستشهد أبو هريرة بالآية على الحديث ليبين أنه تفسير لها، وأن صلاة الفجر مشهودة، تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعا إلى النَّبيِّ ﷺ [٩٣].

وجاء اجتماع الملائكة بأبسط من هذا عند مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأخرج في «موطئه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّٰه ﷺ قال:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون» [٩٤].

---

[٩٢] صحيح:

رواه البخاري (٦٤٨) و (٤٧١٧) ومسلم (٦٤٩) والنسائي (١/ ٢٤١) وأحمد (٢/ ٢٣٣و٢٦٦) عن أبي هريرة.

[٩٣] صحيح:

رواه أحمد (٢/ ٤٧٤) وابن ماجه (٦٧٠) بإسنادين:

الأول: عن الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ.

والآخر: عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] قال:

«تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار».

ورواه الترمذي (٣١٤٧) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٩٣) من طريق الأعمش عن أبي صالح به، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وصحح إسناده الحافظ في«الفتح» (٢/ ٤٩).

[٩٤] صحيح:

رواه البخاري (٥٥٥) عن عبد اللّٰه بن يوسف و (٧٤٢٩) عن إسماعيل بن أبي أويس و (٧٤٨٦) عن=

استنباط:

من تخصيص صلاة الفجر بجملة التذييل المؤكدة، وما اشتملت عليه من هذه المزية أخذ جماعة من أهل العلم أفضليتها على غيرها.

فإن قلتَ: إن صلاة العصر أيضًا لها هذه المزية كما تقدم في حديث مالك.

قلتُ: إن ثبوت هذه المزية للفجر قطعي بنص القرآن، ومتفق عليه في روايات الحديث، بخلاف العصر فقد جاء في بعض الروايات دون بعض، وتبقى الفجر ممتازة بتخصيصها بالتأكيد في نص الكتاب، وكفى هذا مرجحًا لها[1].

ترغيب وترهيب:

قد جاء عن النبي ﷺ في الترغيب في امتثال هذا الأمر ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

= قتيبة بن سعيد، ومسلم (٦٣٢) عن يحيى بن يحيى، والنسائي (١/ ٢٤٠-٢٤١) عن قتيبة، وأحمد (٢/ ٤٨٦) عن عبد الرحمن بن مهدي وإسحاق بن عيسى بن نجيح، ستتهم عن مالك - وهذا في «الموطأ» (١/ ٣٤٦- ٣٤٨/ ٤١٢- بشرح الزرقاني) عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

(١) ومن مرجِّحات صلاة العصر قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].
وقد بينت السنة الصحيحة أن المراد بالصلاة الوسطى: صلاة العصر، وهو قول أكثر علماء الصحابة كما قال الترمذي، واختاره من المالكية: ابن حبيب وابن العربي وابن عطية؛ وتخصيصها بالذكر دليل على أفضليتها كما لا يخفى.
ثم إن الشارع خص تاركها بالوعيد الشديد دون غيرها من الصلوات؛ تنبيهًا على أفضليتها.
فعن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُترَ أهلَه وماله».
أخرجه البخاري (٥٥٢) ومسلم (٦٢٦).
وعن بُريدة أن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله». أخرجه البخاري (٥٥٣).
والعلم عند اللَّه تعالى.

وفي الترهيب من مخالفته من الأحاديث ما فيه مقنع ومزدجر.

فمما جاء فيهما حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»[٩٥].

رواه مالك وغيره.

ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟»

---

[٩٥] صحيح:
رواه مالك في «الموطأ» (٢٦٧) وأبو داود (٤٢١و١٤١٧) والنسائي (١/ ٢٣٠) والدارمي (١/ ٣٧٠) وابن ماجه (١٤٠١) وأحمد (٥/ ٣١٥-٣١٦و٣١٧و٣١٩و٣٢٢) والطيالسي (٥٧٣) وابن حبان (٢٥٢و٢٥٣- الموارد) وغيرهم من طرق عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
وصححه ابن حبان وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٩١- فتح البر للمغراوي) والنووي في «المجموع شرح المهذب» (٣/ ٢٠و٥١٦).
وللحديث شاهدان:
١- عن قتادة بن ربعي: أخرجه أبو داود (٤٢٥) وابن ماجه (١٤٠٣) وقال البوصيري في «الزوائد»: «في إسناده نظر من أجل ضبارة ودريد».
٢- عن كعب بن عجرة: أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤) والدارمي (١/ ٢٧٨-٢٧٩) من طريقين عنه.

قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال:

«**فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللَّه بهن الخطايا**»[٩٦].

رواه الشيخان في «صحيحيهما».

ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[٩٧].

رواه مسلم وغيره بنحوه.

وحديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[٩٨].

رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم.

---

[٩٦] **صحيح**:

رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧) عن أبي هريرة.

[٩٧] **صحيح**:

رواه مسلم (٨٢) وأبو داود (٤٦٦٤) والترمذي (٢٦٢٣-٢٦٢٥) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ٢٣٢) و «الكبرى» (٣٣٠) وابن ماجه (١٠٧٨) وأحمد (٣/ ٣٧٠و٣٨٩) وغيرهم عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وللحديث شاهدان:

١- عن ثوبان: رواه هبة اللَّه الطبري بإسناد صحيح كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب».

٢- عن أنس: رواه ابن ماجه (١٠٨٠) بإسناد ضعيف.

[٩٨] **صحيح**:

رواه الترمذي (٢٦٢٦) والنسائي في «المجتبى» (١/ ٢٣١-٢٣٢) وفي «الكبرى» (٣٢٩) وابن ماجه (١٠٧٩) وأحمد (٥/ ٣٤٦) وابن حبان (١٤٥٤) والحاكم (١/ ٦-٧) وغيرهم عن بريدة رضي الله عنه. =

الأحكام:

قد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين، سلفًا وخلفًا، مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين في كفره.

وذهب جماعات أخرى كذلك إلى عدم كفره على عظم جرمه، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت المتقدم الصريح في جعله في المشيئة، والكافر مقطوع له بدخول النار، ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملي.

والكفر قسمان[1]: اعتقادي، وهو الذي يضاد الإيمان، وكفر عمل: وهو لا يضاد الإيمان، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك، وكفر من لم يحكم بما أنزل اللّه كذلك. وبهذا يجمع بين الأحاديث.

وكفى زاجرًا للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في إيمانه هذا الاختلاف.

= وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب» وصححه ابن حبان.

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد، لا نعرف له علة». ووافقه الذهبي.

(١) عقد العلامة ابن القيم - رحمه اللّه تعالى- في كتابه القيم «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٥- ٦٠) فصلًا بديعًا في بيان القسمين: كفر الاعتقاد، وكفر العمل، وخلص فيه إلى أن «هذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب اللّه، وبالإسلام والكفر ولوازمهما، فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم، فانقسموا فريقين: فريقًا أخرجوا من المِلَّة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار، وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان، فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا، وهدى اللّه أهل السنة للطريقة المثلى، والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل، فهاهنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم».

تعليم:

في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته. وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته، وتطرد له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال.

أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقتٍ، فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلا بالعمل القليل، ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلَّ سعيه، وكان ما يأتي به من عمل - على قلته وتشويشه - بعيدًا عن أي إتقان.

وقد كان النبي ﷺ مُقَسِّمًا لزمانه على أعماله، وفيه القدوة الحسنة.

فقد روى عياض في «الشفا» عن علي رضي الله عنه قال:

«كان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، فجزءًا للَّه، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزء جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئًا.

فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه قسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول:

«ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي

حاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبَّت اللَّه قدميه يوم القيامة».

لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رُوَّادًا، ولا يتفرَّقون إلَّا عن ذَوَاق، ويخرجون أدلَّة»[٩٩] انتهى.

---

[٩٩] **ضعيف:**

رواه القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ١٧٥-١٨٩) مطولًا من طريقين:

الأول: من طريق الترمذي وهذا أخرجه في «الشمائل» (ص٢١-٢٢/ رقم: ٦- مختصره للألباني) وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٢٢-٤٢٥) والفسوي في «المعرفة» - كما في «البداية والنهاية» (٦/ ٣١-٣٣) لابن كثير - وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤١٩-٤٢٠) وكذا الطبراني - كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧٨) - والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٥٤-١٥٧/ ١٤٣٠) وفي «دلائل النبوة» (١/ ٢٨٥-٢٩٢) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٥٦٥) من طريق جميع بن عمير بن عبد الرحمن العجيلي قال: حدثنا رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أم المؤمنين ﵂ يكنى أبا عبد اللَّه عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن علي بن أبي طالب عن الحسين بن علي بن أبي طالب عن علي ﵁.

وهذا إسناد ضعيف جدًّا وله علتان بل ثلاث:

الأولى: جهالة ابن أبي هالة: قال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف».

الثانية: جهالة أبي عبد اللَّه التميمي: قال الحافظ في «التقريب»: «مجهول».

الثالثة: ضعف جُميع بن عمير كما في «الميزان» و«التهذيب» و«التقريب» بل قال أبو داود: أخشى أن يكون كذابًا! وفي رواية: أخشى أن يكون حديثه موضوعًا.

وقال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه من لم يسم».

الطريق الآخر: أخرجه أيضًا عياض في «الشفا» من طريق علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أخيه موسى بن جعفر عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن عليٍّ بن الحسين عن الحسن ابن علي به.

ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في «الدلائل» أيضًا.

وهذا إسناد ضعيف أيضًا فيه علي بن جعفر لم يوثقه أحد، قال الذهبي في «الميزان»: «ما رأيتُ أحدًا ليَّنه، نعم ولا من وثقه» وفي «التقريب»: «مقبول» يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث. =

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله، ويعمرها كلها بالخير.

وكما ربط اللّه له صلاته بالأوقات، وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه.

واللّه نسأل لنا ولجميع المسلمين أن يقصرنا على طاعته، ويفقهنا في أسرار دينه، ويوفقنا إلى اتباع سنة رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

* * *

= قوله: (رُوَّادًا): جمع رائد، وهو الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث؛ أي يدخلون عليه طالبين العلم وملتمسين الحكم من عنده.
و(الذواق): المأكول والمشروب، أي لا يتفرقون إلّا عن علمٍ وأدبٍ يتعلمونه، يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم.
و(أدلة): جمع دليل، أي هُداةً للناس. «النهاية» لابن الأثير.

نافلة الليل وحسن عاقبتها

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩].

الألفاظ:

من: للتبعيض.

الهجود: النوم، والهاجد النائم، وج هجود، ومنه:

(ألا طرقتنا والرفاق هجود).

والتهجد ترك الهجود، كالتحرج والتأثم في ترك الإثم والحرج، وبناء تفعَّل يكثر في التحصيل كتعلَّم وتقدَّم، وجاء قليلًا في معنى الترك، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة.

نافلة: قال الجوهري[1]: «عطية التطوع من حيث لا تجب، ومنه نافلة الصلاة» اهـ.

أي أن الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب، فلذا قيل فيها نافلة.

وهي على كلام الجوهري بمعنى الشيء الزائد، فهي اسم غير مصدر.

قال أبو البقاء وغيره: النافلة الزيادة، فهي مصدر كالعاقبة.

---

(١) في الصحاح (٥/ ١٨٣٣).

عسى: للرجاء، وهي من اللَّه تعالى على الوجوب، لأن إطماعه تعالى لعباده في الجزاء على أعمالهم هو من وعده، ومحال عليه تعالى أن يخلفه.

مقامًا: محل القيام.

محمودًا: مثنيًا عليه.

التراكيب:

من الليل: متعلق بفعل محذوف دل عليه تهجد، تقديره أسهر.

الضمير في (به) عائد على القرآن لتقدم ذكره ولا تراعى الإضافة، والباء باء الأداة لأن التهجد بمعنى التعبد يحصل بالقرآن، أي بالصلاة.

ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على الليل، فالباء بمعنى في، أي فيه.

نافلة: مصدر منصوب بتهجد لا تفاقهما في المعنى.

والتقدير: تنفل نافلة، وهذا يجري على الوجهين في معاد الضمير.

ويحتمل أن يكون حالًا. وهذا يجري على عود الضمير على القرآن بمعنى الصلاة.

مقامًا: إمَّا مصدر من غير لفظ عامله الذي هو يبعثك بمعنى يقيمك من مرقدك.

وإما ظرف أي يبعثك في مقام.

ومحمودًا: صفة لمقام، ولكن الذي يحمد حقيقة هو القائم في المقام، فجعل الحمد للمقام توسعًا، تنبيهًا على عظم الحمد وكثرته، فإنه فاض على

صاحب المقام حتى غمر مقامه.

المعنى:

أسهر بعضًا من الليل، فتعبد بالقرآن في الصلاة زيادة على تعبدك به في صلاة فرضك، فتكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين. فيقيمك مقامًا يحمدك فيه جميع الناس، لما يرون لك من فضل، وما يصل إليهم بسببك من خير.

وفي الآية مسائل:

الأولى: كيف يكون التهجد؟

فأما اللفظ فإنه يفيد ترك النوم للعبادة، فيشمل تركه كله أو بعضه، بأن لم ينم أصلًا، أو لم ينم أولًا ثم رقد، أو نام أولًا ثم قام.

لكن ثبت أن النبي ﷺ كان ينام ثم يقوم، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم.

المسألة الثانية: هل كان قيام الليل فرضًا عليه ﷺ دون أمته بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾.

قد ذهب إلى هذا جماعة كثيرة من أهل العلم سلفًا وخلفًا.

ويرد عليه أن توجيه الخطاب إليه لا يقتضي تخصيص الحكم به كما في آية: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] وآيات كثيرة، ولأن قيام الليل يقع من غيره فيسمى نافلة اتفاقًا. ولحديث عائشة رضي الله عنها:

«إن اللَّه افترض قيام الليل في أول هذه السورة - تعني سورة المزمل -

وهي مكية (قم الليل) - فقام النبي - ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيامه تطوعًا بعد فرضه»[١٠٠].

رواه مسلم.

فهذا يدل على أنهم فهموا أن الأمر من قوله تعالى: ﴿قُمِ﴾ لهم معه، مع أنه موجه إليه بخطاب الإفراد، وإنه كان فرضًا عليه وعلى الناس فصار تطوعًا عليه وعلى الناس.

ولحديث المغيرة بن شعبة في «الصحيحين» وغيرهما:

«قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - وهذا لمداومته على القيام كل ليلة بِبِضْع عشرة ركعة - فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١٠١].

فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه، ويفهمونه من القرآن، لما أنكروا مشفقين عليه أن يقوم بما هو واجب عليه، ولأن قوله: «**أفلا أكون عبدا شكورًا**» يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار، ليؤدي شكر نعمة ربه عليه.

---

[١٠٠] صحيح:

قطعة من حديث رواه مسلم (٧٤٦) عن عائشة رضي الله عنها مطولًا.

[١٠١] صحيح:

رواه البخاري (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩) والترمذي (٤١٢) وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٢١٩) وفي «الكبرى» (١٣٢٥و١١٥٠١) وابن ماجه (١٤١٩) وأحمد (٤/ ٢٥١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فإن قيل: إن السؤال والجواب راجعان إلى تورم قدميه، وذلك ناشئ على[١] المداومة.

قيل: إذا أنكر الشيء الناشئ عن المداومة فقد أنكرت المداومة، والمداومة على الفرض لا تنكر. فبقي الدليل سالمًا.

ولهذا كله قال هؤلاء الموردون: إن قيام الليل تطوع ونفل في حقه وفي حق أمته.

وبقي للأولين أن يقولوا: إن قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ خاص به ﷺ اتفاقًا، وقد جعل جزاء لتهجده بالليل، ولما كان الجزاء خاصًا به فالعمل المجزي عنه خاص به، فلهذا حملنا قوله على معنى دون غيرك، ولما رأيناه واظب على التهجد ولم يتركه حملناه على أنه كان مفروضًا عليه، وحملنا نافلة على معنى أنها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس.

فيقول المخالفون في هذا: إنكم حملتم النافلة على الفريضة، وهذا خلاف أصل معناها الذي هو التطوع.

وأما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به، فإنا نقول: إن الخطاب موجَّه له في الأول وفي الآخر.

ففي الأول لما لم يعارضنا معارض ألحقنا به أمته.

وفي الثاني لما منعنا مانع وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به،

---

(١) كذا في الأصل!.

وبقي الجزاء مساويًا للعمل في صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجهًا إليه .

وإذا تأملت في هذا البحث الذي سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية هو الراجح، فالآية حث وترغيب على قيام الليل للعموم، ووعد له ﷺ بالمقام المحمود .

المسألة الثالثة: ماهو المقام المحمود؟

«هو مقامه ﷺ للشفاعة العظمى» يشفع للخلائق وقد جهدوا من كرب الموقف، فجاءوا إلى كُبراء الرسل عليهم الصلاة والسلام يسألونهم أن يشفعوا لهم إلى ربهم ليفصل القضاء ويريحهم من كرب الموقف، فيتدافع الشفاعة أولئك الرسل - صلوات اللَّه عليهم - ويتنصلون منها بأعذار هيبةً للربِّ ﷻ حتى ينتهوا إليه ﷺ فيتقدم فيشفع فيشفَّع ويسأل فيعطى . كما جاء هذا كله مفصلًا في الأحاديث الصحيحة المستفيضة[١٠٢]، فيحمده الخلق

---

[١٠٢] صحيح:

وقد روي عن جماعة من الصحابة ﷺ، منهم:

١- أبو هريرة: أخرجه البخاري (٣٣٤٠و٣٣٦١و٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) وغيرهما، مطولًا .

٢- أنس بن مالك: أخرجه البخاري (٤٤٧٦و٦٥٦٥و٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) مطولًا .

٣- أبو هريرة وحذيفة: أخرجه مسلم (١٩٥).

٤- ابن عمر: أخرجه الترمذي (٣١٦٠) وقال: «حديث حسن».

٦- أبو بكر الصديق: أخرجه أحمد (١/ ٤-٥) وأبو يعلى بنحوه والبزار، ورجالهم ثقات كما قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٧٥).

وصححه ابن حبان (٢٥٨٩و٢٥٩٠- موارد الظمآن).

٧- ابن عباس: أخرجه أحمد (١/ ٢٨١-٢٨٢و٢٩٥- ٢٩٦) وفيه علي بن زيد بن جدعان وحديثه حسن في الشواهد.

٨- سلمان الفارسي: أخرجه الطبراني بإسناد صحيح كما قال المنذري في «الترغيب».

كلهم لما يرون من فضله عند ربه، ولما وصل إليهم من الخير المطلوب بسببه.

اختصاصه ﷺ بالمقام المحمود ودليله:

ثم له ﷺ بعد هذه الشفاعة العظمى شفاعات أخرى(١) بينتها صحاح الأحاديث.

ولعموم فضل هذه الشفاعة العظمى لأهل الموقف كلهم، قال ﷺ كما في صحيح مسلم: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[١٠٣].

والسيد مَن يتولى أمر السواد، فظهر عموم سيادته بعموم نفعه.

وقد فسر المقام المحمود بمقام الشفاعة عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما رواه عنه البخاري في «صحيحه»[١٠٤]، وفسره بها غيره[١٠٥].

---

(١) ذكر ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٥٧- ٢٥٨) سبع شفاعات أخرى مع الشفاعة العظمى، فليراجعها ثمة من رام الاستفادة.

[١٠٣] صحيح:

قطعة من حديث رواه مسلم (١٩٤) عن أبي هريرة مطولًا، وقد تقدم في الذي قبله.

[١٠٤] صحيح:

رواه البخاري (٤٧١٨) من طريق آدم بن علي قال سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول:

«إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كل أمةٍ تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه اللَّه المقام المحمود».

[١٠٥] صحيح:

ثبت عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منهم:

١- حذيفة: أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٩٤) بإسناد صحيح كما قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٥٠٨).

وأخرجه أيضًا الطيالسي في «مسنده» (٤١٤) والبزار (٣٤٦٢ - كشف الأستار) ورجاله رجال=

المسألة الرابعة: هل المقام المحمود خاص به؟

قد علمت من المسألة السابقة أنه مقام الشفاعة العظمى، وهي خاصة به، فهو خاص به.

يدل عليه حديث جابر الصحيح:

«من قال حين يسمع النداء - الأذان -: اللّٰهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[١٠٦].

= الصحيح كما قال الهيثمي (١٠/ ٣٧٧).

٢- عبد اللّٰه بن مسعود: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٢٩٦) والطيالسي في «مسنده» كما في «تفسير ابن كثير» والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٨-٦٠٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: ما احتجا بأبي الزعراء».

٣- سلمان الفارسي: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨١٣) والطبراني بإسناد صحيح كما قال المنذري في «الترغيب».

٤- ابن عباس: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٤) وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٦٧) من طريق رشدين بن كريب عن أبيه عنه، وقال:

«ورشدين أحاديثه مقاربة، لم أر فيها حديثًا منكرًا جدًا، وهو - على ضعفه - ممن يكتب حديثه».

بل إن تفسير المقام المحمود بالشفاعة ثبت مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وفي ذلك حديثان صحيحان:

الأول: حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٢/ ٤٤١و٤٤٤و٤٧٨و٥٢٨) والترمذي (٣١٤٩) وقال: «حديث حسن».

والآخر: حديث كعب بن مالك: أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٦) وابن حبان (٢٥٧٩- الموارد) والحاكم (٢/ ٣٦٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

[١٠٦] صحيح:

رواه البخاري (٦١٤) وغيره عن جابر بن عبد اللّٰه رضي الله عنهما.

وقد كنت خرجته في تحقيقي لِـ«رسالة الشرك» برقم (١١٧). فلا داعي للإعادة.

فهو ﷺ الموعود بالمقام المحمود.

تنبيه وإلحاق:

قد جعل اللّه تعالى جزاء نبيه ﷺ على تهجده وخلوته بربه في مناجاته في هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق، ويتقبل فيه شفاعته، ويستجيب دعوته، ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل.

ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم.

فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ﷺ في مشروعية هذه العبادة، كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها، وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم، فلهم جزاؤهم من مقامات القرب، والزلفى والقبول، والرضا، على ما يناسب منازلهم، جزاء بما كانوا يعملون[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٧) غرة ذي القعدة ١٣٤٩هـ - مارس ١٩٣١م.

صدق المدخل والمخرج

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٠] .

المناسبة:

مضى في الآيات السابقة ذكر اللَّه تعالى ما كان من المشركين من الكيد لنبيه ﷺ بمحاولتهم فتنته في دينه، واللَّه يثبته، ومبالغتهم في عداوته وإذايته، حتى كادوا يستفزونه ويزعجونه من أرض مكة فيخرجونه منها .

وجاء بعدها أمر اللَّه تعالى بإقامة الصلاة والتهجد بالليل، وفي ذلك أمر اللَّه له بالقيام بعبادة ربه والتوجه والانقطاع إليه وعدم المبالاة والاشتغال عن مهام العبادة بهم .

فجاء بعد ذلك الأمر الذي في هذه الآية بسؤاله أن يختار له ، وفي ذلك تفويض أمره إلى ربه، ورضاه بما يختاره له .

فالآيات السابقة أمر بالتجرد لعبادته، وهذه أمر بالتسليم لمشيئته، فبتلك يكون منقطعًا إليه، وبهذه يكون معتمدًا عليه .

الألفاظ:

المدخل: يكون بمعنى الإدخال، ويكون بمعنى زمانه أو مكانه .

المخرج: يكون أيضًا بمعنى الإخراج، وبمعنى زمانه أو مكانه .

الصدق: أصله وصف للقول بمعنى ثبوته ومطابقته للواقع.

ويوصف به الفعل إذاوقع على وجهه، وكما ينبغي أن يكون. وتضاف إليه الأشياء الكاملة في أنفسها، الحسنة في ظاهرها وباطنها.

لدن: بمعنى عند.

السلطان: بمعنى التسلط. يصدق على التسلط على العقول بالحجة وعلى غيرها بالملك والولاية.

النصير: بمعنى ناصر.

التراكيب:

مدخل ومخرج منصوبان على المصدرية أو على الظرفية.

المعنى:

قل يا محمد سائلًا ربك متضرعًا إليه: يا رب أدخلني إدخالًا حسنًا كاملًا تساوى ظاهره وباطنه في الحسن والكمال، وتماثلت بدايته ونهايته وحاله وعاقبته فيهما، أكون فيه على بصيرة ويقين، وثبات وقوة، وأخرجني إخراجًا كذلك.

وإذا كان بمعنى الظرف كان المعنى: أدخلني في مكان حسن أو زمان حسن... إلخ، وأخرجني كذلك.

واجعل لي من عندك تسلطًا بالحق على العقول بالحجة والبرهان، وعلى الملك بالعدل والإحسان. ينصرني ويؤيدني على كل من يقف في طريق دعوتي إليك، وهداية خلقك من جبابرة البغي أو رؤوس الضلال.

توجيه:

قدمنا احتمال المصدرية في مدخل ومخرج لأنه أعم، والعموم أنسب بهذا الدعاء الجليل الذي ليس في ألفاظه ما يدل على التخصيص.

ولما كان الذي يضاف إلى الصدق لا يكون إلا حسنًا لا عيب فيه، ثابتًا لا خلل فيه، وصفنا الإدخال والإخراج بما وصفناهما به، لأن ذلك كله من مقتضى الحسن والكمال والثبوت.

ولما كان السلطان المطلوب هو من عند اللَّه، ولا يكون إلا سلطانًا بالحق، سواء أكان في العلم أم في الحكم؛ فسَّرناه بالحجة والبرهان والعدل والإحسان.

ترجيح:

إذا نظرنا إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: الآية ٧٦].

قيل: إن المراد بمدخل الصدق هو المدينة. ومخرج الصدق هو مكة.

وتكون مكة مخرج صدق لأنه يخرج منها على حق ويقين وبصيرة وبإذن من اللَّه تعالى وتأييده.

وتكون المدينة مدخل صدق لذلك كذلك.

وإذا نظرنا إلى عموم اللفظ حملنا الآية على العموم اعتبارًا بحكم اللفظ، ولا يفوت اعتبار المناسبة لما تقدم، فإن الخروج من مكة ودخول المدينة يكون مما دخل في العموم دخولًا أوليًا، فالحمل على العموم - كما رأيت -

محصل لاعتبار اللفظ واعتبار المناسبة، ولذلك اخترناه.

تطبيق:

كل فرد من أفراد بني الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج، فكل ساعة يقضيها من حياته هي مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها، ومخرج باعتبار خروجه منها إلى سواها.

فإن قضاها صادق العقد، صادق القول، صادق العمل، وفارقها كذلك فهي مدخل صدق ومخرج صدق.

وإن قضاها وفارقها سيئ العقد، سيئ القول، سيئ العمل، فهي ليست كذلك، بل هي مدخل كذب وفجور، ومخرج كذب وفجور.

فالإنسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق اللّه وتأييده، وحفظه وإمداده، فجاء هذا الدعاء القرآني منبهًا على هذه العقيدة، مشتملًا على سؤال ما يحتاج إليه الإنسان في جميع شؤونه في حياته وأطواره فيه - من ألطاف ربه.

ولما كان الإنسان في كل لحظة من حياته - لابد - واجدًا معارضًا وصادًا عن الخير والصدق، وقاطعًا في طريق الحق - من نفسه وشياطين الإنس والجن - قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي فيه طلب التأييد من اللّه بالسلطان المبين، فالدعاءان - على اختصارهما وإيجازهما - قد جمعا للإنسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر، فهما من أعظم الأدوية الربانية للإنسان، ومن أعظم وسائله الشرعية إلى خالقه، فما أحراهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته.

استنباط:

إذا علَّمنا اللَّه تعالى دعاء، ففي ضمن ذلك التعليم تعليم آخر لنا كيف نعمل ما يناسب ذلك الدعاد، وكيف نسلك السلوك الذي هو مظنة الاستجابة.

فلما علَّمنا تعالى - مثلًا - كيف ندعوه بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦]، كان في ذلك إرشاد لنا إلى سلوك الطريق المستقيم، والاهتداء بأهله، والمباينة لغيرهم.

فكذلك هنا لمَّا علَّمنا كيف ندعوه بالحفظ والتوفيق في المدخل والمخرج، كان في ذلك إرشاد لنا إلى ما ينبغي لنا أن نكون عليه في مداخلنا ومخارجنا، وجميع مصادرنا ومواردنا من تحري ما فيه مرضاته واجتناب ما فيه سخطه.

ولما علَّمنا كيف ندعوه بالتقوية والتأييد بسلطان من لدنه مبين، كان في ذلك إرشاد لنا أن نكون أهل قوة في الأيدي، وقوة في البصائر، ودفاع عن الحق بما استطعنا من قوة.

سلوك وامتثال:

فعلينا أن لا ندخل في أمر إلا على بصيرة به وعلم بحكم اللَّه تعالى فيه، وأن دخوله خير، وأن لا نخرج من أمر إلا على بصيرة وعلم كذلك، لا فرق بين أمر وأمر، من كبير وصغير، وجليل وحقير، ونكون - مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار - معتمدين على ربنا، واثقين بحسن اختياره لنا، مسلمين له فيما اختاره، ضارعين له، مظهرين فقرنا وحاجتنا في كل حال.

وعلينا أن نحصل من الأسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل، لنكون أهلًا للدفاع عن الحق وحزبه، ومقيمين لسلطان اللَّه في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمدين - مع تحصيل تلك الأسباب - على اللَّه وحده، ومنتظرين منه الفرج والتيسير.

هذان هما الأصلان الأساسيان في سلوك أهل اللَّه: التمسك بالحق، ومدافعة الباطل، فاستمسك بهما تكون - بإذن اللَّه - من الفائزين.

* * *

مجيء الحق وزهوق الباطل
واستجابة دعاء الصادقين

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: الآية ٨١] .

المناسبة:

لما أمر اللَّه تعالى نبيه أن يدعوه بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد، أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق، وفي ذلك نصره، وذهاب الباطل، وفي ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم.

هذا على النظر العام.

وأما على النظر الخاص فإن اللَّه تعالى بعدما ذكر أن أعداءه كادوا يستفزونه من الأرض، وأمره أن يتوجه إلى عبادته ودعائه، ذكر في هذه الآية ما كان من نصره على المشركين، وفتح مكة عليه، وتنكيس الأصنام التي هي باطلهم، وإعلان كلمة التوحيد الذي هو دينه وهدايته.

ولذلك كان النبي ﷺ يتلو هذه الآية عندما كان يشير إلى الأصنام فتسقط إلى الأرض.

ففي «الصحيح» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ دخل مكة (يعني عام الفتح) وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق**

وما يبدئ الباطل وما يعيد»[١٠٧].

الألفاظ:

الحق: الثابت الذي لا يعتريه زوال.

الباطل: الذي لا ثبات له في نفسه.

فالإسلام حق ويشمل كل ما هو طاعة.

والشرك والكفر باطل، ومثله كل ما هو معصية.

زهقت الروح: خرجت، وزهق الباطل: ذهب واضمحل.

الزهوق: الهالك الذاهب.

التراكيب:

جملة (إن الباطل كان زهوقًا) إطناب بالتذييل، المخرج إخراج المثل لتأكيد منطوق الكلام السابق.

وشبه الباطل الذي غلب بأدلة الحق، فزالت شُبهه من الأذهان، وطواغيته من الأرض، بالحيوان الذي صرع فذبح فزهقت روحه، وذهب على طريق المكنية حيث حذف المشبه به، وهو الحيوان المصروع المذبوح، وذكر المشبه وهو الباطل المغلوب، وأشير إلى المحذوف بذكر لازمه وهو الزهوق.

---

[١٠٧] صحيح:

أخرجه البخاري (٤٢٨٧و٤٧٢٠) ومسلم (١٧٨١) عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه.

المعنى:

وقل يا محمد - معلنًا بما أظهر اللَّه على يدك، وما قضى به من نصرك، وما أجاب من دعائك -: جاء الإسلام والتوحيد بأدلته وحججه وقوته وسلطانه، وذهب الكفر والشرك فبطلت شبهه، واضمحلت دولته، وأصبح الحق غالبًا والباطل مغلوبًا، وكذلك كان الباطل شأنه الذهاب والاضمحلال.

صدق وعد اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ:

نزلت هذه الآية بمكة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه رضوان اللَّه تعالى عليهم، يلقون من ا لمشركين ما يلقون و المسلمون في ضعف - من العدد - وقلة، والمشركون في قوة، وكثرة، فكانت هذه الآية وعدًا بما سيكون من غلبتهم وقوتهم وكثرة عددهم، فيبطل الشرك ويذهب سلطانه.

وقد صدق اللَّه وعده، ففتح عليهم مكة وتمت لهم على المشركين النصرة.

وللإشارة إلى إنجاز هذا الوعد وصدق الخبر، قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآية يوم فتح مكة كما تقدم.

تفصيل:

مجيء الحق هو بظهور أدلته وقيام دولته، وزهوق الباطل هو ببطلان شُبهه وذهاب دولته.

فأما القسم الأول: فإن الأمر فيه ما زال ولن يزال كذلك، ولن تزداد على الأيام أدلة الحق إلا اتضاحًا، ولن تزداد شُبه الباطل إلا افتضاحًا.

وأما القسم الثاني: فإنه مرتبط بأحوال أهل الحق وما يكونون عليه من تمسك به وقيام فيه، أو إهمال له وقعود عنه، فيدال لهم، ويدال عليهم بحسب ذلك.

عقيدة:

يرتبط قلب المسلم مطمئنًا على أن ما هو عليه من الإسلام حق لا شك فيه، وأنه مؤيد منصور ما تمسك به، وأنه إذا خذل فإنما جاءه ذلك من ناحية نفسه.

وعلى أن ما عدا الإسلام هو باطل لا شك فيه، وأن صاحبه هالك عند ربه، وأن ما يكون له من سلطان لم يأته من جهة باطله وإنما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق وفرط فيه أهله، فحرموا ثمرته.

سلوك:

على أهل الحق أن يكون الحق راسخًا في قلوبهم عقائد وجاريًا على ألسنتهم كلماتٍ، وظاهرًا على جوارحهم أعمالًا، يؤيدون الحق حيثما كان وممن كان، ويخذلون الباطل حيثما كان وممن كان، يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد، على الموافق والمخالف، ويحكمون بالحق كذلك على الجميع، ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نشره بين الناس وهدايتهم إليه بدعوة الحق وحكمة الحق وأسبابه ووسائله، على ذلك يعيشون وعليه يموتون.

فلنجعل هذا السلوك سلوكنا وليكن من همِّنا.

فما وفينا منه حمدنا اللَّه تعالى عليه، وما قصرنا فيه تُبنا واستغفرنا ربنا.

فمن صدقت عزيمته ووطّن على العمل نفسه - أُعين ويُسِّر للخير. وربك التواب الرحيم[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٤، م٧)، غرة ذي الحجة ١٣٤٩هـ- أفريل ١٩٣١م.

القرآن شفاء ورحمة

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾
[الإسرَاء: الآية ٨٢] .

المناسبة:

لما جاء في الآية السابقة الإخبار بمجيء الحق، وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال، وبزهوق الباطل، وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض كذلك - جاء في هذه الآية بذكر القرآن، والإخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة تنبيهًا على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعِلَله، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به .

المفردات:

مِن : لابتداء الغاية أو للتبعيض، لأنه نزل مبعضًا، فكل بعض نزل منه فهو شفاء ورحمة .

الشفاء : البرء من المرض، مرض الأبدان أو مرض النفوس .

الرحمة : النعمة .

الظلم : وضع الشيء في غير محله، كوضع الكفر موضع الإيمان .

الخسار : النقص والضياع، يكون في الأموال، يقال خسر ماله، إذا ضيعه .

ويكون في النفوس، فيقال: خسر نفسه، إذا ضيعها ولم يستعملها فيما خُلقت له من الطاعة والكمال.

ويكون في الدين، فيقال خسر دينه إذا ضيعه ولم يعمل به.

فخاسر القرآن هو من ضيعه ولم يؤمن به.

التراكيب:

قرنت جملة (ننزل) بالواو مع أن ما قبلها إنشائية. وذلك على وجهين:

الأول: أن تكون معطوفة على (جاء الحق)، أي وقُلْ ننزل، فعطفت الخبرية على الخبرية التي لها محل، وهو المفعولية بالقول.

الثاني: أن تكون الواو للاستئناف، وهي في الحقيقة صلة في الكلام لتقويته.

وقرنت جملة (لايزيد) بالواو، لأنها معطوفة على جملة الصلة، وعبر بالمضارع في (ننزل) و(يزيد)، قصدًا لمعنى التجدد، لأن الآيات كانت تنزل شيئًا فشيئًا.

وتنكير شفاء ورحمة للتعظيم.

وقدم الشفاء لأنه برء من النقص، على الرحمة لأنها حصول الكمال، تقديم التخلية على التحلية.

وآيات القرآن سبب في حصول الشفاء، فجعلت هي شفاء على طريق المبالغة، تنبيهًا على تحقق حصوله بها.

المعنى:

وننزل عليك يا محمد بحسب الوقائع والمناسبات آيات من القرآن العظيم، هي شفاء يستشفي بها المؤمنون، ، ونعمة عظيمة أنعمنا بها عليهم، يؤمنون بها، ويحلُّون حلالها، ويحرِّمون حرامها، ويعملون بمافيها، فينالون سعادة الدنيا والآخرة.

أما الكفار الظالمون الذين قابلوا بالكفر ما يجب أن يقابل بالإيمان، وقابلوا بالرد ما يجب أن يقابل بالقبول، فإن نزول تلك الآيات، يكون سببًا في زيادة خسارهم وضياع الخير عليهم، إذ كل آية من تلك الآيات كانت كافية في شفائهم لو استشفوا بها، ونزول الرحمة عليهم لو اهتدوا بها إلى الإسلام، لكنهم يقابلون كل آية بالكفر والجحود، فيخسرون في كل مرة كنزًا عظيمًا، وهكذا يزداد خسارهم بقدر كفرهم المتجدد بنزول الآيات.

تنظير:

وصف اللّٰه تعالى القرآن بأنه شفاء في مواضع من كتابه، منها هذه.

ومنها قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: الآية ٥٧].

ومنها في سورة فصلت[١]: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصّلت: الآية ٤٤].

وأفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون، دون غيرهم

(١) في الأصل: «السجدة».

فإنهم بإعراضهم عنه كانوا من الخاسرين.

وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين؛ زكت النفوس، واستقام سلوك الإنسان: فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال.

فلا ينافي ذلك أن القرآن شفاء أيضًا للنفوس من سيئ الأخلاق، كما هو مقتضى الإطلاق في آية الإسراء هذه، وآية فصلت[1]، لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد، ولازمة لها، ولأنهما كليهما - العقائد والأخلاق- لا تكمل النفس الإنسانية إلا بالشفاء فيهما.

ولا ينافي أيضًا حصول الشفاء للأبدان بالقرآن في بعض الأحوال، كما هو مقتضى الإطلاق أيضًا، ومقتضى ما سيأتي من الآثار، وإن كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن.

تقسيم:

الأمراض الإنسانية قسمان: أمراض أرواح، وأمراض أبدان. وكلاهما أنواع.

وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين: مرض العقول، ومرض النفوس.

---

(١) في الأصل: «السجدة».

فالأول: بجمود النظر، وفساد الإدراك، وتقليد الآباء، واعتقاد الباطل، والشك في الحق.

والثاني: بفساد الأخلاق، وانحطاط الصفات.

أما الأعمال فهي تابعة لهما، فتصلح بصلاحهما، وتفسد بفسادهما.

والقرآن قد جاء داعيًا إلى النظر والتفكر والاعتبار والتدبر، مبينًا - بما ساق من حجج اللَّه وحجج رسله - الطريق الأقوم في الإدراك الصحيح، والسبيل الأسد في الفهم والتفهيم، ناعيًا على المقلدين تقليدهم، كاشفًا لأهل الباطل عن باطلهم، ذاكرًا من قواطع البراهين البينة الواضحة ما لا يبقى معه خفاء في الحق ولا ريب.

وجاء أيضًا مبيِّنًا للأخلاق الفاسدة، وذاكرًا سوء أثرها، وقبح مغبتها، مبينًا كذلك الأخلاق الصحيحة، وعظيم نفعها وحسن عاقبتها؛ فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها.

على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري، كما هو شفاء لأفراده، فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعِلَلِه.

شفاء العقائد والأخلاق، - وهما أساس الأعمال- والمجتمع.

وهذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو

شفاء لها .

ولا شفاء لها إلا بالقرآن، - والبيان النبوي راجع إلى القرآن - ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضًا .

فهذه الأمم الغربية بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الأبدان .

وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجدية الحجازية، والمملكة اليمانية. قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيها، دون سجون ولا مشانق مثل أولئك، وما ذلك إلا لأنهم داووا الملك بدواء القرآن، فكان الشفاء التام .

وأما الأمراض البدنية، فقد قال رسول الله ﷺ :

«**ما أنزل اللَّه داء إلا أنزل له شفاء**»[١٠٨] .

رواه البخاري من طريق أبي هريرة .

وقال: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن اللَّه تعالى**»[١٠٩] .

رواه مسلم من طريق جابر .

وثبت عنه أنه داوى وتداوى .

---

[١٠٨] صحيح :

رواه البخاري (٥٦٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[١٠٩] صحيح :

رواه مسلم (٢٢٠٤) عن جابر رضي الله عنه .

وروى الأئمة من ذلك عنه الكثير الطيِّب في كتاب الطب من «صحيح البخاري» وغيره.

وثبت عنه ﷺ أنه استشفى واسترقى ببعض آيات القرآن العظيم، وأقر على ذلك من فعله من أصحابه.

روى البخاري من طريق يونس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت:

«كان رسول اللَّه ﷺ، إذا أوى إلى فراشه، نفث في كفيه بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ وبالمعوذتين جميعًا، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده.

قالت عائشة: فلما اشتكى، كان يأمرني أن أفعل ذلك به.

قال يونس: كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك إذا أتى إلى فراشه»[١١٠].

وروى الشيخان، واللفظ للبخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه تعالى عنه قال:

«انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم واللَّه، إني لأرقي، ولكن واللَّه لقد استضفناكم فلم تضيفونا،

---

[١١٠] صحيح:

رواه البخاري (٥٧٤٨) عن عائشة ﵂.

فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جعلًا[1]، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكأنما أنشط[2] من عقال[3] فانطلق يمشي وما به قلبة[4]، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال:

«**وما يدريك**[5] **أنها رقية**». ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا**»، فضحك رسول الله ﷺ[111].

ثبت بهذين الحديثين أن في القرآن شفاءً للأبدان.

وحصل عندنا من جميع ما تقدم أنه شفاء للأرواح والأبدان، للأفراد والمجتمع.

مداواة الأبدان، بالطب والقرآن:

ثبت عنه ﷺ الأمر بالتداوي قولًا وعملًا، وثبت عنه الاستشفاء بالقرآن، ولا منافاة بينهما، فإن الإنسان مركب من روحٍ من عالم النور، وجسمٍ من عالم المادة المركبة.

---

(١) هو الأجرة على الشيء.

(٢) حل.

(٣) حبل يشد به ذراع البهيمة.

(٤) بحركات أي علّة.

(٥) تعجب من قوله على أنها رقية وإصابته في ذلك.

[١١١] **صحيح**:

رواه البخاري (٢٢٧٦) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فمن الحكمة الإلهية، أن شرع اللَّه لنا عند الأمراض على لسان رسوله ﷺ الجمع بين الأدوية المادية التي هي المناسبة للبدن، ، والآيات القرآنية التي هي المناسبة للروح، مع ما في الأدوية القرآنية من اطمئنان القلب باللَّه وقوَّته به وانتعاشه بذكره.

وفي ذلك من تقوية للروح ونعيمها ما يهوِّن عليها ألم المرض، ويغلبها بإذن اللَّه تعالى عليه.

ومثل الآيات القرآنية في ذلك، كل ما ثبت في السنة من الرقى النبوية المأثورة.

تحذير:

فرَّط قوم فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور، واقتصروا على الدواء المادي، فحرموا أنفسهم من خير كثير إذا لم يكونوا له كالمنكرين!.

وأفرط آخرون، فأهملوا الدواء المادي، وزهَّدوا الناس فيه، وتزيَّدوا في جانب المأثور، حتى خرجوا عنه، واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردًا للمعاش، ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصودة بالقصد الأول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلًا إلى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وما ابتدعوا. فعكسوا الأمر، وخالفوا السنة ووقعوا في المحظور من عدة وجوه.

هذان الطرفان مذمومان.

والعدل هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك، ويقف في الوارد عندما ورد، ويتناوله على ما ورد.

تطبيق:

نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذوم مذموم، سواء أكان المتصف به مؤمنًا أم كان كافرًا.

فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتوضح لهم الدلائل الشرعية، وهم عنها معرضون، وعن تدبرها غافلون، وبها متهاونون - يزدادون بكل مرة إثمًا بإعراضهم وغفلتهم وتهاونهم، فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالهم، وإذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين، فهو كخسار المعرضين الغافلين المتهاونين، وكفى به خسارًا يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الراشدون.

سلوك:

نتناول القرآن العظيم دواءً من عند ربنا، شفاءً لأمراض عقولنا، وأمراض نفوسنا، وأمراض مجتمعنا، فنتطلب ذلك منه بتدبر آياته، وتفهم إشاراته، ووجوه دلالاته، وشفاءً أيضًا لأبداننا، فنفعل كما كان يفعل النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه على ما تقدم في حديث عائشة رضي اللّٰه تعالى عنها، وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه وآله الصلاة والسلام، وانتهى إليه علمنا، غير مقصِّرين ولا غالين، وعلى ربنا متوكلين، سائلين أن يشفينا بالقرآن أجمعين، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٥، م٧) محرم ١٣٥٠هـ- ماي ١٩٣١م.

صفتان من صفات النوع الإنساني: الإعراض عن النعمة واليأس من الرحمة

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٣] .

تمهيد:

في النوع الإنساني غرائز غالبة عليه، لا يسلم منها إلا من عصم اللَّه أو وفق إلى الإيمان والعمل الصالح.

وفي آيات القرآن العظيم بيان لكثير من تلك الغرائز، للتحذير من شرها، والتنبيه على سوء مغبتها، منها هذه الآية الكريمة.

المناسبة:

لما ذكر تعالى أن القرآن يكون شفاءً ورحمةً للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا؛ بين تعالى سبب خسار أولئك الظالمين، وهو إعراضهم عن اللَّه وبعدهم منه ويأسهم من رحمته.

وعلم منه أن المؤمنين الذين كان القرآن لهم شفاءً ورحمةً هم على الضد منهم، فهم أهل إقبال على اللَّه تعالى، وقرب منه، ورجاء فيه.

المفردات:

(أنعمنا): أوصلنا أنواع الإحسان.

(الإنسان): المراد به النوع باعتبار مجموعه، فلا ينافي خروج أفراد كثيرين بالعصمة والتوفيق.

(أعرض): صد بوجهه إلى ناحية أخرى فأرى عرض وجهه، أي ناحية وجهه.

(نأى): بَعُد.

(بجانبه): بناحيتيه بشقه الأيمن أو الأيسر، والباء للتعدية أي أبعد جانبه.

(مسه): أصابه.

(الشر): البلايا والرزايا بأنواعها.

(يئوسًا): شديد اليأس والقنوط وعدم انتظار الفرج.

التراكيب:

جيء بفعل الشرط وجوابه ماضيين[1] لتحقق وقوعهما، ولذلك كان التعليق بإذا وجواب الشرط، والفعل والمعطوف عليه فيهما الصورة التامة للمعرض غاية الإعراض، فإنه يصرف عنك وجهه، وهذا مفاد الفعل الأول، ويلوي عنك عطفه، ويبعد جانبه، ويوليك ظهره، وهذا مفاد الفعل الثاني.

ثم هما كناية عن الاستكبار وعدم الاكتراث والالتفات إلى مولى النعم، سواء حصلت هذه الصورة بالفعل أو لم تحصل.

(١) في الأصل: «ماضين».

المعنى:

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض تمام الإعراض:

إما بعدم قبول تلك النعمة استكبارًا أو تهاونًا كما يكون من الذين يكفرون بالقرآن أو يخالفونه، وهو من أعظم نعم اللَّه عليهم.

وإما بعدم القيام بحق اللَّه في تلك النعمة، وعدم شكره عليها، كنعمة العقل والبدن والحال وغيرها، إذا لم تستعمل في طاعة اللَّه ولم يقم بحقه فيها.

وإذا مس الإنسان الشر ونزلت به المصائب، وحلت به النوائب، استولى عليه اليأس والقنوط، وانسدت في وجهه أبواب الرجاء.

توجيه:

يرتبط اليأس من رحمة اللَّه بالإعراض عن نعمته من جهتين:

الأولى: أن من أعرض عن نعمة اللَّه فقد قطع صلته بخالقه، وذهب ممعنًا في بُعده، فإذا نزلت به المصيبة كان كالمنقطع به في البيداء، يجد نفسه وحده، فيأخذه اليأس والقنوط من كل جانب.

الثانية: أن الإعراض عن النعمة ترك لها ولموليها، والآيس متروك لوحده مغضوب عليه، قد ترك فترك، وكان جزاؤه من جنس عمله.

انتقال واعتبار:

هذه حالة أهل الإعراض.

أما أهل الإقبال على اللَّه تعالى والقبول لإنعامه، فإن قلوبهم عامرة باللَّه وصلتهم متينة به، فإذا نزلت بهم المصائب رجعوا إليه وانتظروا رحمته، فكان ذكره غناهم في الفقر، وأنسهم في الوحشة، ونعيمهم في الألم، وكان لهم من الرجاء في أنواع رحمته ما يهون عليهم جميع المصائب.

تبصير وتحذير:

بصرنا القرآن في هذين الوصفين الذميمين: الإعراض عن النعمة، واليأس من الرحمة، ونحن نراهما فاشيين في أكثر الناس على تفاوت بينهم على حسب ما عندهم من إيمان وعمل صالح.

بصرنا القرآن بهما ليحذرنا منهما ومن سوء عواقبهما، فإن الإعراض عن النعمة كفر بها ومقتضٍ لسلبها، وإن اليأس من رحمة اللَّه جهل به وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه، وموجب لانطماس القلب وشلل البدن وانقطاع الأعمال.

فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين، وليعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما.

سلوك:

على المرء أن يَقبل نعم اللَّه تعالى ويُقبل عليها إقبال المستعظم لها، العارف بحقها وعظيم الفضل بها، ليقوم بشكرها وذكر اللَّه عندها، وليتفحصها وليتأملها نعمة نعمة، ليشكر اللَّه عليها واحدة واحدة، بالقلب واللسان والأركان حسب المستطاع، حتى ما يكون من باب المصائب والآلام فإنه يتناوله على أنه نعمة من اللَّه تعالى بما فيه من أجر وتمحيص، وما

يحصل به من رجوع وإنابة، وما يكون منه من تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورى: الآية ٣٠].

وليكن دائمًا متمسكًا بحبل الرجاء في اللَّه في تيسير الأسباب، وكشف الكروب، ودفع المكروه.

فالرجاء حسن ظن في الرب، وقوة في القلب، وباعث على العمل، ومخفف أو مذهب للألم.

فيالها من طاعة عظيم أجرها، جليل نفعها في الدنيا والدين.

فهنيئًا للشاكرين الراجين، ويا ويح الكافرين - كفر عقيدة أو كفر نعمة - القانطين.

* * *

مباينة سلوك أهل الحق لسلوك أهل الباطل

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٤] .

المناسبة:

قد استفيد مما تقدم تقسيم الخلق إلى قسمين: أهل إيمان ورجاء، وأهل كفر وقنوط، فجاء البيان في هذه الآية بأن كل فريق له مذهبه وطريقه الذي يكون عليه.

المفردات:

(شاكلته): طريقته ومذهبه المشاكلة له اللَّائقة به التي صارت له طبيعة وخلقًا.

(أهدى سبيلًا): أسدُّ مذهبًا وأقوم طريقًا.

التراكيب:

التعبير بالمضارع مع لفظة (على) يفيد تجدد العمل وانبناءه على الخلق والطبيعة.

المعنى:

قل يا محمد ﷺ كل فريق منا ومنكم يعمل في حياته على طريقته ومذهبه، فأعمالنا مباينة لأعمالكم، لأن طريقتنا مباينة لطريقتكم، فربكم أعلم بمن هو أقوم طريقًا وأسدُّ مذهبًا، فيثبِّت المهتدين ويعاقب الضالين.

ومن فوائد الآيةالكريمة:

استدراج الضال لقبول الهداية: وذلك بمناصفته بأنك على ناحيتك، وهو على ناحيته، وإظهار التساوي معه أمام علم اللَّه وقدرته، وهذا من أنفع الأسباب في نجاح الدعوة، وعليه في القرآن آيات كثيرة منها سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فينبغي لدعاة الحق أن يلتزموه ولا يهملوه.

والبراءة من أهل الباطل: وذلك بإعلان المباينة لهم، والمخالفة لهم في عملهم، وما انبنى عليه عملهم، بأسلوب المناصفة الذي جاءت به الآية، فتحصل البراءة مع الفائدة المتقدمة.

انبناء الأعمال على العقائد والأخلاق:

فإن الآية: وإن كانت بالخطاب الأول للمشركين ثم لأمثالهم من الكافرين، فإنها تفيد أن كل أحد تبنى أعماله على مذهبه وطريقته التي هي خلقه وطبيعته.

ونأخذ من هذا أن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله[1].

فعل المؤمن ما يناسب إيمانه:

فإن كل أحد يعمل على طريقته وطبيعته اللائقة به، ولا يليق بالمؤمن ولا

(١) كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (١٥٩٩)، وقد تقدم برقم (٦٩).

يشاكله إلا الصدق في القول والعمل والعدل والإحسان والوفاء والأمانة، فلا يظلم من ظلمه، ولا يخون من خانه، ولا يكذب على من كذب عليه، فلا تجري أفعاله في مقابلة الناقص على ما يشاكل ذلك الناقص، بل تجري أفعاله على ما يشاكله هو في إيمانه وكماله.

مراقبة اللَّه في السلوك:

فإنَّ عِلمَنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلًا يدعونا إلى المبالغة في تقويم سلوكنا حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فإنه هو أهدى الطريق وأقربها.

وما ذلك الصراط المستقيم إلا القرآن العظيم والهدي النبوي الكريم وسلوك السلف الصالح، وذلك هو دين الإسلام.

نسأل اللَّه لنا ولجميع المسلمين الاستقامة والنجاة يوم القيامة، بمنِّه وكرمه آمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب: (ج٧، م٧) ربيع الأول ١٣٥٠هـ- جولييت ١٩٣١م.

من سورة مريم

تفسير الآية (٩٦)



الودُّ
من إكرام اللَّه لأولياء اللَّه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: الآية ٩٦] .

سبب النزول، ووعد السابقين:

كان السابقون الأوَّلون من المؤمنين - أوَّل الإسلام بمكَّة - مبغوضين من أهل مكة المشركين، مهجورين منهم، مزهودًا فيهم.

ومن أشد الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضًا مهجورًا مزهودًا فيه، خصوصًا مثل تلك النفوس الحية الأبية.

فأنزل اللَّه هذه الآية تأنيسًا لأولئك السادة، ووعدًا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنه سيجعل لهم ودًا فيصيرون محبوبين مرغوبًا فيهم.

وقد حقق اللَّه وعده، فكان أولئك النفر بعد السادة المقدمين من أقوامهم وعشائرهم لسبقهم وفضلهم، وكانوا - وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية - المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها لعدلهم ورحمتهم، ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي الذي كانت تئن تحته تلك الأمم، وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال، فكان على وفق ما قال.

عموم الوعد لعموم اللفظ:

الإيمان - وهو التصديق الصادق المثمر للأعمال - والأعمال الصالحة - وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الإيمان - هما اللذان جعلهما اللَّه سببًا في تحقيق جعل هذا الود لما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ فيعمُّ ذلك كل أهل الإيمان والعمل الصالح. وهم أولياء اللَّه و﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤].

سبب الود وسبب الجعل:

تُكسَب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم، منها القرابة، ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف ومآثر الإحسان.

أما هذا الودُّ الذي وعد اللَّه به الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسببه جعل من اللَّه له في قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الأسباب، فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة، ولا وصل إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود خاص يكرمهم اللَّه به، وينعم عليهم به الرحمن، من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم، زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح - ومنه الإحسان - من مودة القلوب.

أما سبب هذا الجعل والوضع والإيجاد من اللَّه لهذا الود والإكرام به فهو الإيمان والعمل الصالح، وهما سبب لإكرامات كثيرة من اللَّه تعالى - هذا الجعل للود منها.

بشارة وتثبيت:

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق، وأنصار السنة، ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم.

في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي اللَّه محبُّون، وسيكون لهم ودٌّ في القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون.

وفيها أيضًا تثبيت لهم في تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الودِّ وأي ود هو. ودٌّ يكون من جعل الرحمن.

دفع إشكال:

الآية منظور فيها إلى مجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وغالبهم، فلا يشكل علينا أن منهم من يموت في غُربة الحق قبل أن يكون له على الحق أنصاره، ومنهم من يموت غير معروف من الناس.

كما أن الودَّ الذي يجعل لهم غير منظور فيه للعموم، فلا يشكل ببغض من يبغضهم تعصبًا لهوى، أو تقليدًا لضالٍّ، أو حرصًا على منفعةٍ، ومحافظةً على جاهٍ أو منصبٍ أو مالٍ.

تفسير نبوي:

قال رسول ﷺ: «إن اللَّه إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن اللَّه يحبُّ فلانًا فأحبوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي (جبريل) في أهل السماء: إن اللَّه يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[١١٢].

---

[١١٢] صحيح:

رواه -كما قال المصنف - بهذا اللفظ مسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة، وكذا أحمد (٢/ ٤١٣و٥٠٩) والترمذي (٣١٧٣/ ١) إلا أنه زاد قبل قوله: «وإذا أبغض»:

«فذاك قول اللَّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: الآية ٩٦]».

وقال: «حديث حسن صحيح».

ورواه مالك (٤/ ٣٤٨/ ١٨٤٢) ومن طريقه مسلم ولم يسق لفظه، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٤٧) وأحمد (٢/ ٢٦٧و٣٤١) بنحوه.

ورواه البخاري (٣٢٠٩و٦٠٤٠و٧٤٨٥) دون ذكر البغض، وهي رواية لمسلم وأحمد (٢/ ٥١٤).

وللحديث شاهدان:

١- عن ثوبان: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩) والطبراني في «الأوسط» (١٢٦٢) وسيأتي لفظه قريبًا، وقال الهيثمي (١٠/ ٢٠٢) بعد عزوه لأحمد: «ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان وهو ثقة».

وعزاه في (١٠/ ٢٧٢) للطبراني في «الأوسط» وقال: «رجاله ثقات».

٣- عن أبي أمامة: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٣) بسند ضعيف، فيه شريك بن عبد اللَّه القاضي وهو سيئ الحفظ لكنه حسن في الشواهد والمتابعات.

ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» (٣٦٣٩و٦٥٧٨) وقال الهيثمي (١٠/ ٢٧١): «ورجاله وثقوا».

وأما الزيادة التي أشار إليها المصنف: =

رواه بهذا اللفظ مسلم، ورواه البخاري وغيرهما.

وزاد الطبراني «ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: الآية ٩٦].

فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبراني.

وبيَّن النبي ﷺ بقراءة الآية أن هذا القبول الذي يجعل لمن أحبه اللَّه في أهل الأرض - والمراد بهم من يعرفونه منهم - هو نوع الود المذكور في الآية.

وبيَّن أن أهل القبول في الأرض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الأرض.

= فرواها أيضًا الطبراني في «الأوسط» (٢/ ١٣٩-١٤٠/ ١٢٦٢) عن ثوبان مرفوعًا:

«إن العبد يلتمس مرضاة اللَّه ﷻ، فلا يزال كذلك، فيقول اللَّه: يا جبريل، إن عبدي فلانًا يلتمس أن يرضيني، فرضائي عليه. قال: فيقول جبريل ﵇: رحمة اللَّه على فلان، وتقول حملة العرش، ويقول الذين يلونهم، حتى يقوله أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض، فقال رسول اللَّه ﷺ: وهي الآية التي أنزل اللَّه عليكم في كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: الآية ٩٦].

وإن العبد ليلتمس سخط اللَّه، فيقول اللَّه ﷻ: يا جبريل، إن فلانًا يسخطني، ألا وإن غضبي عليه، فيقول جبريل: غضب اللَّه على فلان، ويقول حملة العرش، ويقول من دونهم، حتى يقوله أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض».

وقال: «لا يُروى هذا الحديث عن ثوبان إلا بهذا الإسناد، تفرد به ميمون».

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٧٢): «ورجاله ثقات».

وسكت الحافظ عنه في «الفتح» (١٠/ ٥٦٧).

قلت: وللزيادة شاهد عن أبي هريرة: أخرجه الترمذي - كما تقدم قريبًا - وابن أبي حاتم - كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩١)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وأشار الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٥٦٧) إلى ثبوتها.

وبيَّن أن سبب ذلك القبول هو محبة اللَّه لهم، فمن أحبهم حبَّبهم لعباده.

ولما كان سبب القبول محبة اللَّه لهم، بيَّن ﷺ أن بغض اللَّه سبب في بغض الخلق لهم، إذ ما تسبَّب عن أحد الضدين يتسبب عن الآخر ضده.

ولما كانت محبة اللَّه مسببة عن الإيمان والعمل الصالح، فبغض اللَّه مسبب عن ضدهما، إذ ما تسبب عنه أحد الضدين يتسبب عن ضده الضدُّ الآخر.

وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئًا زائدًا على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس، كذلك تكون هذه البغضاء التي يهين اللَّه بها ويعاقب من يشاء، زيادة على ما تقتضيه أسباب البغضاء بينهم، فيكون هذا الذي وضعت له البغضاء - والعياذ باللَّه - مبغوضًا حتى ممن لم يكن منه إليه شيء من أسباب البغض.

تبيين وتعيين:

قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق ولأهل الباطل، لأئمة الهُدى ولرؤوس الضلال، لدعاة الإتباع ولدعاة الابتداع.

ولكن أهل المحبَّة من اللَّه والود والقبول من العباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالحون، لا لأنفسهم والتحزب لهم وجلب النفع لهم، والذي يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبي ﷺ في سيرته ودعوته. وما كانت دعوته إلا للقرآن وبالقرآن دون أن يسأل على ذلك من أجر.

وهذا لأن الود والقبول عند العباد مسببان عن محبة اللَّه للعبد، ومحبة اللَّه لا تكون إلا للمتبعين للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١].

فكرامة الود والقبول إنما هي للمتَّبعين له ﷺ، فأمَّا غيرهم فما يكون لهم من قبول عند أمثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم.

إرشاد:

أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف أن على المسلم أن يتمسك بالإيمان والعمل الصالح والاتباع للنبي ﷺ ولو كان في قوم انفرد بينهم بذلك وحده. ولا يستوحش من انفراده بينهم. فحسبه رضى اللَّه ومحبته وكفى بهما أنسًا.

وليثق بأنه - إن صدق ومدَّ اللَّه في عمره- يكون له ودٌّ وقبول في عباد اللَّه وأنس بمن يحبهم ويحبونه للَّه، وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمع بين أهلها في الدنيا والآخرة.

جعلنا اللَّه والمسلمين من العاملين له المتحابين فيه[1].

* * *

---

(١) الشهاب: (ج٤، م١١) ربيع الثاني ١٣٥٤هـ- جويلية ١٩٣٥م.



من سورة طه

تفسير [الآية: ١١٤]



من آداب المتعلم
حسن التلقي وطلب المزيد

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤] .

لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم[1]، فلن يكون عالمًا إلا من كان متعلمًا، كما لن يصلح معلمًا إلا من قد كان متعلمًا .

ومحمد ﷺ الذي بعثه اللَّه معلمًا[2] كان أيضًا متعلمًا . علمه اللَّه بلسان جبريل، فكان متعلمًا عن جبريل عن رب العالمين. ثم كان معلمًا للناس أجمعين .

أرأيتَ أصل العلم ومَن معلِّموه ومتعلِّموه؟

ثم أرأيت شرف رتبة التعلُّم والتعليم؟

---

(١) ثبت ذلك في حديث مرفوع، أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية رضي الله عنه بلفظ: «يا أيها الناس، تعلموا، إنما العلم بالتعلّم، والفقه بالتفقه، ومن يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين» .
قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٢١٢): «إسناده حسن، إلا أن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر، فروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفًا، ورواه أبو نعيم الأصبهاني مرفوعًا . وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره». قال: «والمعنى ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلم».

(٢) كما في الحديث الصحيح: «إن اللَّه لم يبعثني مُعَنِّتًا ولا مُتعنِّتًا، ولكن بعثني مُعَلِّمًا ميسرًا». أخرجه مسلم (١٤٧٨) عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما .
وله شاهد عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما عند الدارمي (١/ ٩٩) وابن ماجه (٢٢٩).

لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها، ولرتبة التعليم آدابها .

وكان محمد ﷺ أكمل الخلق في آدابهما بما أدبه اللّٰه وأنزل عليه من الآيات فيهما، مثل آيتنا اليوم وغيرها .

لزوم الصمت عند السماع:

كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي وقرأه عليه قرأ معه وساوقه في القراءة، وكان ذلك منه ﷺ لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يبلِّغه كما أنزل عليه .

ولأنَّ تعلق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه يدعوه إلى النطق به لما بين القلب واللسان من الارتباط .

ولأنَّ شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجيل بقراءته، غير أن القراءة عند السماع وقبل تمام الإلقاء تمنع تمام الوعي، لأن عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعي والحفظ .

فلذا نهى اللّٰه تعالى نبيه ﷺ عن أن يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضى ويتمم إليه وحيه فقال تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ .

تأكيد الصمت بكفِّ اللسان:

لا يتم تفرغ القلب للوعي إلا بسكون اللسان، فلا يكفي في تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة ، فلا تكون قراءة لا جهرًا ولا سرًّا .

فلذا أكد اللَّه تعالى طلب ترك القراءة بالنهي عن تحريك اللسان فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٦].

ثم بين أن اللَّه يجمعه في قلبه ﷺ بالحفظ، وأنه يطلق بقراءته لسانه بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٧] أي قراءتك إياه.

ثم أمره أن يتبع قراءة جبريل إذا قرأه عليه فيقرأه كما قرأه بعد فراغه بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٨] أي فإذا قرأه جبريل وفرغ منه، فاتبع قراءته فاقرأه كما قرأه.

وأنه تعالى يبينه بأقوال نبيه ﷺ وأفعاله بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٩].

هذا الأدب أدب عام:

إنما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد.

فكما كان على المتعلِّم أن يسكت حتى يفرغ معلِّمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه إليه المعلم حتى يفرغ المعلم من إلقائه، كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته، وعلى كل قارئ لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه ثم يبدي رأيه فيه، وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك.

فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم المناظر فيردُّ ويقبل، وفهم القارئ فيعرف ما يأخذ ويترك، وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع.

وبترك هذا الأدب، كثيرًا ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم، وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو الكلام.

دوام التعلم للازدياد من العلم:

يتعلم الإنسان حتى يصير عالمًا ويصير معلمًا، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمل به، فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه وعلَّمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبدًا أن يتعلم، وأن يطلب المزيد.

ولذا أمر اللَّه نبيه ﷺ - وهو المعلِّم الأعظم - أن يطلب من اللَّه - وهو الذي علَّمه ما لم يكن يعلم - أن يزيده علمًا فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

تحذير واقتداء:

ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عن العلم، فوقف بهم عندما انتهوا إليه فجمدوا، وأكسبهم الغرور بما عندهم فتعظموا، وتكلَّموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء.

فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسَه مَنِ ابتُلي بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره، ويزداد مما ليس عنده ممن عنده علم ما لم يعلم.

ويحذر من أن يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، ويقتدي بهذا النبي الكريم ﷺ، فلن يزال يطلب من اللَّه تعالى أن يزيده علمًا، ما ييسر له من أسباب، وما يفتح له من خزائن رحمته، وما يلقيه في قلبه من نور، وما

يجعل له من فرقان، وما يوفقه إليه من أصل ذلك كله، وهو تقوى اللّٰه والعمل بما علمه.

نسأل اللّٰه لنا وللمسلمين العلم النافع والعمل الصالح، فهو ولي الهداية والتوفيق[١].

* * *

(١) الشهاب: (ج٥، م١١) جمادى الأولى ١٣٥٤هـ- أوت ١٩٣٥م.



من سورة الأنبياء

تفسير (الآية: ١٠٥)

من وعد اللَّه للصالحين

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

[الأنبيَاء: الآية ١٠٥] .

المناسبة:

لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها وأحوال الخَلق يوم القيامة - جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد ﷺ .

توجيه:

وإنَّما كانت هذه الآية في أمة محمد، لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يبق الكلام إلَّا عليها، فخوطبت بما قضاه اللَّه وكتبه من إرث الصالحين الأرض.

والمخاطَبون بهذه الآية المكية هم المؤمنون باللَّه الموحِّدون له المتبعون لرسوله محمد ﷺ المصدق لجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهم أصحاب النبيِّ ﷺ، وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلامًا بما كتبه اللَّه لهم، ووعدًا بإرثهم الأرض.

الألفاظ:

«الزبور»: بمعنى المزبور أي المكتوب، والمراد به جنس ما أنزله اللَّه من الوحي على رسله -عليهم الصلاة والسلام- وأمر بكتابته.

وقرأ حمزة(١) الزُّبور، جمع زِبْر، أي كتاب، فعينت هذه القراءة أن المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة، لا خصوص زبور داود عليه السلام.

«الذكر»: المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي كتب اللَّه فيه كل شيء قبل أن يَخلُق الخَلق.

وجاءت تسميته بالذكر فيما رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«كان اللَّه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»[١١٣].

ومما كتبه في الذكر ما أنزله على رسله -عليهم الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: الآية ٢١- ٢٢].

«الأرض»: جنس الأرض الدنيوية، لأن هذا اللفظ موضوع لها، فإذا

---

(١) هو الإمام القدوة شيخ القراءة، حمزة بن حبيب بن عمارة، التيمي الكوفي. توفي سنة (١٥٦هـ). ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٩٠- ٩٢).

[١١٣] **صحيح**:

رواه - كما قال المصنف - البخاري في مواضع من «صحيحه» (٣١٩١و٧٤١٨) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٠) وأحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

أطلق انصرف إليها، وبهذا فسرها ابن عباس[١١٤] من طريق علي بن [أبي](١) طلحة وهي أصح طرقه.

«يرثها»: تنتقل إليهم من يد غيرهم. وأصل الإرث الإنتقال من سالف إلى خالف. وقد يطلق في غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازًا.

«الصالحون»: الصالح من كل شيء: هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته، وضده الفاسد: وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته.

ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال، فإذا قالوا: هذه آلة صالحة عنوا أنها محصلة للمنفعة المرادة منها لانتظام أجزائها، وإذا قالوا آلة فاسدة عنوا أنها لا تحصل المنفعة لاختلال في تركيبها.

والصالح في لسان الشرع - قرآنا وسنة - لم يخرج عن هذا المعنى حيثما جاء.

---

[١١٤] ضعيف:

رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٠٤) قال: حدثنا علي ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥]

قال: أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض و يدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وهذا إسناد ضعيف ؛ علي - وهو ابن أبي طلحة - لم يسمع من ابن عباس فهو منقطع، وأبو صالح هو عبد الله بن صالح كاتب الليث فيه كلام من قبل حفظه، وباقي الإسناد ثقات: معاوية هو ابن صالح، وعلي شيخ الطبري هو ابن سهل الرملي، والله أعلم.

(١) سقطت من الأصل.

فالصالح هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقة، وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعماله، وطابت أقواله، فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس.

استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله، فعظمت وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٩] وكما في حديث التشهد «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»[١١٥].

وقد بيَّن القرآن من هم الصالحون بيانًا شافيًا وكافيًا بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى

---

[١١٥] صحيح:

قطعة من حديث روي عن جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد الله بن مسعود: أخرجه البخاري (٨٣١ و٨٣٥ و١٢٠٢ و٦٢٣٠ و٦٢٦٥ و٦٣٢٨ و٧٣٨١) ومسلم (٤٠٢) وأبو داود (٩٦٤) والترمذي (٢٨٩) والنسائي (٢/ ٢٣٧-٢٤١) و(٣/ ٤١) والدارمي (١/ ٣٠٨) وابن ماجه (٨٩٩) وأحمد (١/ ٣٨٢).

٢- عبد الله بن عباس: أخرجه مسلم (٤٠٣) وأبو داود (٩٧٠) والنسائي (٢/ ٢٤١-٢٤٣) والترمذي (٢٩٠) وابن ماجه (٩٠٠) وأحمد (١/ ٢٩٢) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٣- عبد الله بن عمر: أخرجه أبو داود (٩٦٧) والدارقطني (١/ ٣٥١) وقال: «هذا إسناد صحيح».

٤- أبو موسى الأشعري: أخرجه مسلم (٤٠٤) وأبو داود (٩٦٨) والنسائي (٢/ ٢٤١-٢٤٢ و٣/ ٤١-٤٢) والدارمي (١/ ٣١٥- ٣١٦) وابن ماجه (٩٠١) وأحمد (٤/ ٤٠٩).

٥- عمر بن الخطاب: أخرجه مالك (١/ ١٨٥-١٨٦/ ٢٠٠) موقوفًا عليه وإسناده صحيح كما قال الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٤٢٢) وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال بالرأي كما قال ابن عبد البر.

ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١١٣- ١١٤].

المعنى:

يخبرنا اللَّه تعالى أنه كتب في الكتب التي أنزلها على رسله من بعدما كتب في اللوح المحفوظ الذي هو أصل تلك الكتب أن الأرض يرثها ويملكها عباده الصالحون: أهل العقائد الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والأعمال المستقيمة، الذين ينفعون العباد والبلاد.

تطبيق:

خاطب اللَّه بهذه الآية المؤمنين بمكة، وهم في قلَّة عَدد وعُدد، يعدهم بذلك - لا بطريق صريح - أنهم يرثون الأرض، ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ويبعثهم - بتعليق الوعد بوصف الصلاح -على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه.

ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور وهي مدنية بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النُّور: الآية ٥٥].

وقد حقق اللَّه لهم هذا الوعد؛ ففتح لهم الفتوح، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومدَّ ملكهم في الشرق والغرب.

وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح، وترأسوا ذلك المُلك العريض.

تعميم وتقييد:

علَّق الوعد بالوصف وهو الصلاح ليعلم أنه وعد عام، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها - ولا محالة من هذا الوعد.

واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضًا تقييده بأهله، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدها ما ورثت.

ونظير هذا التقييد قوله في آية النور: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

تنظير:

مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوي به قلوبهم، ويثبت إيمانهم، ويظهر به صدق نبيه ﷺ بما أعلمه به من غيب - أحاديث صحيحة كقول[1] النبي ﷺ لخباب رضي الله عنه، وقد لقي الصحابة من المشركين شدة، فسأله أن يدعو، فقال له النبي ﷺ:

«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن اللَّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا اللَّه»[١١٦].

---

(١) البخاري في باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين. [المصنف].

[١١٦] صحيح:

رواه البخاري (٣٦١٢) و (٣٨٥٢و٦٩٤٣) وأبو داود (٢٦٤٦) والنسائي في «الكبرى» (٥٨٩٣) وأحمد (٥/ ١٠٩و١١٠و١١١و٦/ ٣٩٥) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

وكقوله[1] ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه:

«فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا اللَّه، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»[١١٧].

(١) البخاري في باب علامات النبوة في الإسلام. [المصنف].

[١١٧] صحيح:

رواه البخاري (٣٥٩٥) عن عديٍّ بن حاتم قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال:

«يا عدي: هل رأيت الحيرة؟ قلتُ: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال:

«فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا اللَّه - قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ - لئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»، قلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال:

«كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين اللَّه أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم».

قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول:

«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا اللَّه، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي ﷺ أبو القاسم:

«يخرج ملء كفه».

ورواه أحمد (٤/ ٢٥٧و٢٥٨و٣٧٨و٣٧٨-٣٧٩) والحاكم (٤/ ٥١٨-٥١٩) من طريق آخر بنحوه وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي!.

و(الظعينة): أصلها الراحلة التي يرحل ويظعن عليها، أي يُسار.

وقيل للمرأة ظعينة، لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت.

وقيل الظعينة: المرأة في الهودج، ثم قيل للهودج بلا امرأة وللمرأة بلا هودج: ظعينة.

كذا في «النهاية» (٣/ ١٥٧) لابن الأثير.

وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك.

ومثل هذا أحاديث أخرى في «الصحيح».

فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد. وقد صدق اللَّه وعده لعباده الصالحين وصدق نبيه ﷺ بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئًا من أسبابه، بل لا يرى إلا ما هو منافٍ له، ولكن العاقبة للمتقين.

إشكال وحلُّه:

قال أُناسٌ: إن أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون يستولي عليها غيرهم، والأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة، فيجب تأويل الآية بها.

والجواب: أن هذا التأويل إنما يحتاج إليه أن لو كانت الآية هكذا: «إن الأرض لا يرثها إلا عبادي الصالحون» بطريق الحصر فيهم.

أما لما كانت الآية لا حصر فيها، فلا حاجة إلى هذا التأويل، بل في لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح.

وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]، فيرثها الصالحون نعمة؛ ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير.

إيرادٌ وجوابه:

قد يقال: فما هي الفائدة إذًا في تخصيص الصالحين بالذكر في هذه الآية؟

والجواب:

١ - أن هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة، وهم الصالحون في الأرض، ليعلموا ما وعدهم اللَّه به، وليعلموا أن قوة الباطل إلى ضعف، وأن ضعف الحق إلى قوة.

٢ - ولأن شأن الصالحين إذا كانوا أن يكونوا قليلًا سيما أول أمرهم، فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا إيمانًا وقوةً وثباتًا.

٣ - ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعدة، غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة، لا يحسبون لذلك حسابًا، فيحتاجون إلى علم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد وإن كانوا قلة في الناس.

و ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩].

تحذير من تحريف:

رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض - وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان -فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم اللَّه بإرث الأرض. وزعموا أن المراد بـ(الصالحون) في الآية

الصالحون لعمارة الأرض.

فياللَّه للقرآن . وللإنسان . من هذا التحريف السخيف! كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذِّبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروِّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهدِّدت بأعظم حربٍ تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرِّف أن يطبق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان. وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأما الصالحون فهو لفظ قرآني قد فسره القرآن كما قدمناه، وقد شرّف أهله بإضافتهم إلى اللَّه في قوله: «عبادي»، فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين.

موعظة وإرشاد:

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بيَّنه القرآن.

فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح، فلاحظَّ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام.

ولِلَّه سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض وسيادة الأمم، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وكلُّ محاولة لصدها عن غايتها - وهو آخذ بها - مقضي عليها بالفشل.

سنة اللَّه، ومن ذا يبدِّلها أو يحوِّلها؟

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢] و[الفتح: الآية ٢٣] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: الآية ٤٣] ثم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: الآية ٤٩][1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٦، م١١)، جمادى الثانية ١٣٥٤هـ- سبتمبر ١٩٣٥م.




من سورة الحج
تفسير (الآية: ٣٨)



دفاع اللَّه عن المؤمنين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٨].

الكلمات:

دفع الشيء: صدُّه وردُّه، والدفاع عن الشيء حمايته بصدِّ ما يؤذيه عنه.

وقرئ في المتواتر (يدفع)[1]، وقرئ (يدافع)، وهو بمعنى يدفع، ولكنه أريد قوة الدفع فجيء بيفاعل الذي يقتضي المغالبة في أصله، لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ. أو لأن ما يهيئه اللَّه لهم من أسباب الدفع التي يباشرونها مقابلة لما يقصدهم به أضدادهم فكان الدفع من الجانبين.

خان: إذا ضيع ما جعل في حفظه وعهدته، والخوَّان الكثير التضييع لما استحفظ.

والكفور: الكثير الجحود للنعم، فلا يعترف بها أو لا يؤدي شكرها.

التراكيب:

عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف، وأعداؤهم في كثرة وقوة، كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بُعيد الهجرة - تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم، فلذا جاء هذا الخبر مؤكدًا بإنَّ.

---

(١) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، كما قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، بالأخرى (يدافع). أفاده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٤٣٥).

ولكون هذا الدفع متجددًا جيء بالفعل مضارعًا.

ولبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى.

وأُكِّدت بإنَّ لأنَّ الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغوضون؟ فأجيب بالتأكيد.

وحذف مفعول يدافع ليعم كل ما يدفع، فشمل كيد جميع الكائدين.

التفسير:

هذا من اللَّه تعالى خَبرُ حقٍّ ووعدُ صدقٍ للمؤمنين بأنه يردُّ عنهم كيد أعدائهم، ويبطل مكرهم، ويكف شرهم، وإن عظم ذلك منهم وكثر.

وأن هذا منه لهم متكرر متجدد.

ذلك لأنهم بإيمانهم حافظوا على أمانة اللَّه عندهم وعهده لديهم، واعترفوا بنعمه وشكروها؛ فأحبهم اللَّه ورضي عنهم؛ فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم.

ولأن أعداءهم ضيَّعوا أمانة اللَّه عندهم بارتكاب المنهيات وترك المأمورات، وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه ﷺ أو ما جاءهم به من شرعه؛ فأبعدهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين.

تحرير في التعليل:

إن الحبَّ من اللَّه والبغض كسائر أفعاله لا تقع إلا على وجه الحق والعدل والسداد، وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم.

فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لإيمانهم، وأعداؤهم أبغضهم وخذلهم

لخيانتهم وكفرهم.

واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات أضدادهم وليست من صفاتهم، فإيمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد اللَّه عندهم في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم، ومستلزم لاعترافهم بنعم اللَّه وشكره عليها باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من برِّه.

وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر إيمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم، ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان ورسوخه في قلوبهم.

فإذا عدمت منهم الأمانة، فخانوا اللَّه والرسول، وخانوا أماناتهم، وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإذا بطروا نعم اللَّه عندهم، فعطلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير وأسباب الحياة والسعادة، واستعملوا منها ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات - إذا كانوا هكذا، فقد استوجبوا غضب اللَّه وبغضه ونقمته، وحرموا نصرته ودفاعه، وكانوا هم الظالمين.

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر:

الخيانة خيانتان: خيانة عقيدة، وخيانة أعمال، وكذلك الكفر، وكذلك النفاق، وكذلك الشرك[1].

---

(١) قال ابن القيم في «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٨- ٥٩): «والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كِفر كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]، وجهل غير كفر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: الآية ١٧]، كذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة، =

وإنما يخرج المرء عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة، لا بما كان في الأعمال إلا عملًا يدل دلالة ظاهرةعلى فساد العقيدة وانحلالها.

وعلى هذا عقد البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجامع الصحيح» أبوابًا في (ظلم دون ظلم)، و(كفر دون كفر)[1].

تطبيق:

لما كان المسلمون أهل الإيمان والصدق والشكر والأمانة دافع اللَّه عنهم، وقد شهد التاريخ بذلك من اللَّه لهم، فلما خانوا وكفروا تركهم ومكَّن منهم.

= وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة، وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل كالرياء.
وقال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المَائدة: الآية ٧٢]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٣١].
وفي شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].
ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير اللَّه فقد أشرك». [رواه أبو داود وغيره]. ومعلوم أن حلفه بغير اللَّه لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل».
فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها.
وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد هو الذي أنكره اللَّه على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار، ونفاق العمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

(١) في كتاب الإيمان: (٢١- باب كفران العشير، وكفر دون كفر) و(٢٣- باب ظلم دون ظلم).
قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١١٩): «(دون) يحتمل أن تكون بمعنى غير، أي أنواع الظلم متغايرة. أو بمعنى الأدنى، أي بعضها أخف من بعض، وهو أظهر في مقصود المصنف».

ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتي، وهم لحم على وضم[١] بين الأمم لايستطيعون دفعًا عن أنفسهم. وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلوِّ بين ظهرانيهم رغم إعراضهم عن تدبُّره وهجرهم لما فيه - عساهم يرجعون.

تنبيه وتحذير:

كل عمل لا يحلُّ فهو خيانة وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبه اللَّه على هذا بقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: الآية ١٩] وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، و الإشارة بطرف العين فيما يحرم.

وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة، لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره.

ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمرًا من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم[٢].

فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة، دقيقها وجليلها، وخصوصًا ما اتصل بالناس منها، ويتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها.

---

(١) الوضم: الخشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم، تقيه من الأرض كما قال ابن الأثير، شبه المصنّف الأمة الإسلامية في الضعف بمثل ذلك اللحم الذي لا يمتنع على أحدٍ ما دام على الوضم.

(٢) ساق الحافظ المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة طيبة منها في كتابه الحافل «الترغيب والترهيب» فليراجعها من شاء في «كتاب القضاء وغيره» (باب ترغيب من ولي شيئًا من أمور المسلمين في العدل إمامًا كان أو غيره. وترهيبه أن يشق على رعيته أو يجور أو يغشهم أو يحتجب عنهم أو يغلق بابه دون حوائجهم) بالأرقام (٢١٨٢- ٢٢١٠) من «صحيح الترغيب» للألباني.

سؤال وجوابه:

فإن قيل: قد نجد من عباد اللَّه المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب، وقد يُقْتَل (وكأين من نبي قُتِل[1]) [آل عمران: الآية ١٤٦]، وقد أصاب المؤمنين يوم أُحد ويوم حنين ما أصابهم.

فالجواب: أن دفع اللَّه يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة، ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد، ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات، وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم، فيتداركوا أمرهم بالإصلاح والمتاب، فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عودًا، وأظهر قلوبًا، وأكثر خبرة، وأمنع جانبًا، وإن في صبر الصابر منهم - وقد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه والظلم الذي لا يقدر على إزالته - لبعثًا للقوة في نفس غيره ممن يأتسي به، وضعفًا في قلب ظالمه - وفي كليهما دفع من اللَّه عن المؤمنين.

---

(١) بضم القاف وكسر التاء من غير ألف: قرأ بها ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبان والمفضل كلاهما عن عاصم.

وقرأ الباقون: «قاتل» بألف. كذا في «زاد المسير» (١/ ٤٧١- ٤٧٢). لابن الجوزي.

فمن الغرائب: قول المعلق على طبعة دار الكتب العلمية:

«كذا جاء في الأصل المطبوع «قُتِلَ»، والصواب «قاتل»، كما في الآية الكريمة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ...﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٦]»!

ومن جهل شيئًا عاداه، وعش رجبًا تر عجبًا!!.

مشاهدة وتوصية:

نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها إلا بدفع اللّه، وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع اللّه، وقد كنا فيها - فيما نرى[1] على شيء من العمل للّه. فكيف بمن كانت أعمالهم كلها للّه.

وهذه المشاهدة التي شاهدنا - ولا نشك أن من غيرنا مَن شاهد مثلنا أو أكثر منا - توجب علينا أن نوصي بالإيمان باللّه والمحافظة على عهده والثقة به، فإنَّ ذلك يحقق وعد اللّه بالدفع، وينيل أهله العزة والحفظ.

فعلى المسلم أن يعمل لذلك ويعتد به ثقة باللّه وصادق وعده. واللّه لايخلف الميعاد[2].

* * *

---

(١) أي: نظن.

(٢) الشهاب: (ج٩، م١١)، غرة رمضان ١٣٥٤هـ- ديسمبر ١٩٣٥م.





تفسير [الآية: ٥١]



أكل الحلال والعمل الصالح

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] .

الكلمات:

الطيب: ما صلح واعتدل في نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته، فكان مستلذًا للنفوس، سواء كان ما يدرك بالسمع أو بالبصر أو بالذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل.

فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أوعقلية. ويقابله الخبيث وهو ا لمستقذر حسًّا أو عقلًا، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] .

فما أحل اللَّه إلا الطيب المستلذ، وما حرم إلا الخبيث المستقذر.

فلهذا صار الطيب في لسان الشرع يجيء كثيرًا بمعنى الحلال ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام. ومنه ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي المحلَّلات.

فملك غيرك وإن كان مستلذًا في الحس. فإنه ليس طيبًا لك شرعًا، وذلك لأنه مستقذر في العقل بما فيه عند تناوله بدون إذن صاحبه من التعدي المستقبح في العقل.

وقد يجيء الطيب بمعنى الجيد، والخبيث بمعنى الرديء، وعليه قوله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] .

الصالح: هو المستقيم النافع، وهو فعل المأمورات، وترك المنهيات، وتناول المباحات من حيث أنها مباحات أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيات.

التراكيب:

للاهتمام بالمأمور به قُدِّمت قبل الأمر جملةُ النداء.

ولأن هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل.

ولأن كل واحد منهم أوحى اللَّه إليه بهذا النداء والأمر في زمانه، كان النداء والأمر للجمع.

وقد دخل في الجمع عيسى - عليه الصلاة والسلام - الذي كان الحديث عليه في الآية التي قبل هذه وهي: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠] .

كما دخل في الجمع محمد ﷺ الذي نزلت عليه هذه الآية.

ولأن المقصود من الأكل - وهو الغذاء واللذة - يحصل ببعضٍ، قيل «من الطيب» بمن التبعيضية.

ولمَّا كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تستشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك، جاء الخبر مؤكدًا بإنَّ في ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ .

وعلم اللَّه مستلزم لجزائه للعاملين، فكان كناية عن الجزاء، وفي الكناية

عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم، فهو جزاء اللَّه العليم وكفى به.

التفسير:

خُلق الإنسان مركبًا من روح وبدن، وإنما بقاء بدنه بالغذاء، وإنما كمال روحه بالعمل؛ فأمر اللَّه بالأكل لبقاء البدن، واشترط أن يكون من الطيبات لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه[1] أو يعدم منها الغذاء، وأمر بالعمل الصالح الذي فيه زكاء للنفس ونفع لها في العاجل والآجل، وخير للعباد والبلاد. وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده.

والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص.

وقد انتظمتهما الآية تصريحًا في العمل واستلزامًا في التوحيد.

وبيَّن - تعالى - بهذه الآية أن هذا الذي اشتملت عليه هو دين اللَّه لجميع الأمم أوصى به رسله -عليهم الصلاة والسلام- ليبلغوه لِخَلْقِه، فهو حقيقٌ أن يُؤخذ به ويعمل عليه.

توجيه الترتيب:

تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل.

فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها اللَّه كما حرَّم غلاة

---

(١) تفه الرجل يتفه تفوهًا: قلّ عقله فهو تافه. وتفه الطعام يتفه تفاهة: لم يكن له طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة فهو تفه وتافه.

المتصوفة اللَّحم.

وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام.

والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقد بيَّن ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم اللَّه، وقد جوده مالك رحمه الله في كتاب الجامع من «الموطأ»[1].

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها، لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الأعمال.

بيان نبوي:

أخرج مسلم في «صحيحه» من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«**أيها الناس إن اللَّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا. وإن اللَّه تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧٢] ثم ذكر **الرجل يطيل السفر - أشعث أغبر - يمد يديه إلى السماء - يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام**

(١) انظر (٤/ ٣٠٦- ٣١٧- بشرح الزرقاني).

وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»[١١٨].

فبيَّن الحديث الشريف أن اللَّه طيِّب - أي منزَّه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله، تنعم العقول والأرواح بمعرفته - كما يليق به - ومحبته. وأنه لا يقبل من الأعمال إلا طيبًا، أي صالحًا في نفسه، خالصًا من شوائب المخالفة والرياء والشرك.

وبيَّن أن الشرع عام للرسل وللأمم، ولايستثنى من هذا إلا ما دل الدليل على اختصاصه بالرسل.

وبيَّن أن أكل الحلال هو الذي يثمر قبول الدعاء، والدعاء هو مخ العبادة. فإذا رد عليه فقد ردت عليه عبادته، فكان هذا البيان النبوي على مقتضى ما أفاده ترتيب الأمرين في الآية.

تكميل:

في آية الرسل الأمر بالأكل من الطيبات، والأمر بالعمل الصالح، واستلزام الأمر بالإخلاص.

وفي آية المؤمنين الأمر بالأكل من الطيبات، والأمر بالشكر، والتصريح

---

[١١٨] حسن:

أخرجه - كما قال المصنف - مسلم في «صحيحه» (١٠١٥) وكذا الترمذي (٢٩٩٦) والدارمي (٢/ ٣٠٠) وأحمد (٢/ ٣٢٨) عن أبي هريرة، وقال الترمذي:

«حديث حسن غريب، وإنما نعرفه من حديث فضيل بن مرزوق».

قلت: هو ثقة وسط خرَّج له مسلم دون البخاري كما قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٥٨) وفي «التقريب»: «صدوق يهم» فمثله يحسن حديثه إن شاء اللَّه.

بلزوم توحيده تعالى في العبادة لأنَّ تمامها هكذا: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٢].

واقتصر في الحديث على الأمر بالأكل من الطيبات، إما لأن الكلام كان في الحث على أكل الحلال، وإما لأن الراوي اختصر الرواية.

الاهتداء:

على المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه وكل ما به قوام ذاته - الحلال الطيب، يمتثل بذلك أمر اللَّه، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح.

وعليه أن يتحرى في فعله وتركه، أمر اللَّه ونهيه، حتى يكون عمله عملًا صالحًا طيبًا متقبلًا، يمتثل بذلك أمر اللَّه، ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه.

والمتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته.

رزقنا اللَّه والمسلمين التحري لطاعته، والتوفيق لمرضاته، والتأدب بكتابه. آمين[1].

*****

(١) الشهاب: (ج١١، م١١) ذي القعدة ١٣٥٤هـ - فيفري ١٩٣٦م.

من سورة النور

تفسير الآيتين (٦٢ و٦٣)

الاجتماع العام للأمر الهامّ
وارتباط الجماعة بأمر الإمام

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٢] .

الألفاظ:

الأمر الجامع: هو الحادث الذي يتطلب الاجتماع بطبيعته فيجمع الإمام الناس من أجله، من ذوي الرأي والمعرفة بمثله، والخبرة والتجربة فيه، من كل ما يعم نفعه أو ضرره، من أمور السلم والحرب، وشؤون الحياة والاجتماع، ليتشاوروا فيما بينهم ويستضيئوا بعضهم لرأي بعض.

والاستئذان: هو طلب الإذن من الإمام بمفارقة الاجتماع لعذرٍ قاضٍ بالمفارقة.

المعنى:

يأمر اللَّه المؤمنين إذا كانوا مع رسوله ﷺ على أمرٍ جامعٍ أن لا يفارقوا مجلسه كلهم أوبعضهم إلا بإذنه.

وأكد هذا الأمر بما وطأ له من ذكر الإيمان باللَّه ورسوله تنبيهًا على أنه من مقتضاهما. وبقرنه بهما وجعله ثالثًا لهما، تعظيمًا لشأنه، وتنبيهًا على ملازمته

لهما ممن صدق فيهما. حتى كأنَّ غير المستأذنين لا إيمان لهم، وبإعادته في الجملة الثانية ببيان أن الذين يستأذنون هم دون غيرهم الثابتون في إيمانهم، المستمرون عليه، تعريضًا بالذين لا يستأذنون وتقبيحًا لحالهم بأنهم لا ثبات لهم في الإيمان ولا استمرار منهم على العمل به، فليسوا بالمؤمنين ولا بالذين يؤمنون.

ثم جعل الخيار لرسوله في الإذن وعدم الإذن لهم إذا استأذنوه لبعض شأنهم، تعظيمًا لأمر الاجتماع، وتعظيمًا للصالح العام، وتوكيدًا لحق الإمام على الجماعة لحفظ الاجتماع وتتميم الأعمال.

ثم أمره أن يستغفر لهم، فقد يكون العذر دون الإضطرار. وقد يكون ما فاته من بركات الاجتماع، وحسنات المشاركة فيه بالرأي والاهتمام وتكثير السواد - بسبب ذنب كان منهم في أمر غير الاجتماع، وأكد هذا الأمر بأنه الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم.

الأحكام:

لما كان الاجتماع شُرع للمصلحة، والذهاب بدون استئذان حُرِّم للمفسدة، فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة.

فأحكام الآية مستمرة الأحكام، عامة للمسلمين في كل زمان وكل مكان مع أئمتهم وقادتهم والمقدمين منهم فيهم، في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام.

فمن أحكام الآية الكريمة:

١- أن على أئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم إذا نزل بهم أمر هام أن

يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأي والعمل فيما نزل، فلا يجوز لهم أن يهملوا أمرهم، ولا أن يستبدوا عليهم.

٢- وأن على المسلمين أن يجتمعوا إليهم، ويكونوا معهم يظاهرونهم ويؤيدونهم وينصحون لهم. فلا يجوز لهم أن يتخلفوا عنهم، ولا أن يخذلوهم.

٣- وأن على المجتمعين أن لا يذهب واحد منهم إلا بإذن.

٤- وأن لا يستأذن إلا لعذر ببعض الشأن.

٥- وأن على الإمام أن ينظر في الإذن وعدمه، فيفعل ما هو أولى.

بيان مراد، ودفع اغترار واعتراض:

تجد في آيات القرآن العظيم أخبارًا ووعودًا من اللَّه تعالى للمؤمنين، ولربما حسب من لا يعلم أنها تشمل كل من كان على أصل الإيمان من اعتقاده مع بعض أعماله، وإن فرط في كثير من أصول الأعمال.

فيبين اللَّه تعالى في هذه الآية وأمثالها مراده بالمؤمنين عند إطلاق لفظ المؤمنين في تلك الأخبار والوعود، حتى لا يغتر المفرِّطون ولا يعترض الجاهلون.

توجيه وإرشاد:

إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم باللَّه ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكر وتدبر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة.

ولهذا قرن اللّه في هذه الآية بين الإيمان باللّه ورسوله ، والحديث عن الجماعة، وما يتعلق بالاجتماع.

فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان، وحفظ عمود الإسلام.

موعظة:

ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه، إما باستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما بانتثار جماعتهم، بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم.

وما ذاك إلَّا من سكوت علمائهم، وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين، وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين.

فعلى أهل العلم - وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم - أن يقوموا بما أرشدت إليه هذه الآية الكريمة فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع الشوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، حتى لا يستبد بهم مستبد، ولا يتخلف منهم متوان، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم، فينبذ ويطرح، ويستغنى عنه باللّه وبالمؤمنين.

موازنة وترجيح:

هنالك المصلحة العامة، وهنالك المصلحة الخاصة، ومحال أن تساوى هذه بتلك.

انظر إلى الذكر الحكيم كيف عبَّر عن الأولى بالأمر الجامع، وفي هذا ما فيه من تفخيم.

وعبَّر عن الثانية ببعض الشأن، وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل.

وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية، وأنها ما كانت تعتبر إلا على وجه الرخصة، والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى.

امتثال ورجاء:

لنجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا، حتى لايكون - إن شاء اللَّه - في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها، راجين من اللَّه تعالى أن يعيننا على ما قصدنا، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا، إنه نعم الموفق، ونعم المعين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج١، م١٣) غرة محرم ١٩٥٦هـ - مارس ١٩٣٧م.

الاجتماع العام، للأمر الهامّ وارتباط الجماعة بأمر الإمام

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣] .

المناسبة والارتباط:

لما بينت الآية السابقة وجوب الاستئذان عند إرادة الإنصراف من مجلسه، عليه الصلاة والسلام، بينت هذه الآية وجوب تلبية دعوته إذا دعا، وفضحت حالة الذين يتسللون غير مستأذنين، وحذرت من فعلهم، وأوعدت الوعيد الشديد المخالفين أمثالهم.

الألفاظ:

الدعاء: النداء وطلب الإقبال للحضور.

بينكم: في اعتقادكم ومعاملتكم.

يتسللون: يذهبون قليلًا قليلًا من الجماعة متخفين.

لواذًا: ملاوذة، بأن يلوذ هذا بهذا، ويلوذ هذا بهذا، متسترًا به حتى لا يرى عند خروجه.

فليحذر: فليتيقظ وليتحرز، وذلك باجتناب المخالفة.

يخالفون عن أمره: يصدون ويعرضون عن طريقته وسنته ومنهاجه، وما كان عليه من سير في الحياة.

الفتنة: البلاء بأنواع النقم أو بنعم تستدرج إلى النقم، هذا معنى الفتنة لأنها ذُكرت في مساق الوعيد.

عذاب أليم: في الآخرة.

المعنى:

لا تنزلوا دعاء الرسول لكم إذا دعاكم إلى الحضور عنده منزلة دعاء بعضكم بعضًا للحضور، فتحسبون أنفسكم مخيرين: إن شئتم أجبتم وإن شئتم تخلفتم، فتارة تجيبون وتارة تتخلفون، فإجابة دعوته والإسراع إليه واجب محتم عليكم، والتخلف أو التباطؤ - لغير عذر واضح - محرم عليكم. ذلك لأنه إذا دعاكم لا يدعوكم إلا لمصلحة قطعية، وخير محقق، يعود عليكم في أمر الدين أو أمر الدنيا، ففي تخلفكم أو تباطئكم تفويت أو تعطيل أو تثبيط.

وإذا حضرتم مجلسه فابقوا كلكم عنده، ولاتذهبوا من مجلسه واحدًا واحدًا، أو اثنين اثنين، يتستر بعضكم ببعض عند الخروج، حتى لا يراه الناس ولا يراه الرسول، فإن اللَّه يعلم قطعًا أولئك الذين يخرجون متسللين متسترين بعضهم ببعض، فإذا نجوا من ملام الرسول، فإنهم لا ينجون من عذاب اللَّه.

وإذا كان اللَّه عالمًا بصنعهم، ومفارقتهم لمجلس رسوله، وثلمهم لجماعته، وصدهم وإعراضهم عما هو عليه هو ومن معه - فهو معاقبهم على ما ارتكبوا بالبلايا، يصبها عليهم في الدنيا، أو العذاب الأليم ينزله بهم في الأخرى، أو يجمع لهم ما بينهما، فليجتنب أولئك المخالفون لأمره هذه الفتنة

وهذا العذاب، وليحذروا منهما. وما ذلك إلا بترك المخالفة والإقلاع عنها، والرجوع إلى الموافقة والاتباع.

تنظير وتعميم:

أمراء المسلمين وقادتهم ومن يتولون أمرًا من أمورهم العامة تجاب دعوتهم إذا دعوا لأمر عام وشأن مما يرتبط بما في عهدتهم من أمر الناس، ويسرع إليهم، ولا يتسلل من مجالسهم.

ذلك لما لهم من حق الخلافة عن الرسول ﷺ فيما كان يقوم به من أمر الناس، وتدبير شؤونهم، وضبط نظامهم، ورعاية مصالحهم.

ميزان:

كل الأقوال والأعمال توزن بأقواله وأعماله، وكل الأحوال والسير توزن بسيرته وحاله.

فما وافقها فهو الحق والخير والهدى، وهو الذي يُقبَلُ مِن كائن مَن كان.

وما خالفها فهو الباطل والشر والضلال، وهو الذي يردُّ على صاحبه كائنًا من كان.

وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أنه ﷺ قال:

«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[119].

---

[١١٩] صحيح:

أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧١٨) وأحمد (٦/ ١٤٦و١٨٠و٢٥٦) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم وأبو داود (٤٥٩٣) وابن ماجه (١٤) وأحمد (٦/ ٢٤٠و٢٧٠) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ».

وجوه الفتنة وسببها:

مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي، وما كان عليه رسول اللَّه ﷺ في تنفيذ شرع اللَّه وتطبيق أحكامه وتمثيل الإسلام تمثيلًا عمليًّا -تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم بحكم صريح هذه الآية.

وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد، فذكروا الكفر، والقتل، والاستدراج بالنعم، وقسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئًا، وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم.

أعظم الفتنة:

غير أن أعظم الفتنة - فيما نرى[1] - هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: «أن يسلط عليهم سلطان جائر» فإنه إذا جار السلطان - وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها - فسد كل شيء، فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدركات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك. ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه.

هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين - بحسب ظواهره - بدينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء.

حقًّا إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد

---

(١) أي: نظن.

السلاطين الجائرين منها ومن غيرها. وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها.

فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها. ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة؟ عليهم الرضوان والرحمة.

تطبيق وتحذير:

من أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد للَّه بها على ما مضى من سنته فيها، وإحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها.

وكلا هذين زيادة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول اللَّه ﷺ وسبق إلى فضيلة قصر رسول اللَّه ﷺ عنها.

وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء، دع ما يجرُّ إليه من بلايا أخرى.

وقد طبق الإمام مالك رضي الله عنه هذه الآية الكريمة على هؤلاء المتزيِّدين أحسن تطبيق وأبلغه وأردعه لمن كان له فهم وإيمان.

روى الإمام ابن العربي[1] رحمه الله بسنده المتصل إلى سفيان بن عيينة رحمه الله قال:

«سمعت مالك بن أنس - وأتاه رجل - فقال يا أبا عبد اللَّه من أين أُحْرِم؟ قال: من ذي الحُليفة من حيث أحرم رسول اللَّه ﷺ، فقال: إني أريد أن

(١) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٤١٢- ١٤١٣).

أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل. قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة. قال: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ. إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣] ».

فليتأمل المسلمون - وخصوصًا المنتسبين إلى مذهب مالك - في فقه هذا الإمام العظيم، ووقوفه عند حدود الله، وليحذروا من عاقبة المتزيدين المتغالين.

بوارق أمل:

لقد شعر المسلمون عمومًا بالبلايا والمحن التي لحقتهم، وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم، وأدرك المصلحون منهم أن سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم ﷺ، فأخذت صيحات الاصلاح ترتفع في جوانب العالم الإسلامي في جميع جهات المعمور، تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم، بقطع سببها واجتثاث أصلها، وما ذلك إلا بالرجوع إلى ما كان عليه محمد -عليه الصلاة السلام- وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير في الإسلام.

وقد حفظ الله علينا ذلك بما إن تمسكنا به لن نضل أبدًا - كما في الحديث الصحيح[١٢٠] - الكتاب والسنة.

---

[١٢٠] حسن:

رواه مالك (٤/ ٢٤٦/ ١٧٢٧) بلاغًا، وله شواهد:

وذلك هو الإسلام الصحيح الذي أنقذ اللَّه به العالَم أوَّلًا، ولا نجاة للعالم ممَّا هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه اللَّه به ثانيًا.

وقد أخذ المسلمون يصيخون أسماعهم، ويستجيبون أفواجًا أفواجًا لداعي الاصلاح أينما دعاهم.

وفي ذلك - والحمد للَّه - ما يقوي الرجاء والأمل، ويبعث على الجد والعمل.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التّغَابُن: الآية ١٣][(١)].

* * *

١- عن ابن عباس: أخرجه الحاكم (١/ ٩٣) بسند حسن، وصححه هو ووافقه الذهبي.
٢- عن أبي هريرة: أخرجه الحاكم والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٧٤/ ٢٧٤و٢٧٥) من طريق صالح بن موسى الطلحي عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي صالح عنه، والطلحي متروك.
٣- عن أبي سعيد الخدري: أخرجه الخطيب في «الفقيه» (٢٧٦) بإسناد فيه ضعيفان ومجهول.
(١) الشهاب: (ج٢، م١٣) صفر ١٣٥٦هـ، أفريل ١٩٣٧م.

فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

من سورة النحل

من سورة الإسراء

الآية (١٨)

من سورة مريم

من سورة (طه)

من سورة الحج

من سورة المؤمنون

من سورة النور

* * *